محمد الأمين مصطفى

الهندي...

الطريقُ إلى الحبشة

THE ROAD TO ABYSSINIA

سيرة روائية



2022

الهند... الطريقُ إلى الحبشة



الكتاب: الهندي ... الطريقُ إلى الحبشة
الكاتب: محمد الأمين مصطفى
تاريخ النشر: الطبعة الأولى 2022
رقم الإيداع: 2022/514

الناشر

دار الأجنحة للطباعة والنشر والتوزيع



المدير المسؤول: متوكل زروق

التصميم والإخراج الفني: التشكيلي بكري خضر

فهرسة المكتبة الوطنية اثناء النشر-السودان
813.083 محمد الأمين مصطفى ,1977
م ا,ه
الهندي .. الطريق إلى الحبشة/محمد الأمين مصطفى - ط -1الخرطوم: دار الأجنحة للطباعة والنشر ,2022
200ص :24سم
ردمك 978-99988-54-38-9 ISBN
1. القصص العربية الواقعية.-2الشريف زين العابدين الهندي .
أالعنوان

حقوق النشر محفوظة للمؤلف والناشر ©

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو اي جزء منه, أو تخزينه كنسخة ألكترونية او نقله باي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

دار الأجنحة للنشر غير مسؤولة عن اراء المؤلف وأفكاره, وتعبر الآراء والافكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

محمد الأمين مصطفى

الهندي...
الطريقُ إلى الحبشة

سيرة روائية



الخرطوم الثانية صباحاً..
الخامس والعشرون من مايو ١٩٦٩م.

الباب يهتز بطرقاتٍ لحُوحة، ثم توحي بأنّها تصمت لثوانٍ تأدُّباً، وتعود بذات الإيقاع المتسارعِ العَجول، يسمعها بأذنٍ غائبة، وجسم مُتهالك، كأنَّ الروح قد بارحت أطرافه الساعة وتنتظره في مكانٍ ما داخل الغرفة حين يفيق، عاجزٌ عن فتح عينيه بالمرّة، فشلَ تماماً في تحريكِ أيِّ مفصلٍ من جسده.

درجة الحرارة طاردة ولا يحسُّ بها، ولا هواء يأتي من مروحتها وكأنها تصعد به إلى السقف، حتى أنه لا يأبه لتكَّتها المُزعجة أثناء دورانها، بل إنه لم يسمعها أصلاً، امتلأ ظهره عرقاً، لم ينم غير ساعتين كانتا أقرب إلى الغيبوبة، لا يستطيع فتح الباب، كيف يفتح الباب لهذا الطارق المتطفّل ليلاً، كيف لِمن نام بحذائهِ تعباً ورهقاً القيام من فراشه والسير نحو ذلك الباب البعيد؟.

تأتي الطرقَات مرة أخرى أشدّ وأكثر إصراراً، لا مفر، أياً كان هذا الطارق، عليه صرفه حتى الصباح، صاح بصوتٍ مُتكسّرٍ منهكٍ أقرب إلى الأنين:

ـ مَن خلف الباب؟.

أجاب الطارق بخفوتٍ مريب:

ـ أنا عباس.

تساءل قائلاً:

ـ عباس منو؟.

أجابه بنفسِ الصوت الحذِر وكأن هناك من يلاحقه:

ـ عباس الفونس، أريدك في أمرٍ هام.

ردَّ عليه برجاءٍ وتَوسُّل وقد أغمض عينيه في أسى شديد:

ـ ألا ينتظِر هذا الأمر للصَّباح.
تضاعف إلحاحه قائلاً:
ـ لا يمكن أن ينتظر ولو دقيقةً واحدة، الأمر خطير.

فتح عينيه وقام بخطواتٍ متثاقلة، فتح الباب، لم يمنع ظلام الليل من تبيُّنِ ملامحه، تذكّره، هو ذلك الشاب النشِط، لاحظ وجوده في مناسباتٍ عديدة، قليل التردُّد عليه وعديم المطالب، لا شكَّ أنّ الأمر جلل، قال له بعد أن انتهت حواسه لتطرُد بعضاً من ذلك الأرق عندما سأله:

ـ ما بِك يا عباس؟.
ردَّ خافِضاً صوته:
ـ وأنا عائدٌ من مناسبة زواج في حي الثورة، عبرت كُبري أم درمان قاصداً منزلنا في المقرن، لاحظت هناك حركة مريبة، سيارات من الجيش تملأ الطرقات، ودبابات سدّت جنبات الكُبري، حولها عشرات الجنود يحملون البنادق الآلية، أعتقد أنه انقلاب عسكري سيدي الشريف.

***

انكفأت الديمقراطية مرَّة أخرى

لن يحتمِل الجيش الصَّبر في ثكناته منتظراً الحرب التي قد تأتي وقد لا تأتي، فالقوي هو الذي يملك السِّلاح. كيف لآلافٍ تتدرع بالأسلحة أن تأتمِر لأصحابِ ربطاتِ العنق الملوَّنة، ذلك هو منطق إفريقيا، مُدنها كغاباتها، الحُكم فيها للأقوى، لم يتفاجأ لسماعه هذا الخبر، كل الخيوط التي أمسك بأطرافها قبل أسابيع كانت كافية لقراءة الموقف بعد غزلها ليتّضِح الرسم جيداً.

منذ محاولة انقلاب كبيدة أيام عبود مُنِعت جميع مناورات الجيش بالذخيرة الحيَّة، وما حدث في ساحات معسكر خور عمر قبل أيام يعدُّ خرقاً لذلك المنع الذي التزم به الجيش، إذ دوَّى صوت السِّلاح الحي من فُوهات الدَّبابات، وبنادق فِرقة المظلّات المُشاركة التي ادَّعت الحضور لقضاء ليلة سمر في معسكر المشاة، والمريب تماماً أنه لا يُعقل أن يكون ذلك الرائد الذي يُعتبر المسؤول الرابع في الاستخبارات العسكرية مُتربِّعاً في مكاتب مرؤوسِيه الثلاثة بالليل والنهار وبسلطاتِهم، بينما هم يتمرَّغون في إجازاتٍ طويلة الأمد مع زوجاتهم وأبنائهم خارج البلاد. وأثارت حفيظته تلك المعلومات الدقيقة والخطيرة، والتي تقول إن العقيد جعفر جاء من وحدته العسكرية في جَبيت لقضاء إجازة عاصمية قصيرة، ولكنّها تلخّصت في مبيته لأيام في القيادة الشرقية بمدينة القضارف، وبعدها قضى يومين في شندي داخل ثكناتها العسكرية، ثم ختمها في الخرطوم متجولاً بين وحدات الجيش، مع اجتماعات مريبة في منزله بحضورِ أشخاصٍ مدنيين ذوي اتجاهات سياسيةٍ فائحة، وزاد من قلقه عندما وجد خطاباً على سطح مكتبه من وزارة الخارجية تطلب فيه مالًا من خزينة الدولة لسفرِ ثلاثين ضابطاً من الجيش إلى روسيا لمواصلة المفاوضات حول صفقةٍ من الأسلحة، رفض أن يُصدِّق بسحبِ ذلك المبلغ الكبير لهذا العدد المريب، كيف يسافر ثلاثون ضابطاً في طائرة واحدة، وبينهم عشرة من قيادات الأسلحة لمهمة بدأها ضابط واحد من وزارة الدفاع وموظف من وزارة المالية؟.

جاء الخطاب الثاني في اليوم التالي من ذات الخارجية تقول فيه إن كل

العدد سيسافر وسيستضاف على حساب وزارة الدفاع السوفيتية، وفعلاً سافر ذلك الوفد بموافقة وزارة الدفاع ووزارة الخارجية قبل أن يطرق عباس بابه بثلاث ساعاتٍ فقط، حزم كل الدلائل والإشارات وأوثقها بحبلٍ واحد، وذهب يُبصِّر بها من يهمهم الأمر، الدولة، بدأ بأعضاء الهيئة البرلمانية لحزبه في اجتماعهم الدوري، شرح وأبان، وضَّح وفصَّل، وختم قائلاً:

ـ أنتم تتكلمون عن الانفراد بالحكم، وتتحدّثون بمعنويات عالية عن الانتخابات القادمة، وأنا أحذركم من ضياع الديمقراطية.

أزعج حديثه البعض، والآخرون تهكَّموا عليه ساخرين باعتبار أنَّ ما قاله ليس إلا أطياف من المبالغات التي تتراكم عليه عادةً أثناء نشاطه الماكوكي المتَّصل ليله بنهاره، وهمس ساخراً زميله المسؤول عن أمن البلاد للذي جواره قاصداً أن يُسمِعه ما يريد قوله:

ـ السيد وزير المالية يريد أن يخيفنا.

خرج منهم يائساً، وهرع إلى السيد رئيس الوزراء ووزير الدفاع، فعسى أن تكون آذانهما صاغية ليتداركوا الأمر ويدركوا خطورة ما هو قادم، جامله رئيس الوزراء باتصاله على قائده العام الذي طلب ثلث ساعة ليجري اتصالاً بالاستخبارات.

جاء الرد من القائد العام فأومأ السيد رئيس الوزراء رأسه مبتسماً ثم وضع سماعة الهاتف وهو يقول:

ـ اطمئن سيدي الشريف، ليس هنالك شيء مما تقول، وكل ما ذكرته ليس مقلقاً، إنها إجراءات روتينية وعادية تحدث كثيراً.

صمت قليلاً واتّسعت ابتسامته وقال مُردِفاً:

ـ لن يستطيع أحد قلب حذائي هذا.

نظر إليه، ثم إلى الحذاء، وخرج متيقناً أن هؤلاء السياسيين يغطون في نوم السلطة العميق، ولن يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ كما قال ابن الصّمَّة، وتبيَّن لاحقاً أن الشخص الذي هاتفه القائد العام وطمأنه هو نفس الرائد الذي تركه رؤساءه الثلاثة خلفهم، وقد كان أحد أكبر الرؤوس التي خططت للانقلاب .

***

بُرِّي اللاماب.. يناير ١٩٣٠م

تاه الأزرق قليلاً عندما سار نحو الشرق، لا ضير، سيستعيد مساره شمالاً مخلّفاً حِدوةً خضراء، جنة من الأشجار خلّفتها الطبيعة إثر ذلك الرّسم الالهي، أشجار قديمة، ظِلّها كأهلها، وفيرة وغزيرة، فيض رزقها تأتي له أسراب الطيور والكواسِر وحيوانات الغاب من بعيد، خيرها بكدِّ أياديهم وعرق جباههم العالية، يخرجون قبل الشروق ودوابهم محملة بألوان الخضر والفاكهة، يضربون بها أسواق العاصمة المتفرقة، سرايا وأسواح ضخمة على ذلك المُنحنى بالقرب من النهر، لم تُخفِ تلك الأبنية الضخمة رائحة الطبيعة التي تلتفّ حولها، أنسام الصباح تتفتّق لها الروح قبل المسام، وكأنّك لحظتها ترى الصبح جاثماً وهو يتنفّس.

بديعٌ هو ذلك اليوم الذي رمى بنفسه في منتصف الشتاء، رياحه الشمالية مشبعة ببعض الأتربة، تمر بأشجار حِلّة كوكو لتهدأ قليلاً، وتأتي فوق النهر لتصفو، ثم تخترق خضرة حدائق المسيد فتتعطر بمزيج أوراق الأشجار وأزهاره، فتكسو المكان بالأريجِ البارد العَطِر.

ارتفعت الشمس وتدفق شعاعها نحو السرايا لتصير أحجارها بلون الذهب، أحجار أخرى سوداء تقف عليها مواعين ضخمة تحتها نار لصناعة الكسرة وطهي الإدام، رائحة البن تطوف بالأنوف، يجلسون أمام الشمس في انتظاره ومسابحهم لا تتوقّف من الدوران في باطن أياديهم، وألسنتهم لا تفتر من تكرارِ السبحانية والأوراد، يكاد ما يرتدونه أن يكون موحداً مع حركة نشطة تظهر في تسارع أرجلهم وما يقومون به من أعمال.

أقداح خشبية ضخمة يسع الواحد منها لثلاثين آكِلاً، ويعقبهم مثلهم عليه ولا تنتهي العصيدة، ولا يتوقف غارِف الإدام من صبِّه، يركض ذلك الصبي بخفة الريل وخلفه زملاء الخلوة، صعدوا درجات المضيفة التي تقبع فوق مسطبة ضخمة وعريضة تعلو الأرض بمترين ونصف، تسابقوا وتقافزوا بين أعمدةً تحمل أسقُفاً برع صانعوها في رسمها بالخشب، نزلوا الدرج الغربي وضحكاتهم الغضّة تملأ أرجاء المكان في أريحية وبراءة، كان

ذلك بعد أن غسلوا ألواحهم من قراءة قرآن الفجر، أطلقوا سيقانهم للريح مخترقين ذلك الدهليز العالي الذي يفصل المضيفة من السرايا البحرية وساحاتها الضخمة، صعد درجها للطابق الأعلى في اللحظة التي افترق منه الصِّبية وقد انطلقوا كالسِّهام نحو بوابة المزرعة واختفوا تحت أشجارها الكثيفة، وقف أعلى السطح، وبنفس السرعة ركض قاصداً الشرفة الشمالية التي تطل على المزرعة حتى يصيح على أًصحابه بمكان الثمار الناضجة فوق الأشجار، وقبل أن يصلها صاح إليه رجل يجلس على فرشٍ من السّعف، ثلاثيني، نحيف، شديد الوضاءة وجميل القسمات، عيناه بارزتان تتفتّق جمالاً وقوّة، قال له باسماً:

ـ تعال.

أتاه ولم يبطء من سرعةِ ركضهِ حتى وقف عنده قائلاً وهو يلتقط أنفاسه:

ـ نعم.

جذبه نحوه ماسحاً رأسه بيده النحيلة وسأله:

ـ ما اسمك؟.

نظر إليه وردّ مبتسماً ببراءة:

ـ اسمي حسين، أنت تعرفني، فلماذا تسألني؟.

ضحك بعد أن ضمَّه عليه بقوة وقال له بنفس المرح:

ـ غبت عاماً ونصف وتركتك صغيراً، بلا شك أنك نسيتني، من أنا؟.

اتّقدت عيناه ولمعتا ببريق ذكاءٍ طفا على ملامحه، ورد عليه قائلاً:

ـ أنت أخي الشريف عبدالله أبو شامة، سافرت يومها صباحاً وقد حمّلك أبي خطابات ووصايا، أخذتني ووضعتني على حجرك وأهديتني ورقة نقود وتمراً وسبحة، وقلت لي (عندما آتي في المرة القادمة أريد أن أراك في الخلوة)، وها أنذا في الخلوة.

ضحك بشدة حتى وضع عمامته على فمه، وصاح:

ـ ما شاء الله تبارك الله، ربنا يحفظك، وكم حفظت من القرآن؟.

رد بسرعة بعد أن أبان إليه أصابع يمينه عدا الإبهام:

ـ أربعة أجزاء.

مسح رأسه وقبّله في جبينه وقال له:
ـ ولماذا تركض إذن؟.
ابتسم قائلاً:
ـ أقف كل يوم بعد لوح الصباح في شرفة السرايا لكي أصيح على أصحابي وأخبرهم بمكان الثمار، ومنها أنظر إلى الخضرة والنهر.
ربت الشريف عبدالله أبو شامة على كتفه النحيل وقال له:
ـ هيا اذهب، ولكن احذر، فالمكان عال.
ركض متجاوزاً الصالة والغرفة ليقف في الشرفة المطلّة على الحديقة لترى عيناه مشهداً يتجدد أمام ناظريه كل يوم، نهر هناك يكسيه شعاع الصباح فتتلألأ به نتوءات سطحه المتحركة، وخضرة تغطِّي تراب الأرض فلا يتبيّن منها شيء، أشجار قصيرة علا فوقها وهو في مكانه ذاك، أطولها تقف أمامه فتميل أغصانها يُمنةً ويُسرة كأنها تحييه، لا يرى فرقاً بينها وبينه وهي تتهادى في هذا البهاء والعلو، يحسُّ بإحساس تلك الطبيعة الناطقة والنضرة في هذا الصباح وكأنها ترقص فرحاً بطلوع شمس الدنيا وهي تجاوِر أحد أنهار الجنة، عمره الآن ستة أعوام، قمحي اللون ونحيل، وضيء الوجه وحسن القسمات، عيناه تتقدان أملاً وبريقاً، ينظر أبعد مما يراه أمامه وما يراه الآخرون، ويفكِّر في أعمق ما يحفره الناس في العقول، يرفرف جلبابه بفعل النسيم كعلمٍ التفت أطرافه حول سارية رفيعة وقوية، يسمع جلبة زملائه تحت الأشجار وهم يلعبون بالقرب من اسطبلات الخيل، صاح عليه أخوه الشريف عبدالرحيم بعد أن فرغوا من جمع الفاكهة:
ـ حسين، هيا نأكل.
ردّ عليه صائحاً أيضاً:
ـ هيا بنا.
نزل مسرعاً، التقى بهم وهم عائدون من الجنينة بالقرب من الدهليز ثم انطلقوا سويًّا نحو ساحة تكيّة الطعام، وقبل أن يقتربوا من قدح الطعام أبطأوا هرولتهم قليلاً حتى وقفوا أمام الخليفة أحمد ود عالم الذي قال لهم بنبرة جادة:

ـ أرجو منكم أن لا تقذفوا الحجارة مرة أخرى نحو خيل الشريف.
أجابوا سويًّا:
ـ حاضر.
ابتسم قائلاً لهم:
ـ لا تنسوا بعد الإفطار سنلتقي في الخلوة لقراءة وتفسير بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلّم.
صاحوا بصوت واحد:
ـ حاضر.
ما إن أدار لهم ظهره وصعد درجات المضيفة حتى ركضوا مسرعين نحو بئر الماء، غسلوا أياديهم والتفّوا حول قدح الطعام الخشبي الضخم الذي أعدَّه لهم الخليفة إبراهيم ود الفكي صالح.

***

الخرطوم الثانية والربع صباحاً..
الخامس والعشرين من مايو ١٩٦٩م

خرجا من استراحة مشروع الجزيرة على عجل، توجه الحسين نحو سيارته فقاطعه عباس قائلاً:

ـ من الأفضل سيدي الشريف أن نستقلّ سيارتي، بلا شك أنهم يبحثون الآن عنك في كل مكان.

صعدا السيارة وأدار عبَّاس المحرك ثم قال متسائلاً:

ـ إلى أين سنذهب؟.

صمت الشريف قليلاً ثم أشار بيده نحو الشمال:

ـ منزل المحجوب.

ارتبك عباس قليلاً، وأبطأ في لفِّ مِقود السيارة محاولاً تفسير ما يريده الشريف، توقّع أن يأمره بالابتعاد عن دائرة الدور الحكومية تماماً، لا التوغل في قلبها، بل توقع أن يتوجهوا إلى خارج العاصمة بأقصر الطرق، الشيء الطبيعي أن منفذي الانقلاب سيقومون باعتقال كل الطاقم الحكومي، يا تُرى ماذا يريده الشريف؟ ظل لثوانٍ في حيرته حتى جاءه صوت الشريف مرّة أخرى:

ـ هيا يا عباس.

تحرّكت السيارة، عمّ هواء بارد ردّ إليه بعضاً من نشاطه بعد أن كان مُكبلاً بالتّعب، خلع الجاكيت وقذفه في المقعد الخلفي وألحقها بربطة عنقه فاتحاً ياقة قميصه السماوي، لا تبعد المسافة كثيراً من الخرطوم إلى (الخرطوم اثنين) حيث منزل رئيس الوزراء، اقتربا منه، فأبطأ عباس قليلاً، شاهدا قُبالتهم سيارات تتبع لقوات سلاح المظلات توقّفت لتوّها.

تقافز الجنود نحو رجال الشرطة الذين يحرسون المنزل، جرّدوهم من سلاحهم ثم قاموا بتفتيشهم، احتد معهم أحد الأفراد عندما صاح رافضاً تفتيشه فاستقرت طلقة في عنقه ليسقط أرضاً بلا حراك.

ابتعد عباس مسرعاً بعد أن ضغط قليلاً على دواسة الوقود حتى لا ينتبه أحد لصوت المحرك إذا علا، والتفت قائلاً بعد أن أحسّ عباس أن الشريف غير مكترث بالمرَّة لخطورة ما يحيط به:

ـ سيدي الشريف، لا شك أن هنالك فرقة اعتقال ذهبت لمنزلك الآن، أعتقد أنه علينا الذهاب لمكان آمن.

أجابه الشريف حسين في هدوء:

ـ ليس قبل أن أتأكد من بعض الأشياء، فلا زالت المحاولة في مرحلتها الأولى، توجه إلى القيادة.

اتجهت السيارة جنوباً، ثم شرقاً بالشارع الذي يفصل المستشفى من السكة حديد، والذي يؤدي الي مركز القيادة العامة للجيش التي لا تبعد أكثر من ثلاث دقائق، وكانا أمامها ولكن دون أن تتوقف سيارتهما، ثلاث مدرعات من النوع الثقيل تربض أمام بواباتها الرئيسية، تم احتلالها أيضاً، التفت عباس نحو الشريف متوجساً وبدأ قلقه يموج في صدره، المنطقة خطرة، وما يقومون به لا يعدُّ سوى محاولة انتحارية ليس إلا، قد يتم توقيفه في أيّة لحظة ويكتشفوا أمره ومعه ذلك الصيد الثمين.. وزير المالية بنفسه، نجم السياسة السودانية وخازن أسرارها وأذكي وزرائها على الإطلاق، قال له:

ـ علينا الرجوع الآن سيدي الشريف.

ردَّ عليه سريعاً:

ـ ليس قبل أن نصل إلى سلاح الإشارة.

صُعِق عباس، يا تُرى ماذا ينوي الشريف فعله؟ هذا يتطلَّب أن يعبروا كُبري النيل الأزرق، وهذا يعني أن مدخله سيكون مسدوداً برتلٍ من الدبابات والجنود أيضاً، ماذا يفعل؟ ليس عليه الآن إلا مواصلة سيره، فطريق القيادة يؤدي إلى الكُبري. تساءل مستفسراً وهو يحاول أن يُخفي توجُّسه:

ـ لا أظن الانقلابيين سيتركون الكبري دون أن يملأوا مداخله بالأسلحة، فهو الجسر الرابط بين وحداتهم العسكرية الأساسية.

رد عليه بلغةٍ فصحى وبصوت سمعه كثيراً في لقاءاته الإذاعية بعد أن

كفَّ يدي قميصه وفتح الزرارة الثانية:

ـ لا تقلق، هم الآن يقومون باعتقال القيادات السياسية والدستورية من منازلهم، لن يتوقَّعوا على الإطلاق أن يمرَّ أحدهم من هنا.

لم يردَّ عباس، ولكنه تأكّد أن اليوم قد يكون يوم حتفهِ، لا يهم، قد يسجل التاريخ هذه المواقف وهو برفقة هذا الرجل، لم يفكر في شيء عندما رأى ما رأى إلا فيه، لذا أسرع لإخباره، الموت أو الاعتقال معه شرف لا يدانيه شرف، أسرع بالسيارة حتى وقفت أمام بضعة عشر من أفراد الجيش، وعلى يمينهم دبابة انتصبت فوهتها مائة وثمانين درجة، اقترب منهم حارسان ووقفا على جاني السيارة، فاجأهم الشريف بسؤال مُباغت:

ـ السلام عليكم، ماذا هناك؟.

رد أحدهم وقد تردَّد قليلاً:

ـ لا شيء، استعداد روتيني، إلى أين ذاهبان؟.

أجابه الشريف بسرعة:

ـ نريد اللحاق بجنازةٍ في شمبات.

وكأنهم يريدون التخلص منهما، سمحوا لهما بالمرور فاختفت السيارة مسرعة في جوف الحديد لتعبر إلى الضفّة الشرقية، الأمر واضح أيضاً في ذلك الجانب من العاصمة، رتلٌ من السيارات العسكرية الكبيرة تقف على يمينهم بمحاذاة قضيب القطار الذي يأتي من نفس الكُبري، تمنَّى عباس أن يأمره الشريف بالعودة، ولكنه يريد الوصول إلى بوابات سلاح الإشارة وقد اقتربوا منها.

وجدوا خمس مدرعات تفرقت على حائطه الشمالي وعشرات الجنود، لم ينتظر منه أمراً، أدار المِقود وقفل عائداً. أضاف الشريف عقب هذا التصرُّف الفردي قائلاً:

ـ بطريق جامعة الخرطوم هيا إلى سلاح المهندسين.

لم يردَّ عباس، قرّر أن لا يُفكِّر كثيراً، تجاوزا كُبري بحري مرة أخرى دون أن توقِفهم الفرقة العسكرية، واتجها غرباً بطريقِ الجامعة نحو كُبري أم درمان، وقبل بلوغه بمسافة خمسمائة متر كانت هنالك سيارات أخرى

تأتي من تجاهه وتنحرف جنوباً، من المؤكد أنها تتبع لسلاح المهندسين، وقد تكون متوجهة نحو سلاح المدرعات بمنطقة الشجرة، أحسّ الشريف هنا بأن الانقلاب قد تجاوز مرحلته الأولى بعد تلك الجولة السريعة، وهي الساعة التي تعقب ساعة الصفر، ستشرق شمس السودانيين على حكمٍ عسكريٍّ ثان، يا ترى من هؤلاء؟ وما الذي دفعهم لذلك؟ تساؤلات كثيرة ستُفكّ طلاسمها وستظهر بعد شروق الشمس، سيُتلى البيانُ هذا الصباح، نظر أمامه، نحو المكان الذي تتجمع فيه حُمرة الشروق، وستكسو أشعة الشمس الأرجاء بعد قليل، وستتسع الرؤيا شيئاً فشيئاً.
التفت لعباس قائلاً له:

- بقِيت وجهة واحدة، هل تستطيع أن توصلني إليها.

أجاب عباس بإصرارٍ وعزم:

- أنا تحت أمرك، وفي خدمتك سيدي الشريف، وسأذهب إلى أيِّ مكانٍ تريده.

قال الشريف سريعاً بعد أن مدّ راحة يمينه جنوباً:

- إلى ود مدني.

***

بُرِّي اللاماب.. مارس 1930م

"بِذاتِك والصِّفات وكُلَّ اسم وتركيب الحرُوف وبالهجاءِ
بقرآنٍ وتوراةٍ زبورٍ وإنجيلٍ وعلمٍ والقضاءِ
بسِرِّ الأمرِ يا من أنت نورٌ وحدَّ النّهي ختماً وابتِداءِ»

تخرج الأصوات مقرونةً بلحنٍ روحانيٍ ثقيل، تتأرجح الأعناق يُمنةً ويُسرة، تَضِيق الحدقات وتلين الأجساد، ثم تميل طرباً وشوقاً، يعُمّ المدح والوصف الأرجاء وكأن ما يُوصف أمامك، ثم يعود صداه مرّةً أخرى ويختلط مع نفسه، ثم يذهب عالياً كأنه يُرى، مخترقاً السماء، مُتفرّعاً بين نجومها، وتارةً يذهب مع الريح، فتطرب الأشجار به، وترقص له الطيور في أعشاشها، يُنعِش القلوب، ويروي ظمأ الشوق الأوحد لسيد الخلق وإمام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، ماءٌ في آنيةٍ كبيرة تتوسط دائرة الذِّكر قُذِفت فيها أكواب من أنصاف جدران القرع اليابس، وتَمرٌ منثور أمام الصَّادحين والسَّامعين فوق (السَّبَاتة) السعفية البيضاء، لا ضوء غير ضوء القمر في ليلة تمامه، يعكس نوره المتدفِّق العمائم البيضاء المتراصَّة فوق الرؤوس، تخالهم نهراً تجري فوق سطحه اللآلئ، أو مسبحة يلهج بحبَّاتها ذاكر الليل الذي لا يفتُر ولا يسأم.

يأتي الصبية، يحاكونهم ما استطاعوا، ويقفزون هنا وهناك، ويأخذون التمر من أطراف السَّبَاتة، ثم ينامون على الأرض خلفهم بعد أن يُخيَّم عليهم النعاس، ويستيقظون في الفجر، يقضون صباحهم في الخلوة، ثم يعيشون نهارهم جرياً ولعباً ما بين الجنينة والتكيّة، ويعودون الخلوة مرة أخرى لقراءات المساء، ثم النوم مبكراً، هذا ما اعتادوا عليه كل يوم، عدا ليالي الذِّكر التي ينامون فيها خلف المادحين، قصيدتين ويتساقطون واحداً تلو الآخر في نوم عميق حتى توقظهم الأيادي، قال له أحدهم ليلتها وهو يوقظه:

ـ انتهى المديح يا الشريف.

يدعك الحسين عينيه ويقول:

ـ أين حسن وعبدالرحيم.

يرد عليه إبراهيم ود الفكي صالح:

ـ جوارك، أوقظهم لتذهبوا مكان نومكم.

لم يكن المكان غير صالة من القش مرفقة مع الخلوة ومعهم بقية الصبية، يصبحون ويمسون مع زملائهم، لا شيء يُميّزهم عنهم في مأكلٍ أو ملبس، ولا شيء يوحي بأنهم أصحاب المكان وتلك البنايات الضخمة، لا يذهبون إلى أمهاتهم إلا في أوقات مقدَّرة خلال الأسبوع، على الرَّغم من أن البيوت في حرم المسيد وداخل أسواره ذات الثلاثة أبواب، البيوت من طين، لا شيء فيها غير عناقريب متناثرة وملابس معلّقة وأوان فوق صندوق خشبي قديم، تلك هي التي وُلِدوا فيها ويعيشون.

سأله زميل له في مرةٍ وهو يقول:

ـ لماذا تتركون كل هذه السرايات وتسكنون جوارها في بيوت الطين هذه.

ردَّ عليه:

ـ السرايات للضيوف وأحباب الطريق، لم يبنها أبي لأولاده.

أضاف متسائلاً وكأنه يبحث عن إجابة بعينها:

ـ لماذا لا يبني لكم مثلها؟.

رد حسين قائلاً:

ـ حالنا نحن أبناؤه أفضل منه، فهو يقضي يومه في راكوبة من القش داخل هذه السرايا ولا يأكل إلا كِسرة بالماءِ وتمرات.

داخل السرايا في بُرّى، يصبح الناس كحالهم في كل يوم، خيوط الشمس الدافئة، وذلك النسيم البارد، وأكواب الشاي تطوف هنا وهناك، جاء أحد المُريدين مهرولاً ليبلغه بأنّ هناك من يطلبه في المنزل، هذا هو يوم المنى، ولا يحدث إلا قليلاً، أطلق ساقيه للريح نحو الجزء الغربي من المسيد حيث غرفتهم الطينية التي يطوِّقها حائطٌ دائري من الطين أيضاً، اجتاز عتبة الحوش الخشبية قافزاً حتى استقرت قدماه أمام شقيقته (آمنة) التي صرخت فور رؤيتها له ثم حملته في أحضانها وهي تقبِّله وتشُمّه في عُنقه، قال لها ضاحكاً:

ـ أنزليني قبل أن يراني أولاد الخلوة.

أنزلته وهي تقول:

ـ ثلاثة أيام ولم نرك، اشتقنا لك يا حسين.

ردَّ عليها باسماً ومتسائلاً:

ـ من الضيف.

أجابته وهي تشير إلى الغرفة:

ـ ادخل وستعرف بنفسك.

تمهّل قليلاً، ثم خطى بهدوء، ودخل، تفاجأ بوجود خاله، حمله الأخير في حِجرِهِ ماسحاً رأسه وهو يقول:

ـ كيف حالك يا حسين؟.

أجابه وهو ينظر إلى أمه (التاية) بت خير:

ـ بخير يا خالي.

قاطعته أمه قائلة وهي تداعبه:

ـ بما أنك وجدت خالك فأظنك لن تسلم عليّ اليوم.

ضحك وقفز من أرجل خاله وغاص في أحضانها زمناً، التفت فجأة ليباغت خاله بسؤال غير متوقّع:

ـ أين كنت يا خالي؟.

ردَّ أحمد ود خير وهو ينظر إليه بإعجاب شديد:

ـ كنت في سنجة.

سأله الحسين مُردِفاً:

ـ وكم غِبت عنَّا؟.

رفع أحمد خير حاجبيه وهو يردَّ على السؤال:

ـ قل أنت.

أشار الحسين بأصابعه قائلاً:

ـ ثلاثة شهور، وسبعة عشر يوماً، وإحدى عشرة ساعة.

ضحك وأخته وقالا بصوت واحد:

ـ ما شاء الله تبارك الله.

وواصلت التاية بت خير قائلة بعد أن جذبته عليها وبدأت في تقبيله على وجنتيه وهي تحذِّره بإلحاح:

ـ إياك أن تتحدث يا حبيبي هكذا أمام الناس.

تركهم وركض كعادته ليلحق بدرسِ الخلوة غير مكترثاً للحلوى التي أفرغتها شقيقته آمنة في جيبه، سيتذوقها عندما يوزعها على زملائه، وعند وصوله درج

المخلوان الغربي الذي يلتصق بالبئر صاح عليه الخليفة علي ود مساعد:

- شيخنا الشريف يريدك.

صعد الدرج ودخل سرايا المضيفة ثم اجتاز غرفة المَخْلَوان، خطا بتأنٍّ عند بداية (البِربة)؛ وهي المضيفة الرئيسية، بيضاوية الشكل وضخمة، سمع ذلك الصوت الجهور المهيب، صوت أبيه وهو يقول:

- تعال يا حسين.

تقدَّم نحو أبيه بخطواتٍ هادئة حتى وصله، قبَّله في يده وجلس معه على الأرض وقال له:

- خذ هذه (الدّوَاية) وهذه الورقة وأكتب ما أُمليه عليك.

جلس القرفصاء وحمل القلم وأغرقه حبراً وبدأ أبوه متأنياً في تمليته:

- (اللّه يشهدُ والكتاب المُنزلُ * يا سيّد السادات أنَّك مُرسلُ

والأرض تشهدُ من جميع جِهاتها * عُلواً وسُفلاً أنَّ خلقك أولُ

والكون يشهدُ والسماوات العُلا * يشهدنَ أنَّك فاضل متفضِّلُ

والعرشُ يشهدُ أنَّ مالك مُشبهٌ* في الحُسنِ والإحسان يا مُتجمِّلُ

واللوحُ يشهدُ أنَّ إسمك واضِحٌ * فيه وأنت مُعظَّم ومُبجَّلُ

والحُجب شاهدةً بأنك جُزتها * ليلاً وأنت مُكبرٌ ومُهللُ

وبساط نور الله يشهد أنه * مُتشرِّفٌ بك أيها المُزمِّلُ

والجنّة الزّهراء تشهد أنها * قد زُخرِفت لك أيها المُتفضِّلُ)

أخذ الشريف يوسف الورقة وتفحَّصها جيداً، ابتسم وقال له:

- الخليفة مختار ود الترابي قال إنك بالأمس أتممت تسعة أجزاء.

أومأ الحسين برأسه إيجاباً.

ربت الشريف يوسف بيده على رأسه وهو يقول بصوته العريض الذي ملأ المكان:

- حفظك الله يا حسين، حفظك الله.

***

طريق ود مدني. السادسة صباحاً..
الخامس والعشرون من مايو ١٩٦٩م

الأزهري، أين الأزهري يا تُرى؟

قذف نصف سيجارته عبر النافذة وهو في حالةٍ قلِقة، السيارة تطوي الأرض طيًّا، الغبار من خلفها يعلو ويرتفع حتى تضخّم وصار كالمارد الذي يطاردها ليلتهمها، سلكا الطريق المُعتاد الذي يؤدي إلى عاصمة الإقليم الأوسط، والشمس قد أرسلت خيوطها الصباحية التي تسبق قدومها، للحظة أحسّ عباس بأنّ نصف الجيش في إثرهما، والنصف الآخر ينتظرهما على مشارف المدينة، وأسئلةٌ شتّى تنزل على رأسه كالمطارق، كيف يذهب الشريف لود مدني وسواد طريقة أبيه الصوفية فيها وحولها مُتمثِّلة في مئات القرى والحَلّال؟ وهي عرين الحزب وعلامته الفارقة في كلِّ السجالات السياسية والانتخابية، بل إن فيها عدداً كبيراً من أسرته وخواصه ومُحبيه.

قد يكون ذكاء الشريف الذي يتمتّع به هو الذي يقوده إلى هناك، المكان الذي يُستبعَد وجوده فيه يذهب إليه أولاً بحيث يكون آخر ما يُفكِّر فيه الانقلابيون الجُدد، لم يمضِ على قذفه السيجارة ثلاث دقائق حتى أشعل أخرى، تاه بفكره بعيداً، فقد كان بالأمسِ القريب بين تُرعِ وجداول الماء في مشروع الجزيرة، الإعداد للموسم الزراعي الجديد في أوجه، الكل يقف على ساقٍ واحده، الاف من الجموع البشرية في حركة دؤوبة ليل نهار، اليات ضخمة فوق أكتاف التُرع تعمل على تنظيف باطنها بأذرعها الحديدية الطويلة، وأخرى تعمل على توسيع مجاري الحقول، و(التركتورات) تزأر وهي تقلب الأرض لتكسوها بلونٍ بنيٍّ قان وكأنها قد ألبستها كساءً جديداً، والسيارات ذات اللون الأزرق لا تفتر من طوافها على كل ذلك، يعرف أن هذه الأرض هي الكنز الأوحد للسودانيين ولا سبيل لهم غيرها، وزير المالية الذي لا يُتابع المشاريع الزراعية ويقف عليها، ليس بجدير أن يتولى ذلك المنصب، يقول هذا دائماً، بلغا مشارف ود مدني،

الأحوال هادئة، ولكنه هدوء مريب، قد ينفجر في أيّة لحظة.

وبعد أن تجاوزا حي بانت، فإذا بسيارةٍ تتبع لقوةٍ نظامية تقطع الطريق أمامهما، ولكنها لم تتوقف، أمر الشريف عباس أن يسير ببعض الطرق في التواءٍ مقصود حتى وصلا إلى منزل صديقه أحمد دهب المحامي، طرق عباس الباب والشمس لم تتعامد بعد، فتحه وصعق عندما رأى الشريف أمامه، أدخلهما، ثم عانق الشريف ودموعه محتقنة في عينيه، صاح قائلاً بصوتٍ مكتوم:

ـ حبابك يا الشريف، حرّم حبابك، حمد الله على السلامة.

أجابه الشريف مبتسماً:

ـ سلّمك الله يا أحمد، كيفك إنتَ؟.

أجابه وقد دلفوا إلى داخل الصالون:

ـ أنا بخير بعد أن رأيتك سالماً.

أجلسهما وقال مُردِفاً:

ـ لقد أذاعوا البيان، اسمه جعفر.

أجابه الشريف بعد أشعل سيجارته ووضع رجله فوق الأخرى:

ـ تعلم يا أحمد بأنّني قد نصحت قومي بمنعرج اللوى، فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ، وها قد أتى الصبح يا أبو كاتو، كنت أعلم كل تحركاتهم وقد أخبرتك بها، ولكن للأسف، لم يصدِّقني أحدٌ منهم.

تساءل بلهفة:

ـ نعم، أذكر كل حرف قلته لي، هذه هي سكرة السلطة التي أصابت منسوبينا، مع أنني لم أتوقّع في يوم من الأيام أن تأخذهم بعيداً عن الحقائق الواضحة وضوح الشمس، ولكن ما العمل الآن؟.

أنزل الشريف رجله ليضع فوقها الأخرى وقال:

ـ سمعت البيان.. لم يُثر في نفسي شيئاً جديداً، ولم يزد في حماسي لإحباط ما قاموا به، بيان عادي، لم أعتقد للوهلةِ الأولى أنه موعَز به من جهة، أو أنه مستورَد، ربما مجرّد شهوة الحكم لكل من يحمل السلاح والناس عُزّل.

تساءل أحمد المحامي وهو يصبّ الشاي الأحمر الثّقيل:

ـ وما هو رأيك الآن؟.

أشعل الشريف سيجارة أخرى وأجابه بعد أطلق أمام وجهه دخانها الكثيف:

ـ شيوعي كامل الدسم، تأكدتُ من ذلك بعد سماعي للبيان الثاني من بابكر عوض الله، حفظته كلمةً كلمة، وتمعنت في وزارته العَشرية، ثلاثة أرباع المجلس شيوعيون، أغلبهم أعضاء في اللجنة المركزية، ومنهم المتعاطفون معهم ورفقاء دربهم، وواحد أو اثنان من الضعفاء الواقفين على السياج، هؤلاء ما نُسميهم المستطعِمين في كل مائدة، والراقصين على أي نغم.

التفت إلى عباس الفونس قائلاً له:

ـ عليك بالعودة.

ردّ عباس متحمساً:

ـ لا.. لن أتركك.

أجابه الشريف مطمئناً له:

ـ لا تقلق، أنا هنا في أيدٍ أمينة، سأكون على ما يرام إن شاء الله.

تردّد عباس في بادئ الأمر، ولكنّه لم يجد مفراً إلا الانصياع لما قاله الشريف، عانقه مودعاً وقال بعد أن أدمعت عينيه:

ـ حفظك الله سيدي الشريف، كُن حذِراً.

ربت الشريف على كتفه قائلاً:

ـ لا عليك، اعتن بنفسك، وسنلتقي إن شاء الله.

***

لا يزال التعب مسيطراً على الأزهري منذ عودته من زائير ليلة ثلاث وعشرين، وأمضى يومه الثاني في إعداد الأوراق والمكاتبات الرسمية التي نفّذها هناك، أصبح بعدها والدبابات تُحيط بمنزله، جاءه الخبر بأنه تحت الاعتقال التحفظي من ذلك الضابطِ، كان الشاب متأثِّراً غاية التأثُّر، حتى أن الزعيم الأزهري واساه قائلاً:

ـ لا عليك يا بني، هذا ما يقتضيه عملك، وأنت تُنفِّذ ما أُمرتَ به، وقد اعتدنا مثل هذه الأمور.

تركه وعاد غُرفته، صلى الفجر وقرأ شيئاً من القرآن الكريم، وبعد طلوع الشمس بقليل، تمّت إحاطته بكلّ شيء، تأثّر بما قام به هؤلاء الضباط، ماذا يريدون؟ أيستبدلون الحرية والديمقراطية بالبنادق والدبابات؟ هل هذه هي معاني الاستقلال لدى الشعب السوداني؟ وهل هذه هي الأحلام والتطلعات التي يحلم بها؟ أن تطلع عليه الشمس وفوهة البنادق موجّهة فوق رؤوسهم؟ هل هذه هي السياسة والكياسة والحصافة المشهودة للسودانيين في كل العالم شعباً وجيشاً؟

استدعى الضابط سائلاً له:

ـ هل اعتقلوا الطاقم الوزاري؟.

ردّ الشاب بعفويةٍ واحترام:

ـ تقريباً، عدا الشريف حسين.

أراح ظهره على كرسيه المصنوع من الخيزران، وأطرأ يفكر في هذا الحسين، يا له من شابٍّ كسته الأيام والسنوات تعباً بعد تعب، ورهقاً إثر رهق، ها هو ذا مُطارد، وما الفرق، فقد كان مُطارداً أيضاً وهو وزير، لم يكن ينعم بسلطة الوزير، ولا براحته وأكله وملبسه، كان أكثر الناس إجهاداً وأقلهم تغذية ولا ينام، بل إنّه لا يتّكئ، ليله مُتّصلٌ بنهارِه، كان مُطارداً في منزله ومكتبه وحتى في الطريق، تذكّر يوم أن سقط أمامه مغشيًّا عليه، جاء طبيب القصر مهرولاً وخلفه جيش من المساعدين، قاموا بفحصه، وأعادوا فحصه مرةً أخرى ليتأكّد من النتيجة المتناقضة أمامه والتي لا يقبلها العقل، ابتسم ملتفتاً إليه قائلاً:

ـ إنه سوء تغذية يا زعيم، وزيرك ماليتك جائع، وإذا استمر هكذا

سيموت، عليه بالراحة والغذاء لأسبوعين كاملين.

ترجاه بعدها أن يبقى في القصر لعدةِ أيام حتى يجري الدم في عروقه، استجاب لهذا الاعتقال الحنون ومكث يومين وخرج مواصلاً ما كان عليه بعد أن أحسّ بشيء من العافية، قطع الضابط حبل أفكاره قائلاً له والقلق بادياً عليه:

ـ عفواً يا زعيم، جاءنا أمر الآن بنقلك إلى سجن كوبر.

لم يتوقع الأزهري غير ذلك، قام من جلسته وتوجّه نحو غرفته ليعدّ ملابسه وأدويته، وجد زوجته مريم تقوم بذلك والدموع قد ملأت خديها وأطفالها حولها، قال لها مبتسماً وهو يحاول التخفيف عنها:

ـ تبكين وكأنها أوّل مرة، ألم يعتقلوني عندما جاء عبود؟.

مسحت دموعها ولم تكفَّ عيناها من إرسال المزيد منها، قالت وقلبها يعتصر ألماً ويداها ترتجفان ريبةً وخوفاً:

ـ ولكني غير مرتاحة هذه المرّة، فهؤلاء من قمتَم بحلِّ حزبهم وطردهم من البرلمان، وأشمّ رائحة انتقام في بياناتهم.

ردّ عليها بقوله:

ـ قلتِها بفمكِ يا مريم، قُمتُم، هذا يعني أنه قرار قام به السواد الأعظم من أعضاء البرلمان المكوّن من ممثلي الشعب بأكمله، دعي كل هذا وتأكّدي أن لله لطفه وتدبيره.

حمل ابنه محمد وطبع على خديهِ قُبلات عِدّة، عانق صغيراته وخرج وسط بكاءٍ مكتوم وحزن كبير، ينتظره رتلٌ من السيارات المدجّجة والممتلئة بالجنود المسلحين، الشوارع شبه فارغة هذا الصباح، عدا أرتال من الآليات العسكرية تجوب الشوارع هنا وهناك، لم يستغرق موكب اعتقال الزعيم زمناً طويلاً في الطُّرق الخالية حتى ابتلعت بوابة سجن كوبر كل سياراته.

***

بُرّي اللاماب.. خريف 1932م

ـ ما اسمك؟.

ـ الهادي.

وضع يده على كتفه مُرحِّباً وأردف يقول:

ـ مع من أتيت؟.

ـ مع أبي.

ـ ابن السيد عبدالرحمن؟.

ـ نعم، وما اسمك أنت؟

ـ اسمي حسين؟.

ـ طالب في الخلوة؟.

ـ نعم.

ـ إذاً نحن أَصدقاء، اليس كذلك؟.

ـ نعم، أصدقاء، هيا نُسِّلم على أبيك.

صعدا الدرج، وجريا مُتسابقين نحو (البِرية)، وجداها مليئة بالناس، لم يستطيعا الدخول إلا من بين سيقان الواقفين، عادةً ما يأتي السيد عبدالرحمن المهدي إلى الشريف يوسف زائراً ومعه رهط من الأنصار، ويستقبله الأخير بحفاوةٍ وخلفه كل مَن في السرايا من أحبابه ومريديه، فيكون ذلك اليوم مشهوداً ومحفوراً في الذاكرة.

هكذا يكون الحال عندما يزور الشريف السيد عبدالرحمن في أم درمان، أفلتا من غابة السيقان أمام والداهما مباشرة.

خرج الجميع تاركين الضيف مع مُضيفه بعد أن فرغوا من التبرُّكِ وإلقاءِ التحايا تبسّم السيد عبدالرحمن قائلاً:

ـ أين ذهبت يا الهادي؟.

ابتسم طفل السادسة وهو ممسك بصديقه الجديد ويشير بيده

الأخرى خارجاً وهو يقول:

ـ ذهبت لأرى البئر، وقابلت جوارها صديقي حسين.

ضحك الإمام حتى بانت أسنانه وقال:

ـ نِعم الصديق اخترت، هذا ابن عمك الشريف يوسف.

تساءل الهادي ببراءة وقد ضاقت عيناه الصغيرتان:

ـ هل نستطيع أن نأخذه معنا يا أبي؟.

ازداد ضحك الإمام وهو يقول:

ـ لا بأس، ولكن ليس اليوم، فهو يدرس في الخلوة وقد تفوته أجزاء من القرآن الكريم. أليس كذلك؟.

جلسا بالقرب منهما بينما انهمك الشريف والإمام في حديث مطوّل لم يستوعب منه الصبيّان غير كلمات يسمعانها دائماً: الإنجليز، أهل الله، الحاكم العام، المصريين، القطار، إلخ،.

لم يحتملا ذلك فأسرعا خارجاً نحو المزرعة.

جنيا شيئاً من الفاكهة، حفرا في الطين، وتسلقا النخيل، وأقلقا الجياد داخل اسطبلاتها، ووقفا على حافة بئر الماء العريضة التي تسقي المحاصيل، ونزلا حتى حافة النهر، تصايحا وأطلقا صوتيهما للرياح وفاضا مرحاً وفرحاً في هذه الفُسحة القصيرة.

ظلا هكذا حتى أتى الرسول يطلب من الهادي مرافقته، فقد حان موعد عودة الإمام، ألفيا الناس عند البوابة الداخلية، ابتسم السيد عبدالرحمن وقال لابنه:

ـ بما أنكما قد صرتما صديقين، سأحضرك معي في كل مرّةٍ أزور فيها الشريف، وعلى الحسين أن يأتينا أيضاً.

أومأ الحسين برأسه إيجاباً وركض صوب التكيّة، فله فيها فصل من العمل يقوم به عادةً بمساعدة الموجودين من الجيران، يحمل الحطب من طرف الباحة ويأتي به ثم يحشره تحت الصاج الضخم وفوق لهيب من النيران، يأخذ عوداً ويصرّ على تحريك الدقيق المُذاب بالماء، ولكن ضخامة الماعون وصغر حجمه يمنعانه.

يقوم العاملون بالتكية بوضعِ حجر ليقف عليه فيُحرك ما يليه من

الصاج فيقومون بإنهاء المهمة سريعاً، يقفز من الحجر ويجري صوب غُرفة الشاي ويعمل على مناولة إبراهيم ود الفكي صالح السُكّر والبن، ويأتي له بحطبٍ أقل حجماً وطولاً من الذي يأتي به لصناعة العصيدة، يقول له:

- تُدندن دائماً بهذه القصيدة يا خليفة، ولكنِّي لم أتبين ماذا تقول فيها، لا أظنها من مدائح أبي الشريف.

يضحك إبراهيم ويقول:

- أحاول أن أمدحه، ولكنِّي أستحيي.

رد عليه متسائلاً:

- لماذا؟

أجابه سريعاً:

- لعلمي بأني لن أوفيه حقه وقدره.

تساءل الحسين في شغفٍ شديد:

- وماذا تقول فيها؟.

أطلق العنان لصوته وكأنه ينتظر من يُحرِّك ساكِنه:

- بحراً ما ليهو ساحل

طاوي الجوف جسمو ناحل

فاهي قول سيدي

فات القوم بي مراحل

بسم الله وبواصل

قولاً فيك كلو حاصل

حِبراً منسول وناسِل

وارث آباهو البواسل

سيدي لسان فعلو قايل

يوسف سمح الشمائل

صحو النوم يا قبايل

هندي القوم قدرو هايل. إلخ.

ردّ الحسين بعد أن أفرغ إبراهيم من إلقائها:

ـ أراها قوية وبهية الكلمات.
ـ حقًّا؟
ـ نعم، ولو أنني لا زلت صغيراً ولم أعرف بعضاً من كلماتها.

بان على إبراهيم الارتياح وقال بعد أن قرر الإفصاح عنها وإطلاقها بصوته في ليلة السبت القادمة:

ـ أنتم الأشراف وآل بيت النبي، لا نفرّق بين كبيركم وصغيركم، تتلبّسكم البركات لحظة ولادتكم وتعمّ من حولكم ومن يُحبّكم، ولا تنتهي حتى بعد مقارفتكم الحياة.

للمسيد سحرٌ أخاذ للمُتمعّن، ومدرسة متكاملة للمتلقّي، وهدوء نفسي عميق، صلاةٌ وأوراد، مديحٌ وقيام. يتساءل الحسين رغم صغره عن هذه الدار الكبيرة المليئة بالناس والذِّكر والطعام، يدرك أنّ والده يقوم على الأمر، ولكن من أين يأتي هؤلاء الناس؟ يأتوا راجلين وعلى ظهور الإبل وبأطواف النيل والقطارات أيضاً، يأتون من أم بادر والبطانة ومن بين الأنهر الخمسة، يقضون أياماً وأسابيعاً ثمّ يعودون، وبما أن له حافظة مُتَّسعة، فهو يقوم بحفظ كل ما يصل إلى أذنيه، حكاياتهم وأنسابهم وأنعامهم وزراعتهم وحتى صراعاتهم وأسبابها.

يأتون العام القادم فيسألهم عن الغائبين الذين لم يحضروا هذه المرة وعن أحوالهم، وعن أنعامهم ورحلاتها بحثاً عن الماء والكلأ.

على الرغم من كثرتهم واتساع مناطقهم يذكرون له بأن أباه كان دائم الزيارات لهم وإرشادهم باحثاً عن أسباب استقرارهم وإصلاح دينهم، فيتعجّب الحسين عندما يدرك أن مسيرة أقرب المناطق تُكلِّف أياماً بقياسِ سيرِ الإبل وقتها، ولماذا لا يزورهم أبوه في الوقت الحالي، قيل له إن آخر مرة خرج فيها الشريف من بُرّي كانت لحجّته الثانية قبل ثمانية أعوام، وهو ذات العام الذي وُلد فيه، ويأتي المساء برائحته العبِقة، ويلتفّ الصائحون جلوساً على البروش وهم في حالةٍ استثنائيةٍ من فرط الهيام بغرض الوصول إلى أعمقِ درجاتِ العشق المحمدي الأبدي، وصاح أحدهم وثلاثة مادحين آخرين وراءه في نغمٍ متفرّقٍ ولكنه يخترق القلب جمالاً ولحناً:

وجه النبي المُختار كان مُنظّما يلمع على الحيطان لا يتكتّما
قول عائشة أجمع حُليّي وأنظما في نوره أقضي الحوائج وأخدما
كل من رآهُ بديهةً يشهد بما أعطاه رب الكائنات وأكرما
ترتاده الأحباب شهداً أطعما وتذوقه الأعداء سُمًّا علقما
كم أغنى فقراً في الزمان المُعدما أسخى من البحر الرسول وأكرما
ما بات يوماً عنده فد درهِما فاق الأنام بذاك أنّي أقسما
***

ود مدني.. عصر 25 مايو 1969م

غطّ الشريف حسين في نومٍ عميقٍ داخل صالون صديقه أحمد دهب، والأخير وأهل منزله يعدُّون وجبة الغداء بحيث تكون من الدسامة ما تعوِّض الشريف يومين قضاهما دون طعام كعادته وهو يطوف في حقول مشروع الجزيرة، ينظر إليه أحمد دهب وعلى وجهه سكون وفي أوصالهِ مرونةٍ توحي بارتياح شديدٍ حتى وقعت من فوق جبينهِ حباتِ عرقٍ تجمّعت ساعة نومه، لم يتعجّب أحمد من هدوء الشريف، فهو يعرف مصادماته وشجاعته الفائقة في مثل هذه الظروف الحرِجة، مثله لا يفترض أن ينام له جفن، فهو مطارد من كل القوات النظامية والمُسلّحة التي أصبحت بين ليلةٍ وضحاها تحت إمرةِ وولاءِ القائد الجديد، أفاق الشريف بعد ساعة تقريباً، تناول شيئاً من طعام وأسرع في إشعال سيجارته، أخذ منها نفساً عميقاً وقال متسائلاً:

ـ هل من جديد يا أحمد؟

رد بتهكمٍ واضح:

ـ لا شيء جديد، شعارات تلعن وتُندِّد بالأحزاب والطائفية، وجائزة كبرى لمن يعثر عليك، هكذا يقول الراديو.

ابتسم الشريف بهدوء وهو يأخذ نفساً عميقاً من سيجارته التي انتصفت فيها نارها وقال واضعاً يده في منتصف شعر رأسه:

ـ إذاً، علينا أن لا نكون في مكانٍ واحدٍ لأكثر من ساعتين، هل اتصلت بمحمد عبدالله موسى؟.

أجابه سريعاً:

ـ نعم، يبلغك التحايا، تشاور معي في الذهاب لمنزل إدريس عبدالفضيل، ولكنّا تذكرنا أن عدداً من ضباط الجيش يعرفونه ويسكنون حوله، لذا سنذهب إلى منزل عبدالله سُكتاب في جزيرة الفيل، سنتحرّك بعد مغيب الشمس، وهناك سنجتمع لندرس الخطوة التالية.

تدور في خلد الشريف تساؤلات عدّة، ماذا دها الجيش ليضيف إلى أعبائه أمر الحكم في عالمٍ شائكٍ مليء بالتناقضات وبالسياسات الرعناء نحو إفريقيا؟.

لماذا يريد أن يجرِّب حظه وعضلاته؟. وتارةً يقول في نفسه إنّ هذا أمراً مُتوقعاً ومُعتاداً، فقد أصبح هذا هو عمل الجيوش في دول العالم الثالث، تشغل به فراغها المستمر، فهي لا يمكن أن تحبس نشاطها داخل الثكنات حتى تقوم الحرب، ومتى ستقوم لا يمكن لمن دُرِّب على القتال وامتلك السلاح أن يحترم مدنيين لا يستطيعون حتى استعمال السكين، ويظل يحرسهم وهم الحكام والوزراء بفضل سلاحه، منطقٌ معوَج، وقد فطن الأمريكان لهذا الأمر منذ مدة، فكانت سياستهم أن الجيوش في البلدان المُتخلِّفة تتميز بقوة التنظيم وخاصية الانضباط أكثر من المؤسسات والأحزاب السياسية الهشّة، إذاً فهي أولى بالحكم، وأقدر على تنفيذ السياسات ومخططات الغرب، وإرغام الناس على هذه السياسات بحدِّ السلاح.

البلدان المتخلفة لا تستحق الديمقراطية، وعلى الجيوش أن تخلف الاستعمار الذي سارع بالرحيل، فالديمقراطية لأوروبا، ليست لإفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية أو السودان، فكانت الجيوش الإفريقية وراء حمى الانقلابات في بلدانهم، وكان أهل الغرب هم كُتَّاب البيانات، لهم الرفاهية والديمقراطية، ولنا الفقر والقهر، انقطع خيط أفكاره عندما اشتمّ رائحة الشجر والنهر، دخلت سيارتهم عند أذان العشاء أزقّة جزيرة الفيل الضيّقة، ذلك الحي الذي يقع جنوب شرق ود مدني ملاصقاً الأشجار الضخمة التي تلتصق بالنيل، يرافقه أحمد دهب ومحمد عبدالله موسى، كان عبدالله سكتاب في انتظارهم ومعه ابنه خضر.

كان العناق وكانت الدموع التي بللت خدودهما وهما يريان الشريف أمامهما سالماً وبصحةٍ جيدة، جلسوا يتفاكرون في كيفية مرور الشريف من هذه المنطقة التي بالتأكيد سيبدأ النظام الجديد بالتركيز عليها بحثاً عنه في الساعات القادمة، أصبحوا وكأن المنزل خالياً ليس فيه أحد، فقد قاموا بإلغاء كل المظاهر التي تدل على ذلك، حتى الأغراض التي يجلبونها

من الدكان كانت بالقدر اليومي المُعتاد، حتى لا يشك أحد بوجود شخص إضافي مع سُكتاب وأهله، وفي المساء قال محمد عبدالله موسى بعد أن انتظمت جلستهم داخل أحدى غُرف المنزل:

ـ من الأفضل أن نجتاز شوارع المدينة قبل شروق الشمس نحو طرف المدينة الجنوبي، وفي رأيي أن أم سنط أنسب مكان، هذا بالطبع بعد أن يُحدد لنا سيدي الشريف وجهته ويخبرنا برأيه.

ساد صمت للحظات قبل أن يقول لهم:

ـ سأذهب إلى الإمام الهادي في الجزيرة أبا، ثقتي فيه تقول إن جزيرته ستكون المنارة الوطنية المُثلى التي سننطلق منها لاستعادة الحرية والديمقراطية من ذلك الانقلاب الشيوعي، ولكن قبل ذلك، لديّ بعض الأمور يجب أن أقوم بها.

توجس أصدقاء الشريف وازداد قلقهم بعد سماعهم نهاية حديثه، فمعرفتهم به تفوق معرفتهم بأيِّ شخصٍ آخر، لا يكترث كثيراً للخطر الداهم الذي يحوم حوله، ولا تعنيه أعداد الجيوش التي في أثره شيئاً، بمقدوره فعل أي شيء يراه مُهمًّا حتى لو اضطره ذلك للعودة إلى الخرطوم، وهذا ما يخشونه، وعندما جاء المساء، سلكت السيارة التي تقلّه طُرقاً مُلتوية، تارةً تقترب من النيل وتارةً تبتعد، وصلوا بعد ساعة ونصف من تحركهم إلى قرية أم سنط التي ترقد أيضاً على الضفّة الغربية من النيل الأزرق، استقبلهم عباس كنين داخل مزرعة المواشي الخاصة به، وأوّل ما قام به بعد استقباله لهم تسليم الشريف مسدّساً محشوًّا بالرصاص، كان قرارهم جميعاً بأن يظلَّ الشريف في المزرعة، فأم سنط كثيرة الزائرين، ومنها تتفرّع الكثير من الطرق التي تؤدي إلى قرى مشروع الجزيرة، ولقربها من ود مدني فإنّهم يسمعون بين الفينة والأخرى اقتراب سيارة تحمل جنوداً تقوم بتمشيط حدود المدينة.

لم يكن رعاة المزرعة يعرفون الضيف الذي يقيم معهم، فقد جاءهم بملابسٍ تشبه ما يرتدون، لا تتعدى العراقي والسروال وطاقية شبه متّسخة، قال لهم عباس كنين قبل مغادرته بأنّ الضّيف (فَكِي)، سيقوم بقراءةِ القرآن داخل المزرعة لحفظها من أعيُن الحاسدين، قضى ليلتين

على هذا الحال، جلسوا في صباح اليوم الثاني حول نارٍ من حطبٍ فوقها آنيةٍ سوداء يفور منها شاي (السَّبَارِس)، قال الشريف موجهاً حديثه لمحمد عبدالله موسى:

ـ أريد من يأتي لي بإسماعيل حسن من مشروع (كَسَّاب)، هل لديك شخص يقوم بهذه المهمة، على شرط أن يذهب فوراً؟.

أجاب محمد عبدالله موسى سريعاً:

ـ نعم، دفع الله حسين، من الشباب الاتحاديين النشطين، سأذهب إليه فوراً.

وقبل أن يقوم من جلسته نبهه عباس كنين قائلاً:

ـ تحوُّطاً، أُفضِّل أن تُرسلهُ باسمك وتحثّه بضرورة حضوره، وسيدرك أن الشريف معنا.

أجابه محمد عبدالله موسى سريعاً:

ـ نعم، هذا أفضل.

خرج محمد عبدالله موسى من المزرعة قاصداً وسط المدينة، دقائق ودخل عليهم شابان، فتح الرحمن البدوي وسراج بن عباس كنين، ويبدو على وجههما القلق الشديد، وقبل أن يتفوها بشيء تفرَّسا بأعينهما جوانب المزرعة جيداً حتى لا يكون الرعاة بقربهم فيسمعوا ما يقولون، هنا أحسّ عباس كنين بشيء ما، صاح فيهما قلِقاً وهو يحاول خفض صوته:

ماذا هناك يا أولاد؟.

أجاب فتح الرحمن البدوي قائلاً:

ـ أخبرنا بعض الأصدقاء بأنّ سيارات من الجيش ستأتي بعد قليل لتمشيط القرية.

ارتبك الجميع، وأَصابهم الذعر، ولكنهم تماسكوا، فرعاة المزرعة ليسوا ببعيدين، عليهم فعل أمرين، أن يُخفُوا الشريف عن الأنظار بحيث لا يعثر عليه أفراد الجيش، وبحيث لا يعرف أي أحدٍ في القرية أنّ هذا هو الشريف حسين؟.

***

بُرِّي اللاماب.. أبُرِّيل 1934م

للمسيد ومبانيه عبق ومنظر يسلب العين والروح معاً، كتلك المباني العتيقة التي لا تستطيع إحصاء زمانها وأوان إنشائها، فالسراية البحرية وساحاتها تحتضنها الأشجار التي تُحاذي النيل، ويقف بناؤها على مترين من القواعد الحجرية الصلبة.

بُنيَت بهندسةٍ معماريةٍ فريدة في طريقةِ توزيع غُرفها وممراتها وأعمدتها الفارهة التي تنثني في أعلاها لتُعانِق بعضها البعض، فتكسو المبنى من شماله وجنوبه، تلي الأعمدة الجنوبية صالة رحبة تطل عليها العديد من الغُرف الواسعة، ويبلغ ارتفاع المبنى ستة أمتار مع سقف مشغول بالخشب في صورةٍ رائعة الجمال وبديعة الصنع، أما الأبواب والنوافذ فلا تقلّ روعة عن تفاصيل البناء، ولها طابق أعلى بنفس هندسة الطابق الأرضي ولكنّ غرفه أقل وساحته أكبر، وهناك شجرتان متفرعتان من الدوم، واحدة شرق السراية والأخرى غربها، يجتمع الصبية كل يومٍ لقضاءِ بعض أوقات المرح تحت شجرة الدومة الغربية، يحبونها كثيراً ويلعبون حولها ولا ينشدون ظلًّا لها، فهو بعيد وسيقانها وأفرعها طويلة، وتبعد قليلاً من مكان الخلوة حيث يدرسون، وأقرب إلى البوابة الغربية للمسيد حيث باستطاعتهم رؤية الداخلين والخارجين فضولاً، كثيراً ما يكون الحسين بينهم، تارة يلعبون بالحصى ونواة البلح بعد أن يحفروا الأرض بأشكال هندسية عِدَّة، ثم يتصارعون مرحاً لتنصيب الأجدر والأقوى.

بين الصبية اليوم فتًى جسيم وعريض، اسمه مصطفى، أبيض اللون، يكاد شعر رأسه يغطِّي أُذنيه، تقفز العافية من وجههِ قفزاً، لا يعرفه إلا الحسين، فقد تصادقا عندما جاء مع أبيه العام الماضي، لم يترك اليوم صبيًّا إلا وصرعه فوق التراب حتى جاء دور الحسين، تصارعا، وقد بدا مصطفى مُسيطراً بفارق الحجم والعمر معاً، فهو يكبره بأربع سنوات، لم يلبثا دقائق حتى سقط مصطفى بكامل جسده على الأرض، اشتطّ غيظاً

وقال:

- كيف فعلت ذلك؟.

ضحك حسين وهو يقول:

- أسقطّتني العام الماضي بقوتك يا صديقي، واليوم صرعتك بهذا.

وأشار بسبابته إلى عقله، نظر إليه مصطفى وقد احتار في أمره، جسده رقيق، ولا يساويه طولاً ويصغره أيضاً بسنوات، لا فائدة في إعادة الكرّة مرة أخرى، قد يهزمه ويكون صاحب الغلبة عليه، الآن هما متساويان وهذا يكفي، ضحكا وركضا نجو التكيّة.

مصطفى هو ابن العمدة محمد أحمد طه، عمدة قبيلة رفاعة في شرق سنار، ويسكنون بالقرب من مصب نهر الدِّنْدِر مع النيل الأزرق، يسكنون في قريةٍ تسمى طيبة العامرية، وتقع بالضبط بين النهرين، حيث تسكن قرى هذه المنطقة على ضفافهما، وطيبة هي القرية الوحيدة التي اختار أهلها الابتعاد قليلاً من الضِفاف، فقال فيها عرب قبائل تلك المنطقة بأنها ملولحة بين النهرين، فسار عليها اسم (ملولحة) وطغا على اسمها الحقيقي.

كان العمدة محمد مربوع القامة أقرب إلى القِصر، هادئ الطبع وواسع الحكمة، يحل قضايا أهله بالقدر اليسير من المجهود مقارنةً بتعنُّت الخصماء، مما قربه كثيراً من حاكم سنار الإنجليزي، وكانت خلوته معبراً للمسافرين والضيوف وأصحاب الحاجات، امتدت علاقته بأسرة الهندي من أبيه أحمد ود طه الذي كان مُريداً للشريف محمد الأمين الهندي والد الشريف يوسف الهندي، والذي كان مُستقرًّا في قرية الشريف يعقوب على نهر الرَّهَد وفي نوَّارة أيضاً مكان خلوة القرآن الشهيرة، وامتدت تلك العلاقة والمحبّة إلى ابنه الشريف يوسف الهندي بعد رحيل أبيه بمنطقة الرهد أبو دَكَنَة بكُرْدُفان، قضى أحمد ود طه وأسرته سنوات طويلة مُتنقِّلين مع أبقارهم على طول نهر الدندر صيفاً وخريفاً، واشتدت عليهم سنة القحت الشهيرة بمجاعة (سَنَة سِتَّة)، والتي مات فيها الآلاف جوعاً، والأبقار هي من أنجتهم منها، حيث كانوا يشربون لبنها فقط ولا شيء غيره لمدةِ أربعة شهور متواصلة بعد أن رفضوا أكل لحومها خوفاً من القضاء عليها، فهي مصدر عيشهم الوحيد، إضافةً إلى هروبهم المستمر من

الجهادية الذي يسلبون المال والأنعام والحرث معاً وحتى النساء والأطفال لم يسلموا من ذلك، حتى أنهم لاذوا قبل سقوط دولة المهدية بسنوات إلى أحد أمرائها بقرية غِرِسْلي ليحميهم من ويلات الجهادية، وعقِب سقوط حكم خليفة المهدي، استشار أحمد ود طه وابنه العمدة محمد الشريف يوسف في مكان يستقرون فيه، فأشار إليهما باختيار أنسب أرض ترتاح فيها بهائمهم بحيث لا تكون فيها الحشرات والبعوض، فكانت قرية ملولحة، ثم أرسل إليهم بعد ذلك الفقيه (عبدالله ود ردَّاد) ليُحيي فيها نار القرآن وليعلم أبناءهم أصول الدين.

تزوّج العمدة محمد أحمد طه من ابنة عمه وأنجب منها أحمد وثلاث بنات، كان حلمه أن يحفظ ابنه القرآن وقد كان ذلك بعد أن أتمّ ستة عشر عاماً، وتوفي ابنه في ذات العام، حزِن العمدة محمد على فقد بِكرِهِ حُزناً شديداً، فاكتفى ببناته الثلاث ولم يزيد عليهنّ، ولم ينجب ولم يتزوّج بأخرى حتى قارب على السبعين من عمره، وكانت للعمدة محمد صداقة عميقة مع الشيخ محمد على كعورة، وفي أحد زياراته له زوّجه ابنته آمنة، وسكنت معه في ملولحة، فحملت جنيناً في سنتها، ففرِح وبناته الثلاثة فرحاً عظيماً.

سيأتي الولد وسيحفظ القرآن مثل أخيه الذي اختاره الله إلى جواره وهو في ريعان شبابه، ولكن أنجبت له بنتاً، فتجدّد الحزن القديم والشديد لبناته وكأن في بيتهن مأتماً، وكان صبره على ما أراده الله له كبيراً، وحملت زوجته جنيناً آخر في العام التالي، فكان ابنه مصطفى الذي ضُرب لمقدمه النحاس وفرِح به الناس وذبحوا ما ذبحوا إكراماً للمُهنِّئين الذين تقاطروا من القرى فرحاً بابن العمدة، حتى حاكم سنار الإنجليزي أتى ليهنئه بمقدم وليده مصطفى، وتحققت أمنيته بحفظه للقرآن ومرافقته له في حِلِّه وترحاله وفي أهمّ زياراته السنوية الراتبة إلى دار شيخه الشريف يوسف الهندي في بُرِّي، وكان شديد السعادة بالتقارب والصداقة التي تنشأ بين ابنه والشريف الصغير حسين الهندي.

***

ـ لنَجرِ يا مصطفى.
ـ إلى أين؟.
ـ إلى مكان تجمُّع الخيول، حيث يبدأ السباق.
ـ لم لا ننتظرها هنا في الميس.
ـ أريد أن أراها وهي تصطف.

ركضا نحوها وهي تبعد كثيراً من السرايا في جهتها الغربية، بالضبط هي المسافة التي تفصل بُرِّي اللاماب من بُرِّي الدَّرَايْسَة، وصلاها وقد بدأ فرسانها في مساواة حوافرها الأمامية مع بعضها البعض في خطٍ مستقيم، سعادة غامرة طغت على الحسين ومصطفى وهما يوصفان لبعضهما جمال ألوانها وروعة سروجها وقوة صدورها، والخيل تحمحم بأصواتٍ مكتومة استعداداً للسباق وهي تضع حوافرها على الأرض وكأنها لا تريد أن تطأها وقد برزت عضلاتها تحت كسائها الذي يلمع مع أشعة شمس ذلك العصر، وعندما قاربت ساعة الصفر صاح الحسين وسط تلك الجلبة على مصطفى قائلاً:

ـ الآن، هيا بنا ننتظرها عند الميس.

ركضا عائدين نحو مكان التجمُّع الذي في مقدِّمته الشريف يوسف بنفسه، فاليوم يوم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وعادةً ما تُقام فيه عصراً سباقات للخيول وللإبل، بعد تقاطُر مريدي الشريف وأحباب الطريق من شتى بقاع السودان.

يُعتبر هذا اليوم مُختلفاً للشريف حسين، فهو يُدقِّق في أشياءٍ قد لا ينتبه إليها الآخرون، أزياءهم ولهجاتهم، كيفية إدراج العمامات على رؤوسهم، ما يلبسونه من سكاكين في أعضادهم، راحلاتهم من إبل وغيرها، وهو دائم السؤال عن كل شيء، يحفظ الأحداث ولا ينساها، الأسماء والقرى والقبائل والطرق وكل ما يسمعه.

يجتمع عنده حب كبير يوليه له أشقاؤه الأحد عشر وشقيقاته الثمانية وكل من حوله، وهو كريم ومعطاء على الرغم من صغره، ويشارك الجميع في كل شيء حتى في ما يلبسه. في يومٍ سأل أخاه الشريف عبدالرحمن الهندي قائلاً:

ـ أخي الشريف، هل قابلتم أهلاً لنا في مكة؟. فقد سمعتكم تتحدثون.

والشريف عبدالرحمن هو ثالث أبناء الشريف يوسف، يجتمع عنده الظُّرف واللطف، خُلقه رضِي، وقلبه سليم، وجوده عميم، وضاء الوجه ودائم الابتسام، متسامح وودود، يُكفيك سؤالاً عن أحوالك ومن حولك فتحسُّ بأنه يرعاك وحدك، وتشعر حينها بأنك صديقه الوحيد ولا صديق له غيرك، وهو قائمٌ بإمرةِ أبيهِ على الكثير من الأمور الأسرية وشؤون الطريقة، ضحِك وهو يمسح على رأس أخيه الصغير، فهو معتاد على أسئلته التي كثيراً ما لا تتناسب مع عمره، أجابه قائلاً بعد أن جلس معه أرضاً داخل البِرْبَة:

ـ كان ذلك في حَجَّة أبينا الشريف الثانية، وهي السنة التي وُلدت فيها يا حسين، عام الف وتسعمائة أربعة وعشرين، وكما تعلم أن جدك الأول محمد الهذيل الهندي قد أتي إلى السودان من مكة قبل خمسمائة عام لتعليم أبناء المسلمين القرآن والفقه، فتزوج وأنجب الأبناء ثم امتدت سلالته من الأشراف حتى جدك الشريف محمد الأمين، كان سفرنا بالإبل مع رهط من إخوتنا، وكان الشريف يركب فوق ناقة صهباء وليفة أسميناها بالحاجة، وهي الآن في منطقة البطانة مع إبلنا، وصلنا سواكن بعد شهرين من المسير، وركبنا الوابور فوق البحر المالح حتى وصلنا الحجاز.

صمت الشريف عبدالرحمن قليلاً وهو ينظر إلى أخيه الذي بدا وكأنه يلتهم ما يسمعه التهاماً، واصل حديثه قائلاً:

اجتمعت في تلك السنة أحداث عدة يا حسين، أولها مناسك الحج التي كان فيها الكثير من الأسرار والأخبار التي حدثت لأبينا الشريف، والتي بلا شك ستدركها لاحقاً، واندلاع ثورة اللواء الأبيض ضد الإنجليز التي قادها هنا في الخرطوم ضباط من السودانيين الشرفاء، وحدث أمر هام هناك، وجدنا الملك عبدالعزيز ال سعود بجيشه وهو يحيط بمكة حتى ليتنازل ابن عمنا الشريف حسين أمير مكة من الحكم، وقاد والدنا وأنا برفقته أياماً في المفاوضات حتى نقنع الملك حسين بالذهاب إلى الشام مع أبنائه وأهله، حتى لا تحدث معركة وتسيل الدماء، ولم يعد والدنا

إلا عندما اطمأن على أهله الأشراف وهم يبحرون بالسفينة من جدّة متّجهين إلى سواحل الشام.

تنهّد قليلاً وكأنه يستذكر تلك الأحداث التي مرّ عليها أكثر من ثماني سنوات. مسح على رأس الحسين وابتسم وهو يقول له:

ـ لهذه الرحلة تفاصيل كثيرة ومهمة، ستعرفها عندما تكبُر يا حسين، الآن عليك الذهاب إلى الخلوة، فالخليفة مختار ود الترابي لن يرحمكم إذا تأخرتم عن دروس الفقه.

***

قرية أم سنط نهار27 مايو.1969م

الموقف خطير، وقرية أم سنط محشورةٌ في النهر، والمزرعة تُلاصقه، والشريف بداخلها، أهل القرية يتابعون الأحداث عبر الراديو ولا يدرون أن بطلها مقيمٌ معهم، واقترب الجنود بسياراتهم في بربرية أفصحت عنها سرعة القيادة وتهورها.

لاحت لعباس كنين فكرة لا مجال للتدقيق الآن في نسبة نجاحها أو فشلها، فلا الظرف ولا الزمن يسمحان بذلك.

خرجوا من المزرعة واتجهوا صوب ماء النهر، والشريف بينهم وهو في هيئةٍ أشبه بتجار المحاصيل، عراقي وسروال وفوقهما جلباب ليس عليه آثار مكواة، ينتعل مركوباً من جلد الماعز الأحمر مع عمامةٍ عشوائية فوق رأسه، نزل عباس إلى أحد المراكب التي تطفو على الشاطئ وصاحبها بداخلها يشرب شاياً، سأله قائلاً:

ـ أتعرفني؟

رد صاحب المركب بابتسامة عريضة:

ـ نعم أعرفك، أنت الزعيم عباس كنين.

بدا عليه الارتياح قليلاً واطمأن بأنها اللحظة المناسبة لتنفيذ خطته المستعجلة، داهمه قائلاً بقصته التي حاكها اللحظة:

ـ إحدى بناتنا في القرية سُرق منها ذهب كثير، يقدّر بالآلاف، وأحضرنا فكي من نواحي سنجة حتى (يُحوِّطه)، وقال إن هذا لا يكون إلا بعبوره بين الضفتين بمركبٍ حتى مغيب الشمس، وأنت تعلم أن هؤلاء الناس لديهم طقوس غريبة.

ناوله صرّة من كيسٍ ملفوف، قام بحلها فتمدّدت أوراق النقود بين يديه، ابتسم وقفز قفزاً نحو موضع الحبل الذي يربط به المركب على الشاطئ، وبقفزة أخرى استقر فوق المركب.

أشار عباس كنين إلى الشريف لينزل فأتى، وصعد البقية إلى القرية

حتى لا يثير غيابهم الشكوك إذ إنهم الأقرب إلى الشريف، وفي اللحظة التي دخلوا فيها منازلهم كانت أرتال سيارات الأمن تجوب أزِقّة القرية طولاً وعرضاً، أخذت المركب تتهادى فوق ماء النيل الأزرق الذي يكون ودوداً في مثل هذا الشهر من كل عام، وصلا الضفّة الأخرى التي تقع تحت قرية الدناقلة بشرقِ الجزيرة وعاودا الكرّة مرةً أخرى ولكن هذه المرّة بعيداً عن مرمى أعيُن الناس، تسحّبت الشمس قليلاً نحو الغروب وسال تلألؤ الضوء على صفحة الماء مُخلّفاً بساطاً وهاجاً لا تستطيع العين إدامة النظر فيه، والأشجار تُلقي بظلالها لتختلط مع ذلك الضوء في طرف النهر، المشهد بديع وجميل، أراح عين الشريف وردّ إليه بعضاً من عافيته التي افتقد جزءاً كبيراً منها في الأيام الماضية.

شرد بعيداً ونسمات النهر تُحرّك أجزاء جلبابه وذيل عمامته، سأل نفسه بعد أن تاه في الأخبار القديمة والحكايات التي تشكّل منها، هل هذا تكرار لما حدث لجده الشريف محمد الأمين الهندي عندما عبر ذات النهر قبل ستة وثمانين عاماً وعلى بعد خمسة وثلاثين كيلومتراً جنوباً من مكانه هذا، كان مُلاحقاً مثله، وكان مُرغماً على اللحاق بمحمد أحمد المهدي بعد الخطاب الذي أرسله الأخير له بضرورة الانضمام إلى ركبه المُتوجه إلى مدينة الأبيض لفتحها، والمُرغم والملاحق سيان، اضطر الشريف محمد الأمين إلى إغلاق خلوته في نوّارة القابعة على نهر الرهد حفاظاً على طلاب العلم والناس فيها، وما أدراك بتقابة الخلوة في نوّارة؟ خمسون ناراً تتّقد ليلاً وحولها خمسون حلقةً من الطلاب لحفظ القرآن الكريم، وثلاث عشرة حلقة أخرى حولها الحافظون لكتاب الله من الخلاوي الأخرى لتلقّي علوم القرآن من تجويدٍ ورسمٍ وفقه، تتحوّل قرية نوّارة عند الليل وكأنها نقطة كونية على الأرض استقت أنوارها من كواكب السماء، تعلو السنة النار لتضيء القرية بأكملها وما حولها، تقوم النساء بغزلِ الصوف وتُضفّرن السعف ويقضين الحاجات في أضواء هذه النار.

كان الشريف محمد الأمين رجلاً نحيفاً أبيضاً دائم التلثُّم، لا يتحدث إلا لعلمٍ أو لقراءةِ قرآن، ينوم على الحصير دون وسادة، لا يملك دابة تقِلّه حيث يريد، ولا يحمل إلا سكيناً صغيرة أتى بها من مصر ليبري بها

قلمه، وله (تنكة) يصنع بها القهوة بنفسه ولا يقبل أن يقوم تلامذته بخدمته، لا يقبل هدية إلا مسواكاً، أو (روب) في قرعة، يلبس ثوباً وحيداً، يغسل نصفه عند النوم ويتغطى بنصفه الآخر، ويغسله قبل وقت قيامه الليل، وحوله مائة جارية لخدمة الخلوة، ولا يأتي بالواحدةِ منهنّ إلا إذا تأكد من انقطاع دمِ الحيضِ عندها.

أطفأ تلك النار التي خرّجت عشرة آلاف من حافظٍ ودارسٍ، وركب حمار تلميذه محمد كرمِنُّو ومعه القليل من أتباعه ليقطع ستمائة من الكيلومترات لملاقاة المهدي، فاعترض طريقه النهر، والوقت حينها ليلٌ حالك، لا مركب هنا ولا طُوف ليعبُر إلى الضفّة الغربية.

بالقرب من الشاطئ يسكن بيت من قبيلة الكواهلة الحميدانية، يعرفون الشريف ويقدرونه أيما تقدير، زعيمهم يسمى شرف ود المِحرِب، أتى له بجملٍ يسمونه زيدوهِن، ركب الشريف فوقه وحوله الناس حتى قطع عرض البحر، وقبل أن يتّجه غرباً، دعا لهم بالرزق والخير.

انقطع خيط ذكرى الجد في لحظةٍ رأى فيها الحسين ضوءاً ينطلق من مصباحٍ بعيد ثلاث مرات، هذه هي إشارة العودة إلى أم سنط بحسب الاتفاق، كان عباس كنين هو صاحب المصباح، وبعد ساعة كاملة من ذلك، كان جميعهم داخل أسوار المزرعة.

***

ما إن أبلغ الشاب دفع الله حسين وصيّة محمد عبدالله موسى إلى إسماعيل حسن بكسّاب حتى حضر الأخير فوراً، وصل ود مدني في المساء، وأمضى ليلته في فندق الخوّاض، وفي الصباح، مرّ عليه محمد عبدالله موسى ليقلّه إلى المزرعة، دخلا عليه فهرول إسماعيل حسن نحو الشريف والدموع في عينيه ليعانقه طويلاً وهو يقول:

ـ ألف حمداً الله على سلامتك يا الشريف، ألف حمداً الله على السلامة.

كان مجلسهم بالقرب من الضفاف، النهر يجري أمامهم، وجوارهم راكوبة تقِف فوقها شجرة مانجو ضخمة، هيكلها من حطب السنط وسياجها من قصب الذرة اليابس الذي تماسك على هيكلها بأعوادٍ طويلة ورقيقة من أغصان السِدر، بدأوا في تناول إفطارهم بعد أن طلب الحسين مُلاح ويكة أخضر بلحمٍ متفوف، أُدلِق فوق عصيدة ذُرة قوية القوام، مع ذرات من الملح وشطة حمراء دَرِيش. بادر إسماعيل حسن بسؤاله للشريف:

ـ لم يفتر الراديو من سبِّ الأحزاب والطائفية، ماذا يجري في الخرطوم سيدي الشريف؟

ردّ عليه وهو يقول:

ـ انقلاب مستورد، يحمي نظرية مستوردة، أصابع المجتمع الخارجي واضحة فيه وملموسة، ويخدم أيضاً أغراضاً مستوردة، ويفرض أيديولوجية لا علاقة للسودان بها، ويتسربل بشعارات واهية، هم يظنّون بأن النظام هو الذي ذهب يا إسماعيل، وذهب معه الحكم والديمقراطية، لا يدرون أنّ الذي ذهب حقيقةً هو والكينونة السودانية.

تدخّل محمد عبدالله موسى بالحديث قائلاً:

ـ منذ أن تمّ استئصالهم من البرلمان، لم أرتح إطلاقاً لصمتهم المُريب، كنت مُتيقِّناً بأنهم سيحلّون علينا بكارثةٍ في يومٍ ما.

ابتسم الشريف وهو يقول:

ـ بالتأكيد الذي أتى ليس هو الجيش، بل هو مسخ مفروض بقوةِ

السلاح، مهمته حماية الأفكار الخارجية والأيديولوجية الدخيلة على مجتمعنا، لقد أصبحنا مُستعمرين بعد أن كنا أحراراً، وصرنا بين يومٍ وليلة عبيداً بعد أن كنا أسياداً طُلقاء.

تساءل إسماعيل حسن:

ـ وما هي الخطوة التالية؟.

أجابه الشريف قبل أن يُكمل حروف جملته:

ـ سأكتب لك خطابين تذهب بهما الآن إلى الخرطوم، أحدهما تُسلِّمه للسيد محمد عثمان الميرغني، والآخر للرشيد الطاهر بكر، أريد أيضاً أن يذهب أحدكم إلى الشُّكَّابة ليُخبر الأمين جراد بأن ينتظرنا بعربته اللاندروفر في كُبْرِي العسكري، بالقرب من زريبة المواشي في العاشرة مساءً.

أشعل سيجارته وقال بعد أن نفث دخانها بعيداً:

ـ ومن هناك، سأذهب إلى الخرطوم هذا المساء.

انعقدت حواجب الجميع من فرط المفاجأة والدهشة معاً، ظنوا أن الشريف سيواصل مُبتعِداً عن مرمى أيادي النميري وقواته النظامية المُنتشرة في كلِّ شبرٍ في العاصمة، لا أحد يستطيع ثنيه عن قراره، ما يخطط له يُقدم عليه، والخوف ليس جزءاً من قاموس حياته، انضم لهم في تلك الأثناء الأمين الفحل، أحد قيادات الحزب في منطقة الحوش، وبعد كتابة الشريف للخطابين، توجه إسماعيل حسن صوب العاصمة، وذهب أحمد دهب ومحمد عبدالله موسى إلى قرية الشكابة للقاء الأمين جراد، وبقي عباس كنين والأمين الفحل مع الشريف.

***

مدينة ود مدني.. يونيو 1935م

أكثر ما يُمتِع الحسين اكتشافه ود مدني، مدينة هادئة وجميلة، خضراء قانية تغطي أشجارها السواد الأعظم من أحيائها التي تُحاذي النيل، حضر إليها في العام الماضي برفقةِ خاله أحمد خير الذي يعمل فيها مترجماً في المديرية قبل أن يلتحق بمدرسة الحقوق، بذل خاله مجهوداً مضنياً لإقناع الشريف يوسف بضرورة إلحاقِه بالمدارسِ الحكومية، بعد أن أتمّ حفظ القرآن الكريم، تمّ إدراجه في الصّف الرابع بالمدرسة الأولية، ثم انتقل إلى المرحلة الوسطى في مدرسة ود مدني الأميرية، يكتفي فقط بحضور الحصص فيستوعبها ولا يذاكرها، منغمساً في المناشط الأدبية والثقافية، وبرزت فيه شجاعة أدبية منقطعة، يخطب بصوتٍ جهورٍ وسط الطلاب والمعلمين، ويؤدي أدواراً درامية في الليالي التي تقيمها المدرسة بصورةٍ راتبة، وطغى عليه حبه الشديد للغة العربية والإنجليزية معاً، لم تتوال عليه الأيام إلا وقد أضاف إلى سعةِ عقلهِ قدرة استيعابية تفوق تحصيله الدراسي الذي تحيط به أسوار المدرسة، أسعد أوقاته عندما يدعوه أحد أصدقائه الذين يسكنون القرى التي تقع داخل مشروع الجزيرة لقضاء الإجازة الأسبوعية، لا يفتر من التجوال في الحقول والسير على ظهور التُّرع وبين الجداول، ذلك الاتساع الأخضر الذي يراه أمامه ولا يوقفه إلا خط الأفق، أرض خضراء منبسطة، تُروى أرضها الطينية السوداء بالمين كنار، من الخزّان، وحتى مشارف الخرطوم دون إحراق كوب وقود واحد، اتساع هذه الأرض يمتد إلى أماكن يعرفها بسماعه عنها ولم يرها، يحسّ بأنّ أجزاء من قلبه تتناثر فتتوزع في أرجائها لارتباطه الوجداني بهذه الأرض وهذا التراب.

جدّته شموم كريمة الأرباب أحمد ود الزين، جمُّوعية من منطقة السروراب شمال الخرطوم، وجدّه محمد خير، من مقاشي التي تتوسط ديار الشايقية الحانية، جده الشريف محمد الأمين قطب القرآن،

دُفِن جثمانه الطاهر ملاصقاً لتُربة الرهد أبو دكنة تحت غابة داكنة بكردفان بعد أن قابل المهدي، وبعد أن خرّج عشرة آلاف حافظ ودارس للقرآن الكريم وعلومه، وعمه الشريف علي الهندي الذي أروت دماؤه الطاهرة أرض سنار شهيداً، وهو يحمل راية الأشراف أميراً في غزوات المهدية، ويجيء أبوه فيغطي بتجواله ساحات واسعه لمساعدة الناس واستقرارهم، أنشأ القرى، وحفر الآبار، وسجّل لهم الأرض، وأشعل فيها نار القرآن وليالي المديح والمولد للهداية والمعرفة، وخاله أحمد خير يجمع من حوله شباباً مستنيراً لمستقبلٍ قادمٍ سمعهم كثيراً يتهامسون به ويأملون، أين سيكون هو من كلّ ذلك؟ كيف السبيل إلى وضع أقدامه في كلّ هذه الامتدادات والأواصر والاتجاهات؟ شيئًا قويًّا يدفعة ليكون مثلهم أو على الأقلّ أقرب إليهم، شيئًا خفيًّا، يحب أن يمضِي في طريقٍ يمرّ فيه بأنفاسهم وأخبارهم، يريد اشتمام عبق الشمال ونيله المضمّخ بأزهار النخيل وهي تعلو لتحاذي رؤوسها التلال، وتقف على طول ذلك النيل وكأنها جيش من الملوك تحرسه، يريد أن يطأ كل مكان وطئت فيه أقدام أبيه وجده ومن سبقهم من الأشراف والأولياء، يريد فك طلاسم ما يدور بين خاله وأصحاب ربطات العنق من أصدقائه، يريد أن يحيط بكل ما يدور حوله ويغوص في أعماقه وفي أغوار جذوره.

ألف وتسعمائة ثمانية وثلاثون من الميلاد، هو العام الذي يبلغ فيه من العمر خمسة عشر عاماً، وهو الآن في بدايات السنة الرابعة والأخيرة من المرحلة الوسطى، سأل خاله أحمد خير قائلاً وكان قد أكمل وقتها دراسة الحقوق:

ـ ما الذي دفعكم لتترك مقاشي لتتفرقوا هنا في الجزيرة وفي سنجة يا خال؟.

ضحك أحمد خير وهو يرد عليه بقوله:

ـ لقد أخبرتك عن هذا عدداً من المرات، وأعلم أنك ما شاء الله تحفظ كل ما تسمعه حفظاً، لماذا تريد إزعاجي وأنت ترى أنني مشغول جدًّا اليوم.

ابتسم الحسين وهو يردّ عليه في إلحاحٍ ودود:

ـ دوماً يا خالي تجيبني على قدر سؤالي، وأنا كما تعلم، أحب القصص

الطويلة والتفاصيل المُملّة التي يجتمع فيها كل ما أريده، فهذه الطريقة وحدها التي تجعلني أتخيّل ما جرى في الماضي.

ضحك خاله حتى ضاقت الفصود العرضية التي على خدّيه، وقال له بعد أن قبّل رأسه مرتين:

ـ تعلم يا حسين أن لديّ اجتماعاً اليوم في نادي الخريجين، وتعلم جيداً كمّ القضايا التي من المُفترض أن أستذكرها للمحكمة غداً، ولكن على الرغم من ذلك، هاك يا ابن أختي.

جلس على كرسي من الخيزران ووضع رجليه على المنضدة القصيرة التي أمامه، أشعل سيجارته، وبدأ حديثه بعد أن نفخ عود الثقاب وألقاه بعيداً:

ـ نحن كما تعلم، شايقية من مقاشي، وأنا مُسمى على جدِّي أحمد خير الكبير، كان يعمل في منطقة الروصيرص جنديًّا في فترة حكم الأتراك، استدعت الحكومة في إحدى السنوات كل جنودها من الروصيرص وما حولها للمجيء إلى الخرطوم، ركب الجنود وعوائلهم الوابور النهري متجهين إلى العاصمة، ومعه زوجته فاطمة التي كانت في الشهر الأخير من حملها، جاءها المخاض داخل الوابور، وأنجبت والدي، وهو جدك محمد خير، ليكون اسم المولود بالكامل محمد أحمد خير، وعند وصول الوابور النهري إلى الشاطئ التي تقع فيه الآن قرية فداسي العامراب، نزل عدد كبير من الجنود الشوايقة وقرروا الاستقرار فيها.

نشأ أبي وكبُر وبلغ أشده معتمداً على نفسه، وكان يعمل هنا وهناك حتى استقر به المقام في أم درمان مع عدد كبير من الشايقية الذين أتوا من الشمالية، وكان معظمهم من أنصار المهدي وحاربوا معه في الكثير من المعارك، وكان أمير أمراء الشايقية آنذاك يسمّى الأمير أحمد يونس، وبعد مرور سنواتٍ قليلة وثق الأمير في جدك محمد وصار من المقربين عنده حتى زوّجه أخته خادم الله، ثم قام بعض المفتنين بالإيقاع بين الأمير أحمد يونس والخليفة عبد الله التعايشي الذي قام بحبسه في سجن الساير، وبعد شهورٍ قليلة توفي داخل السجن بسببِ قسوة المعاملة بداخله، لم يستطيعا جدك وجدتك العيش بعده في أم درمان؛ لأن خليفة المهدي أمر

بنزع الحوش الذي كانا يسكنان فيه مع خالي الأمير، ركبا أحد المراكب عائدين إلى فداسي العامراب لينضما إلى الشوايقة الذين أتوا مع أبيه من الروصيرص سابقاً، وكانوا قد عمروها وزرعوا حولها، وأنجب جدك كما تعرف خالتك نفيسة، وأنجب والدتك التاية، وأنجب خالك أحمد الذي يحدثك الآن، وأنجب خالك علي، وأنجب خالك يوسف، ونكتفي بهذا القدر يا حسين.

قاطعه الحسين ضاحكاً:

ـ ليس الآن يا خال، لدي الكثير من الأسئلة، أولها كيف قابل أبي جدي محمد خير وتزوج ابنته؟.

ابتسم أحمد خير بعد أن اعتدل واقفاً وهو يقول:

ـ أنا الذي سأقول لك ليس الآن، ولسببين، أولهما يتعلق بك، فقد أرسل أبوك خطاباً يقول فيه بأنه يريدك في بُرِّي لأمرٍ عاجل، والأمر الثاني أنني ذاهب إلى اجتماع مهم في نادي الخريجين، لأننا بصدد فتح نادٍ آخر بالخرطوم، وعلينا أن نبدأ هناك رحلة البحث عن مكان مناسب.

***

قرية أم سنط.. ليل 29 مايو 1969م

جاءهم عمر إسماعيل صاحب التاكسي، وهو من قرية بالجزيرة تُسمى ود الضو، عادةً ما يكون رابضاً أمام بوابة مستشفى ود مدني التعليمي حتى جاءه رسول الزعيم عباس كنين، أرخى الليل ستائره عندما استقل الشريف التاكسي ومعه الأمين الفحل، دخلا ود مدني بعد صلاة العشاء بقليل، توقّفت بهم العربة أمام مكتب أحمد دهب المحامي، ترجّل الأمين الفحل ليحضره فلم يجده.

انسحبوا من أمام المكتب قليلاً حتى لا يلفتوا الانتباه، ساروا قليلاً حتى وقفوا بالقرب من أحد البقالات والراديو بداخلها يصيح:

ـ "نداء عاجل، تناشد الأجهزة الأمنية لثورة مايو المجيدة المدعو حسين يوسف الهندي والمدعو الرشد الطاهر بكر، بضرورة تسليم نفسيهما إلى أقرب مركز شرطة، وتطلب من المواطنين الشرفاء إبلاغ السلطات في حال التعرُّف أو القبض عليهم، وترصد الدولة مكافأة كبرى لمن يقوم بذلك".

ضحك الشريف بملء فيه وهو يُخرج دخان سيجارته من صدره ويقول:

ـ لو يعلم هذا النميري، أن حالنا في المعتقل سيكون أفضل بكثير من أيامنا ونحن وزراء، لتركنا وشأننا، سيكون لدينا على الأقلّ وقت للنوم ومثله للأكل والقراءة، هذا طبعاً في حالة لم يعدمنا.

ضحك الأمين الفحل وأردف الشريف قائلاً إلى سائقهم إسماعيل:

ـ هيا إلى منزل أحمد دهب.

ثلث ساعة وكانوا أمام منزل أحمد دهب، دخل عليه الأمين الفحل وظلا لربع ساعة وأتيا بعدها وفي أيديهما حافظة ماء وأخرى بها شاي، تخلّف أحمد دهب منتظراً محمد عبدالله موسى وتحركوا نحو المكان المُتّفق عليه بالقرب من زريبة المواشي.

تأزّم الوضع بنفاد وقود التاكسي بالقرب من الهيئة القضائية، وكانت مخاطرة حقيقية بعد أن قام الجنود الذين يحرسون البوابة بالوقوف والنظر إليهم بأعيُنٍ فاحصة، فما كان من الأمين الفحل وعمر السائق إلا النزول من السيارة ودفعها بأيديهما والشريف بداخلها حتى أوصلاها طلمبة الوقود، ومنها اتجهوا نحو كُبري العسكري فأوقفوا العربة على مقربة منه، وما هي إلا دقائق حتى لحق بهم أحمد دهب ومحمد عبدالله موسى، ثم انضم إليهم عباس كنين وحسن الفحل شقيق الأمين الفحل، وظلوا جميعهم في انتظار الأمين جراد، وصل إليهم في الساعة العاشرة وهو يقود عربته اللاندروفر، جلسوا على الأرض وهم في أشدّ حالات القلق، سيفارقهم الشريف بعد دقائق، أدرك الشريف أن هنالك أسئلة كثيرة تدور حول رؤوس أصدقائه، بادرهم موضحاً وهو يقول بصوتٍ لا يخلوا من التحفيز والتشجيع:

ـ لقد قمت بتحذير أعضاء الحكومة من مغبة حدوث انقلاب بعد أن سردت لهم الدلائل التي تشير إلى ذلك، كان شعوري عاديًّا عندما تلا نميري بيانه الأول، أقنعت نفسي ألا داعيَ للقلق، وجاء البيان الثاني من بابكر عوض الله رئيس الوزراء، وحفظت كلماته كلمةً كلمة، وتمعنت في وزارته المُكوّنه من عشرةِ وزراء، اكتشفت أن ثلاثة أرباع المجلس من الشيوعيين، وأغلبهم أعضاء في اللجنة المركزية للحزب، والبقية متعاطفون ورفقاء درب، وواحد أو اثنان من الضعفاء الواقفين على السياج، وهنا اختلفت نظرتي.

نفث دخانه مرّةً أخرى قائلا:

ـ لا يمكن أن نرضى بهذا، ليس هذا هو الجيش السوداني الذي نعرفه، حِفنةً منه أرادت بسلاح الشعب وبقوة الجيش وعنفه أن تحكم أقلية كل الشعب السوداني، وأن تفرض أيديولوجية محددة بقوة السلاح، بعد أن عجزت أن تفرض نفسها بالقبول والرضى والمنطق، وأرادت أن تحتمي وراء قوة الجيش وتسميها ثورة، وتسمي البطش عنفًا ثوريًّا، وتحِلّ كل الأحزاب السياسية، وتفرض حزباً واحداً منها تحت ستار الثورة وبحماية القوات المسلحة، عندها سَرَت في جسدي قوى غلابة، انحسر

معها الوهم والضعف الذي كان يلازمني وأنا آتٍ إليكم، وتلاشت حالة اللامبالاة التي كانت تعتريني وكادت أن تلازمني، وحلت محلها قوةً جبارة، ملأت جسدي وروحي وعقلي، غمرني إحساس بالتحدي وملأ كل جوارحي، تضاءلت بجانبه العواطف الحزبية، وسمت المشاعر الوطنية، وقررت حتى وإن لم يكن بجانبي زميل أو صديق أن أقاوم هذا الخطر بكل قواي، حتى ولو بأظافري وأسناني، وأن أحتفظ بولائي الحزبي نظيفاً، سأذهب، ولكن بعيداً لأكافح مع من يستطيع لاستعادة الحرية والاستقلال لوطننا، وكانت هذه هي قناعتي وأسبقيَّتي الأولى، وأنا على يقينٍ بأنكم لا تقلون عني في شيء مما أُحسه، سنبدأ كفاحنا من الآن ضدّ هذا النظام الشمولي، وستكون رحلتي إلى الخرطوم هذه هي أولى الخطوات، وسنبحث أمر خروجي عند عودتي بإذن الله، أستودعكم الله.

كان الوداع بالعناقِ والدموع السخية، والكلّ يوصيه بالحذر الشديد، استقل الشريف الاندروفر مع صاحبها الأمين جراد، انطلق الأخير بسرعةٍ قصوى بعد أن أنزل إطاراتها من الطريق الأسفلت، وأطلق عنانها حتى دخلا وسط الخرطوم من منفذها الجنوبي، وصلا المقرن عند الثانية عشرة والنصف تماماً، قال الشريف للأمين جراد:

- علينا عبور كُبري أم درمان .

أوقف الأمين سيارته والتفت للشريف وهو يقول:

- يا سيدي الشريف يستحيل ذلك، أمام الكبري دبابتان، يمكن تدبر الأمر بمركبٍ نعبر به النيل الأبيض إلى الفتيحاب ومنها إلى حيث نريد.

صمت الشريف قليلاً وقال بلهجة تملؤها الثقة:

- لن يتوقع أحد منهم بأنني سأتجول أمام أعينهم في هذا الوقت، وهذه الدبابات خاوية، ليس فيها طلقة واحدة، توكل على الله.

انطلق الأمين جراد واجتاز الكبري في لمح البصر، توجها إلى منزل عبدالوهاب الشيخ، نزل الشريف وابتسم يقول:

- عليك أن تأتيني غداً عند الساعة العاشرة مساءً، في أمان الله.

رد عليه الأمين جراد بعد أن دعا له بالرعاية والحفظ:

- سأذهب إلى الجديد الثورة، لدي عمال بالقرب منها، وسأعود في

الموعد، لا إله إلا الله.

أكمل الشريف الشهادة وهو يدلف الباب:

- محمد رسول الله.

كان عبدالوهاب الشيخ متأهباً للقائه بعد أن أبلغه إسماعيل حسن بخطاب، وأوصل إسماعيل الخطاب الآخر إلى السيد محمد عثمان الميرغني الذي كان في انتظاره أيضاً، أخذه عبدالوهاب إلى منطقة في الخرطوم جوار مقابر فاروق حيث كان الرشيد الطاهر بكر مختبئاً مع أحد أصدقائه، ومنه توجّه إلى منزل السيد محمد عثمان ببحري. كانت الأنوار مطفأة، والأبواب مواربة، ولا أحد في الجوار غير إسماعيل حسن الذي ترك لهم المكان وخرج إلى باحة الدار ليجتمعا، دارت لقاءات الشريف على نفس النسق الذي أخبر به رفقاءه عند كُبري العسكري، ضرورة المواجهة وشحذ كل الهمم اللازمة لذلك، غير أنه وجد عند السيد محمد عثمان الميرغني رأياً مخالفاً، فهو يرى بأن يهدأ الناس قليلاً ليروا ماذا ستفعل هذه الحكومة، لم يتوقع الشريف بأن رأيه سيكون صريحاً إلى هذه الدرجة، ولكنه أحسّ بذلك عندما تأكد بأن السيد لم يكن مع المعتقلين ولا مع المطلوبين للاعتقال، حتى أن السيد أبلغه عدم رغبته في ممارسة العمل السياسي في الفترة القادمة ونيّته التفرغ لشؤون الطريقة، وختم حديثه وهو ينصحه قائلاً:

- أعتقد أنه لا فائدة من الهروب، أقترح عليك يا الشريف تسليم نفسك حتى لا تعرِّض نفسك للخطر، وبعد ذلك يمكن أن نتفاوض معهم ليطلقوا سراحك.

اعتدل الشريف بعد أن وقف، نظر إليه، ونظر إلى باب الخروج، ونظر إلى المسدس المحشور في خصره، وقال له قبل أن يودِّعه:

- لا عليك يا مولانا، في مسدسي هذا سبع طلقات، سأفرغها في من يُقبل عليّ منهم، وأطلق على رأسي الطلقة الأخيرة، ولن أسلم لهم نفسي، وسيقضي الله أمراً كان مفعولا.

***

لم يكن طريق العودة سهلاً، فقد قطعت عربة الأمين جراد المسافة الفاصلة بين الخرطوم وود مدني عبر حقول الجزيرة في طريقٍ يطول كثيراً بسببِ ترعٍ ومصارف المشروع، وصلا أحد المكاتب الإدارية التي عادةً ما تقع في تقاطع قنوات المياه، ومنها تكون هنالك عدة طرق تتفرّع إلى كل الاتجاهات تقريباً، كان الوقت عصراً عندما التفت الشريف للأمين قائلاً:

ـ عليك الذهاب إلى قرية الحوش، أخبر الأمين الفحل بأن يعدّ عربة يذهب فيها علي العبيد ومعه حسن الفحل إلى الجزيرة أبا لتسليم هذه الرسالة إلى الإمام الهادي.

وكان علي العبيد يعمل سائقاً للشريف أيام الوزارة، وحسن هو شقيق الأمين الفحل، وفي الخامسة عصراً، أتى محمد عبدالله موسى وأحمد دهب المحامي برفقة سائق التاكسي عمر إسماعيل إلى المكتب وأخذوا الشريف إلى قرية ود الضو، وانضم إليهم الأمين جراد والأمين الفحل بعد أن أرسلا حسن الفحل وعلي العبيد إلى الجزيرة أبا، كانت الساعة قد تخطّت الثامنة مساءً، لم تكن قرية ود الضو بالمكان الآمن، اجتمعت كل الآراء على ذلك، وفي لحظةٍ قرروا مغادرتها فوراً، وفي الطريق، اقترح عليهم الشريف الذهاب إلى قرية العُقدة راجلين، ويتركوا السيارات بعيداً مع سائقيها حتى لا تثير أصواتها وضجيجها الانتباه في ذلك الوقت المتأخِّر من الليل، كانت المسافة بعيدة جدًّا على الرغم من أنهم قطعوا نصفها، وفجأةً، لاحت لهم أنوار سيارتين تتجه نحوهما مباشرة، حدث لهم القليل من الارتباك حتى استدرك الأمين الفحل ما يحدث ثم صاح قائلاً:

ـ أظنّ أنه الشريف المهدي، فقد أخبرته بمكاننا، ولكن، إذا كان هذا هو، فلمن السيارة الأخرى؟.

الشريف المهدي هو ابن أخت الأمين الفحل، وابن أخ الشريف حسين، والابن البِكر لخليفة السجادة الشريف عبدالرحمن الهندي رحمه الله، اختار له أبوه العُقدة مكاناً لربط أهل الطريقة ولتكون نقطة

الالتقاء الاجتماعي والأخوي والروحي بين قرى المنطقة، ساعده على ذلك موقعها الاستراتيجي وهي تتوسّط قرى مريدي الطريق، إضافةً إلى وجود محطة السكة الحديد الرابطة بين العاصمة والمدن التي تقع جنوبها، وقد برع الشريف المهدي في تمثيله لبيت الشريف الكبير لما يتمتّع به من دماثه خُلق وسماحة جُوار ولين جانب، حتى صارت العُقدة عبارة عن حركةٍ دؤوبة للنشاط السياسي والصوفي معاً.

كان لقاءاً حاراً بين الشريف حسين وابن أخيه المهدي، وكان الجدال محتدماً بينهم في استحالةِ دخول الشريف إلى العُقدة، يرى أغلبهم بأنّ جميع ساكني قرية العُقدة ينتمون إلى الطريقة الهندية، ووجود الشريف في هذه الأحوال قد يُحدث جلبةً عظيمة فتحدُث النتائج الكارثية بحسن النيات، والأمر الآخر هو أنها مُعرّضة للاقتحام من قِبل الانقلابيين في أي لحظة، فهي لا تبتعد عن ود مدني كثيراً، وعندما احتد النقاش حسم الشريف المهدي الأمر بحلٍّ وسط وقال:

ـ تظل العُقدة أفضل مكان يقضي فيه سيدي الشريف ساعاته القادمة، ولكن ليس بداخلها، تعلمون أن داري في طرف القرية وأمامها المزرعة وأمام المزرعة مصرف المشروع وهو خال من المياه، يمكن إعداده وإبقاء الشريف فيه، ويمكننا أن نكون جميعاً حوله، وتعلمون أن دارنا لا يشك فيها أحد مهما كثُر فيها الناس.

ما إن انتهى الشريف المهدي من حديثه حتى أمرهم الشريف حسين بالتوجه إلى هناك وتنفيذ ما قاله ابن أخيه بالحرف، دخلوا القرية والساعة قد تخطّت العاشرة بقليل، وقفت السيارات أمام مزرعة الشريف المهدي، وما هي إلا ساعة حتى قام ابنه عبدالرحمن وابنته فاطمة وملازمه الضحوي بتهيئة المكان بما يلزم، سجّاد ووسائد وطعام وشراب، وبقي الآخرون في تناوب ما بين المنزل والمزرعة والمصرَف دون أن يثيروا الانتباه.

أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي، كان الجوّ صحواً وبارداً مقارنةً بحرِّ بدايات شهر يونيو، صنعوا للشريف واقياً من القش داخل المصرف يمنعه الشمس وجلس بعضهم حوله في تناوبٍ حتى تكون أعين الآخرين

رقيبةً على محيط المزرعة والطرق التي تؤدي إليها، سأله الشريف المهدي قائلاً:

- ماذا كان في عودتك الخرطوم ومقابلاتك؟.

ابتسم الشريف حسين بعد أن أخذ نفساً عميقاً من سيجارته التي قاربت على الانتهاء ليقذف بها بعيداً وهو يقول:

- جميع من قابلتهم أثروا في نفسي طاقة جبارة للمضي في معارضة هذا النظام الشيوعي الذي أتى في ثوب الجيش، والقليل منهم لا يؤمنون بالتّمتع بالحرية من أجل الكفاح، بل يفضلون أن يُقدِّم الإنسان نفسه طائعة للسجن، ويُفرِّغ طاقاته وهو داخل الحبس، يرون في ذلك دليلاً على الشجاعة والفداء، بالطبع رفضت هذا المنطق، إذ كيف أقدِّم نفسي كالحَمَل لكي أُسجَن مع طاقاتي وأحرم نفسي وبلدي من مساهمتي في تحريرها.

يعتبرون هذا أرقى مراتب الشجاعة والفداء، يظنون أن هذا من التقاليد، كيف أقبل لنفسي أن أكون أسيراً لسلطةٍ غير شرعية، كي تسجنني وتشلّ حركتي، عليّ خرق هذا التقليد وانتهاكه، لأنّ احتفاظي بحرِيَّتي هو بداية المعركة لاستعادة حريات الآخرين يا ابن أخي، واعلم، أن هذه الحكومة ستُجنّد كل طاقاتها وإمكانياتها للقبض علي، وأنا على يقينٍ كامل بأنهم لن يتروكني أنام، وأعلم أيضاً بأنني لن أتركهم ينامون أو تَغمِض لهم عين.

جاء المساء وقرروا الذهاب إلى قرية حامد بلول حتى لا يقضِي الشريف وقتاً طويلاً في مكانٍ واحد، تحركت سيارتان، وعلى بعد مائتي متر من شرق القرية، أوقفوا السيارات قُبالة دار حامد بلول وأطفأوا محركاتها، كان القمر شديد البياض ليلتها، فنبحت فيهم كلاب القرية ولم تصمت حتى جاء شخص من القرية يحمل بندقية، اقترب منهم قليلاً وصاح قائلاً:

- من الناس؟.

كان الشخص حامد بلول نفسه، تقدّم نحوه الأمين الفحل مُحيياً له باسمه ومصافحاً، شرح له الأمر فتوجه نحوهم مهرولاً وصافح الشريف

وقبّله في وجنتيه وهو يبكي ويقول:

ـ الشريف، حبابك عشرة، عليَّ الطلاق أحميك بدمي ونفسي.

قادهم حامد بلول إلى مزرعته التي لا تبعُد من القرية كثيراً، جلسوا جميعهم بالقرب من أبو عشرين الذي يقسمها إلى نصفين، استأذن حامد بلول الذهاب إلى داره، ثم عاد بعد ساعة وهو يحمل العشاء والشاي والقهوة.

انعقدت جلستهم في ذلك الليل حتى الواحدة من صباح اليوم التالي واتفقوا على تهريب الشريف إلى الجزيرة أبا في مساء اليوم التالي، حيث الأمام الهادي المهدي، واختاروا الريح النور ليقود الشريف إلى هناك لمعرفته بالطريق الذي ينفذ من الجزيرة غرباً إلى هناك، وهو من قرية الحوش، شاب قوي، واتحادي غيور، كان يقود عربة الشريف ويقوم له بالكثير من المهام، ومع طلوع نجمة الصباح، تفرقوا جميعاً وعادوا أدراجهم بعد أن أصرّ الشريف على ذلك، وقد أوكل إليهم جميعاً مهام عديدة وحساسة ولا تخلوا من الخطر، وصل الأمين الفحل الحوش، وأخبر الريح النور بمهمته، وأبان له سرية الأمر وخطورة ما هو مقبل عليه، فصاح واستبشر وبكى، وذهب في ساعته وملأ تنك سيارته البولمان بالوقود، وتوجه فوراً نحو قرية حامد بلول ومعه عبدالباقي شقيق الأمين الفحل مُرافقاً، وعندما وصلوا المزرعة عند الساعة الواحد ظهراً وجدوا الشريف يجلس القرفصاء على سجادة في طرف الجدول وحامد بلول واقفاً على رأسه وبندقيته على كتفه في استعداد كامل.

حياهما الشريف وطلب منهما الذهاب فوراً لقرية العُقدة ليحضرا له عبدالرحمن الشريف المهدي والضحوي ملازم الشريف المهدي، ذهبا فوراً، ولكنهما تأخرا بسبب البحث عن الوقود الاحتياطي الذي يضمن لهم الوصول للجزيرة أبا والتحوط لأي طارئٍ يفاجئهم في الطريق، وعاد أربعتهم إلى مزرعة بلول والساعة تشير إلى الواحدة صباحاً، انفرد الشريف بعبدالرحمن والضحوي يمليهما بعض الرسائل والمهام، وفي أثناء حديثهم أتت عربة أخرى فيها على العبيد وابن أخيه الصديق الشريف علي الهندي، وعادت العربة بالضحوي وعبدالرحمن المهدي،

وعندما دقّت الثانية تماماً، أتي الريح النور ليبلغ الشريف بموعد التحرّك إلى الجزيرة أبا، وجد عنده مسدساً غريب الشكل يدور في سبابته، باغته الشريف متسائلاً:

- هل تخاف يا الريَّح؟

انفعل الريح حتى ارتجفت أوصاله وبانت عروق حلقه وقال مُتحفِّزاً:

- والله يا الشريف، لو طلبت مني أن أرمي بنفسي في النار لفعلت.

ابتسم الشريف وقال لهم:

- هيا بنا.

صعد أربعتهم السيارة، الشريف والريَّح النور وعلي العبيد وصديق ابن أخيه، وانطلقت العربة غرباً وحامد بلول يلوِّح لهم مودعاً حتى ابتلعهم الظلام.

***

بُرِّي . سراي الشريف.. أبريل 1940م

سراي الشريف كعادتها دائماً هذا الصباح، حركة دؤوبة تظهر في حركة القائمين على أمر الخدمة والضيافة بداخلها، الشريف يوسف الهندي يشرف بنفسه على الترتيب لاستقبال وفدٍ غاية في الأهمية، أفخر الأواني وأفضل المشاريب وأطيب أنواع الطعام.

أبناؤه الشريف الأمين والشريف عبدالرحمن يشرفان أيضاً على تهيئة الأجواء لإكرام الضيوف، والشريف حسين يعمل مع المريدين في تجهيز اللازم لهم، ما إن ارتفعت الشمس قليلاً حتى دخل مجموعة من الشباب على هيئةٍ متقاربة مما يرتدون، بنطالات غامقة اللون وقمصان أطرافها السفلية بداخلها ويعتمرون طرابيش حمراء مع أحزمة تتقاطع على أكتافهم لتعضّ بأطرافها البنطالات من الأمام والخلف، دخلوا على الشريف يوسف وهو يتوسط أبناءه، في مقدمتهم أحمد خير، هو من أشار على زملائه المجيء هنا لطرح أمرٍ على الشريف يوسف.

بدأ أحمد خير بتعريفهم على الشريف بعد أن جلسوا على الكراسي الوثيرة:

ـ هذا إسماعيل الأزهري، يحيي الفضلي، محمود الفضلي، مبارك زروق، محمد أحمد المحجوب، أتيناك يا الشريف لأمرٍ نرى أنه من الأهمية بمكان، وسأترك زميلي إسماعيل الأزهري بأن يشرح لسيادتكم ما جئنا لأجله.

التفت الشريف يوسف نحو إسماعيل بعد أن رحّب بهم قائلاً:

ـ هل تتذّكر يا إسماعيل بأنك أتيت إلى هنا من قبل.

ابتسم إسماعيل بهدوئه وأدبه المعروف، وردّ عليه قائلاً:

ـ نعم سيدي الشريف، أتيت سنة عشرة، مع جدي إسماعيل الولي، ولكن على الرغم من أن عمري كان عشر سنوات وقتها، إلا أنني أتذكر

هذا اليوم جيداً عندما قال لك جدّي إنّ أبي متوفى وهو يقوم على تربيتي، حتى أنك مسحت على رأسي وقلت له إن ابنك هذا سيكون له شأن، وكنت دائم السؤال لجدي عن رحلتكم إلى لندن سنة تسعة عشرة.

ابتسم الشريف يوسف قائلاً:

ـ جدّك أخي وقريبي.

واصل إسماعيل حديثه قائلاً:

ـ جئناك سيدي لأمرٍ نعتقد أنه غاية في الأهمية، منذ سنوات ابتدر أخونا أحمد خير فكرة إقامة ناد لخريجي مدارس السودان بمدينة ود مدني، يلتقون فيه ويقيمون بداخله النشاطات الثقافية والأدبية، وقد نجح الأمر كثيراً وتطور وصار منارة للفكر والتنوير، تطور الأمر وتحوّل إلى ما قصدناه منذ البداية بمناهضة الاستعمار بصورةٍ سلمية وإخراج الإنجليز من البلاد، وأدركنا أنه لا يمكن أن نُحدِث تأثيراً إلا إذا أنشأنا فرعاً هنا في العاصمة، ولشهرين كاملين قمنا بالبحث عن دار نستأجره، فلم نترك تاجراً أو وجيهاً إلا وذهبنا إليه، ولكن كما تعلم سيدي، توجُس هؤلاء البارزين في المجتمع وتخوّفهم من ظنون الإنجليز بمساعدتنا ضدّهم، لذا جئنا لسيادتكم حتى تساعدنا في هذا الأمر.

ابتسم الشريف وهو يسأله:

ـ أهلاً بكم ومرحباً بطلبكم أبنائي، ماذا تريدون بالضبط لأقدمه لكم.

واصل إسماعيل الأزهري قائلاً:

ـ في أثناء بحثنا عن دار، عثرنا على بيتٍ في سوق أم درمان، وعندما سألنا عنه قالوا إنه ملكٌ لك، نريد منك أن تؤجره لنا.

صمت الشريف يوسف قليلاً وبدأ في رده بصوته الجهور:

ـ ليس لي ما أقوله إلا أن أشكر لكم اهتمامكم ببلدكم وأنتم في هذا السن الباكر، وأنتم مسلحون بالعلم والمعرفة، ولكن لديّ سؤال.

رد عليه إسماعيل الأزهري:

ـ تفضل مولانا.

أردف الشريف يوسف مبتسماً:

ـ هل يجوز أن تقوموا أنتم بإخراج المستعمر، وتبعثون عن ما يعينكم

على ذلك، وأقوم أنا بلحيتي هذه التي كساها الشيب بتأجير المنزل لكم؟

عمّ صمت في المكان للحظات، وواصل الشريف قائلاً:

ـ لقد وهبت لكم المنزل لوجه الله تعالي، هبةً غير مرجوعة لخريجي مدارس السودان، وسأوكل ابني الأمين هذا لإتمام الإجراءات اللازمة لذلك، ولكم مني مبلغ ألف جنيه تبرعاً لمهامكم القادمة، وأعملوا بأنني وأبنائي وكلّ ما أملكه ملك للشعب السوداني.

لم تسعهم أرض ولا سماء، كان الحسين واقفاً يسمع، لأولّ مرة يراهم بعد أن سمِع عنهم كثيراً من خاله أحمد خير في ود مدني أيام الدراسة، يعلم الحسين أيضاً أن أباه هو الزعيم الديني الوحيد الذي حوصِر ومُنع من السفر والتجوال، بعد أن تمكّن من مساعدة مجموعات القبائل التي كانت تتجوّل وتهرب خوفاً من الجهادية في فترة حكم الخليفة عبدالله التعايشي، وكانوا ما بين النيل الأزرق ونهر الدندر، وبين نهر الرهد والنيل الأزرق المُتّصل مع نهر الدندر، ومن الشريف يعقوب مسقط رأسه، وقرية نوارة مكان تقابة خلاوي أبيه، تواصل الشريف يوسف مع جميع هؤلاء بحركةٍ دائمة لتمكينهم من الأرض لتكون سبباً في استقرارهم، وبدأ في إنشاء طريقته الصوفية لإرشاد الناس سبل دينهم وإصلاح دنياهم وآخرتهم، وذاع صيته وبان صلاحه وخرق زمانه وهو في العقد الثالث من عمره، وتزوّج من القبائل مع اختلافها لربط أواصر الدم والولد، فخاف المستعمر من هذه الأفاعيل التي قد تجلب له المتاعب مستقبلاً، وما ثورة عبدالقادر ود حبوبة ببعيدة، فكيف السبيل إلى الحدِّ من ذلك التمدُّد المخيف لرجلٍ لا عمل له غير منفعة الناس ومساعدتهم.

دبّروا له مكيدة حتى يكون فيها اعتقاله مطلباً لأعيان تلك المنطقة الممتدة طولاً وعرضاً في وسط البلاد، حُرِّرت عريضة في ود مدني تقول بأنه يعمل على جمع الناس من حوله لمناهضة المستعمر وحربه عسكريًّا، وشهد على ذلك جمعً من الأعيان، وأكدوا على صدق نيّة الشريف وعزمه القيام بذلك، بل وصل الأمر بأن وقّع على ذلك أربعين شخصاً يُعدّون من الأعيان، وعندما استحكم الأمر بالإدانة الدامغة، قام الحاكم العام بإصدار أوامره لرستم مسؤول الإقليم الأوسط باعتقاله، وبعدها تحرّك

رستم على عكس ما كان مُتوقَعاً في مثل هذه الحالات، كان من المُفتَرض الذهاب بقوةٍ عسكرية إلى قرية الربوة التي تقبع فوق تلةٍ بمحاذاة النيل الأزرق، وهي قرية يضرب فيها نهر الدندر عند مصبِّه في النيل الأزرق، وبالرغم من أنه يأتيها بعنفٍ شديد إلا أن ارتفاعها فوق سطح النهر يحميها كثيراً من شراسته، وفيها أحد بيوت الشريف الذي تشاركه فيه زوجته أسماء ابنة الزبير باشا ود رحمة، لم يندمل جرح الشريف وزوجته على فراق وليدهما العيدروس الذي لم يُكمل عاماً على وفاته، حتى وصل رستم إلى القرية عن طريق الوابور النهري ولم يكن برفقته إلا عددٌ قليل من حراسه، دخل على الشريف الذي استقبله مبتسماً وهو يقول له:

ـ مرحباً بك يا رستم.

رد عليه بسودانية ركيكة يعلو عليها الأسف كثيراً:

ـ لا أدري ما أقوله لك يا لشريف، ولكن أعذرني، إنها الأوامر.

ضحك الشريف وقد امتلأ هيبةً وقوةً كعادته وهو يقول له:

ـ لا عليك يا رستم، فأنا أعرف مخبرك ونواياك.

صمت رستم قليلاً قبل أن يقول وعلى عينيه ندم كبير:

ـ لا أنسى إنقاذك لحياتي من الموت يومها.

أجابه الشريف قائلاً:

ـ الله من فوقنا محيط يا رستم.

رد رستم قائلاً:

ـ فضّلت أن آتي إليك وحدي دون جنود لمكانتك عندي مولانا الشريف.

صاح الشريف على من معه لإعداد واجب الضيافة والتفت إليه قائلاً:

ـ لن نذهب قبل أن نقوم بواجب الضيافة.

قبلها بسنوات، كان رستم يقوم بجولةٍ تفقدية في ضواحي مدينة ود مدني حتى وصل إلى منطقة نهر الرهد، وبدأ في الطواف على أعيانها، وفي إحدى المزارع التي تجاور النهر اشتبك جنوده مع رجل من المنطقة وأصابوه بعيار ناري، فهرول رستم إلى مكان الحادث، وبدأ الناس في التجمع حتى اكتظّ المكان وسط تذمُّر ووعيد منهم بقتلهم جميعاً، الشيء

الذي جعل رستم يحس بأن هذه هي النهاية لا محالة، وبعد أن التهب الوضع وقارب إلى الانفجار، جاء الشريف يوسف الهندي مارًّا بالصدفة ومعه نفرٌ من أتباعه، استطاع أن يُهدئ الموقف لمكانته عندهم، وقام بالجلوس جوار المُصاب وهو مُلقى على ظهره والدماء تسيل من بطنه، اعتدل واقفاً وقال للجميع:

ـ لا داعي لكل هذا، أرجو أن تتفرقوا، الرجل حي، هو فقط في غيبوبة، عليكم بالإسراع به إلى الطبيب.

يتذكر الحسين الكثير من هذه الأحداث التي سمعها وحفظها، ويسأل نفسه كثيراً، لماذا حُوكِم أبيه وسُجِن في كوبر لعدة شهور؟ وغيره من سادات أقوامهم لم يُسجنوا؟ ولماذا تم تحديد إقامته في بُرِّي لا يبرحها إلا بإذنٍ من السلطات؟ بينما يجوب غيره البلاد طولاً وعرضاً؟ ثم يعود ويجد للحكومة العذر من الخوف منه، فمثل موقفه مع الخريجين لم يتجرأ به أحدٌ من هؤلاء خوفاً على مصالحهم مع المستعمر.

خرج الأزهري ورفاقه، الآن صار ما يحلمون به له موطئاً في العاصمة، سيحتلُّون النادي بعد أيام قليلة، وعبره سيستعيدون بلادهم، والحسين في أعلى درجات جاهزيته للذهاب بعد أيامٍ أيضاً إلى مصر، والى الإسكندرية بالتحديد، فهناك سيبدأ حياةً دراسيةً جديدة، برفقه صديقه، الهادي المهدي.

***

الطريق إلى الجزيرة أبا.. أوائل يونيو 1969م

طريق الشبونات بريفي الحوش هو الطريق الذي انطلقت فيه البولمان باتجاه الغرب، كثيراً ما سلك الريح النور هذه الدروب التي تلتفّ وتتعرّج إجباريًّا تفاديًا للحقول وجداولها الطويلة الممتدة، وهذا الطريق يتفرّع لطريقين، أحدهما يذهب يميناً ويؤدي إلى جبل دود، والآخر يساراً ويذهب إلى معسكر جبل موية، وبما أن الظلام كان يلفّ الأنحاء، سارت العربة بالطريق الخاطئ حتى وصلوا إلى أطراف المعسكر، تفادى الريَّح النور ذلك بصعوده مُسرعاً إلى خط السكة الحديد وتجاوزه ثم اتجه غرباً بسرعةٍ فائقة لم تخل من خطورة، حتى أن العربة قاربت في عدد من المنعرجات أن تنقلب بهم، وعندما أشارت عقارب الساعة إلى الرابعة صباحاً غاصت إطارات السيارة بالكامل في بطن الرمال بعد أن تجاوزوا مدخل مدينة ربك بقليل، وعندما نزلوا وتلفّتوا تفاجأوا بوجود خيمة منصوبة، حولها عدد من أفراد الشرطة، ترجلوا من السيارة، كان الموقف حرجاً للغاية ومن الخطورة بمكان، خصوصاً وأنّ أحدهم خرج من الخيمة وهو يستاك قبالتهم مباشرة، ومن الصعب جدًّا دفع العربة إلا بمساعدة آخرين، ومن ألطاف الله، بعد خمس دقائق من وقوفهم، مرّ بالقرب منهم مجموعة من بائعي اللبن يركبون على حمير، توجه نحوهم الشريف وحياهم وطلب منهم المساعدة، كانوا أكثر همّة مما توقعوا، قفزوا من أعلى سروجهم وأمسكوا العربة في كامل هيكلها، وما هي إلا دقائق حتى كانت العربة تقف في الجزء الصلب من الطريق، ومن هنا، لم يتبقّ إلا الطريق الذي يؤدي إلى جسر الجاسر، المدخل الوحيد الذي يدخلهم الجزيرة أبا من الشرق، ولا يفصله منهم إلا خط السكة حديد الذي سيوافونه بعد دقائق، قال الشريف حسين للريح النور مُنبِّهاً له:

- عليك بقطعِ السكة الحديد، بعدها مباشرةً توجد نقطة للبوليس، سيطلبون منك التوقّف للتفيش، لا تتوقف حتى ولو أطلقوا علينا النار.

أجاب الريَّح وهو يدوس على الوقود بقوة:
ـ حاضر سيدي الشريف.
وما إن أشار لهم الشرطي بالتوقُّف حتى انطلقت العربة بسرعة جنونية نحو الجاسر، واجتازوه بنجاح، ثم دخلوا إلى قلب الجزيرة أبا.
كان الاستقبال مهيباً، الإمام هرول نحوهم وعانق الشريف لزمنٍ أدرك فيه الناظرون أن هذين الرجلين يجمعهما أكثر مما يعلمونه، أطبق الإمام على كتف صديقه وسار به إلى مقره الخاص داخل تلك المباني المُتراصّة، هذا على غير عادته الدائمة مع الضيوف، فإن لهم مقامهم وأمكنة ضيافتهم المعروفة والمهيأة تماماً، ولكن، هذا صديق صباه وزميل دراسته ومن لا يثق في أحدٍ غيره، تجمهر حوله المئات من أنصاره يهللون ويُكبِّرون، رفع يده اليمنى نحوهم عالياً وقال والفرح لا يُخطئ وجهه الصبوح:
ـ لو جئتم كلكم لحمايتي، فإن الله يرعاني، أما ضيفي هذا، فسأحميه بنفسي، ولن أسمح لأحد بحمايته غيري.
أنزله في بيت زوجته الأولى ووالدة نجله الأكبر، وأكرمه خير إكرام، ينام حول منزله في كلِّ ليلةٍ مئتان من أنصاره، ويصرُّ الإمام على رؤية الطعام قبل أن يقدَّم إليه، يضيف إليه أصنافاً ويحذف أصنافاً أخرى ثم يأمر بألا يمسه أحد بعد فراغه منه إلا بعد حضوره، فكان يكشفه ويتفقّده ثم يناقشنه في أكله الذي يحب، وفي ألوانه التي يرغب فيها والتي لا يرغب، وكان يمضي كل يومه معه، ويعقد اجتماعاته في منزَلَته، ولا يفارقه إلا لدى النوم. وخصص نصف من يخدمونه لملازمته وخدمته بصفةٍ دائمة، لم يُكرَم طوال حياته ولم يهتم أحد بتفاصيله مثلما فعل الإمام، وكل ذلك بنفسٍ راضية وببشرٍ يعلو محياه، كانت المشكلة الكبرى بالنسبة له هي التدخين، فليس هناك في الجزيرة أبا من يدخن وليس هناك من يبيعه لأنه ممنوع، فجمع الإمام رهطاً من كبار أنصار وقال لهم:
ـ ليس في الجزيرة أبا من يبيع الدخان أو يستعمله، والشريف حسين يُدخِّن كما تعلمون، وأنا موافق على ذلك.
كان هذا أول تصريح من نوعه يصدر في الجزيرة منذ ميلادها، لم يكن للإمام شغل آخر غير التشاور معه والاهتمام بالضيوف الذين بلغوا عشرات الآلاف، منهم اللاجئون من البطش، والهاربون من الظلم، كان يطوف بنفسه على محال

صنع الطعام، والتأكد من أن الكل قد تناول وجباته كاملة.

لم يحدث في تاريخ اللجوء في العالم أن عومل لاجئون مثلما عوملوا في الجزيرة أبا، وهناك الكثيرون ممن أتو للإمام محتجّين على وجودي في الجزيرة فانتهرهم وطردهم شرّ طردة، وأرسل سياسيًّا يُسمى صديق، وهو محامي مشهور خطاباً لأحد أصدقائه في الجزيرة أبا، وختمه بقوله:

ـ (أُبلِّغ سلامي لكل من في الجزيرة، ماعدا الشريف حسين).

وقع الخطاب في يد الإمام فضحك وغضب في ذات الوقت وقد أطلعه عليه، ثم مزقه إرباً ووضع قدمه على قصاصاته. دخل رفاق الشريف عليه في مساءٍ كانت الحرارة فيه مرتفعة، كانوا يريدون التدابر حول الخطوة القادمة، خصوصاً وأن النظام الجديد قد علِم بأنّ الشريف قد دخل الجزيرة أبا، ولكنها محصّنة بالرجال والسلاح، وتأبي مخاوف النميري بأن يخوض معركة ما والنظام وليد، قد تتشتت قواه وهو في أمس الحوجة للتركيز في العاصمة والإعلام الذي ينتشر منها إلى السودانيين والعالم، كانت الإشاعة قوية، وتسري كما النار تحت الهشيم، يزعمون بأن الشريف قد هرب بأموال الدولة ثم هرّبها إلى البنوك العالمية لتنتظره في الخارج، ضحك الشريف، ثم أخذ نفساً طويلاً من سيجارته وقال:

ـ لا يعلمون بأنني خرجت بأربعة وعشرين جنيهاً، صرفنا منها جنيهين ثمن الوقود، وتبقّت الاثنان وعشرون.

ضحكوا، وقال ابن أخيه صديق:

ـ لم أكن أعلم بأن الجزيرة أبا بمثل هذا الحجم وهذه القوة، وتفاجأت حقيقةً بتعامل الإمام معك، على الرغم من خلافات سياسية كثيرة في السابق، كنت أظن بسببها لن تلتقوا مجدداً.

أطرق الشريف قليلاً ورفع كمّ جلبابه، تناول كوباً وشرب جرعات من الماء، وأشعل سيجارته بقداحة سوداء قبل أن يقول:

ـ تعلمون أن صلتي بالإمام الهادي قوية وثابتة، لم يؤثر عليها مرور عشرات السنين، ولا اختلاف الانتماءات السياسية والخلافات العديدة التي حدثت في الأعوام السابقة كما قلت، كان محلّ تقديري دائماً، لم يتلوّن ولم يَخُن. يتدرّع بصفاتٍ خلقية، ويتّسم بدينه ووطنيته واستقامته منذ أن كنا أطفالاً، على الرغم من أنه كان يكبرني ببضع سنوات، لم تكن علاقتنا وليدة الاسم ولا اللقب ولا

الأسرة، بل هي ثمرة التجربة الطويلة المتواصلة والاختبار اليومي، في صِغار الأمور وفي كِبارها.

خلق الله بيننا ثقة متبادلة ومحبة متواصِلة لا تنقطع بصغار الأمور وسفاسفها، كنت أعرف أنه المتدين ليس بالوراثة، والأمين ليس بالأسرَة، والوفيَّ بدون لقب، والشجاع لا بالولادة، بل بالمعدن والأصل والطبع والخلق، عشت مشاكله والامه وآماله، ومثله وقيمه كما لم يعشها، ولم يعرفها أقرب الناس إليه، حتى أفراد أسرته.

تناول الريح النور طرف الحديث قائلاً:

ـ لم أر في حياتي مثل ما رأيت، وكأننا لسنا في السودان.

أضاف الشريف وهو يقول:

ـ منذ الإمام المهدي والى اليوم، لم تلتحم جماهير الأنصار بشخصٍ أيقظ فيها نفس الشحنة الدينية التي صنعت المهدية، ولم يعاشر الأنصار من يقاربه تديناً والتحاماً بهم، واقتراباً بمشاعرهم مثله، وليس في ذلك غرابة، فقد كان تدينه فطري، واستقامته غريزية، وامتزاجه بالبسطاء الطيبين رهبان الليل وفرسان النهار، المتهجّدين آن السحر، والموجودين لدى راتب الفجر، ترك هؤلاء كما رأيتم كل متاع الدنيا وملذاتها وصغائرها وراءهم، واستقبلوا رضاء الله وسهروا في سبيل مرضاته، هؤلاء هم أحب البشر إليه، أتدرون أن الإمام يعتبر مثلاً لفرسان عصور الإسلام الزاهرة، وبقية السلف الصالح الذي انقرض منذ عهود غابرة.

توقف الشريف عن الحديث للحظات، ثم أردف قائلاً:

ـ الحديث عن الإمام يطول ولا ينتهي، وعلينا الاستفادة من الوقت، إليكم ما ستفعلونه، سيبقى معي علي العبيد هنا، لأننا قد نضطرّ إلى الخروج لأيِّ سببٍ طارئ، وستذهب أنت يا الريح وتحمل هذه الرسائل إلى أخي الشريف زين العابدين وابن أخي الشريف المهدي، وأنت يا صديق، عليك الذهاب إلى سنار فوراً للبحث عن الخليفة مصطفى محمد أحمد طه، أريدك أن تقول له بأن الشريف يريدك أن تأتيه فوراً.

***

كلية فكتوريا . الإسكندرية فبراير 1940م

وطئ الحسين وصديقه الهادي المهدي بأقدامهما باحة الكلية التي تزينت أرضيتها ببلاطٍ أحمر ولونٍ آخر مائل إلى الصُفرة، خطيا متوجهان إلى تلك البوابة العالية والضخمة ذات الطراز الإنجليزي الفخيم، يمتدُ طابقاها في عرضٍ واسع ليحوي عشرات المكاتب وعشرات الفصول الدراسية، المكان بارد، والرزاز يضرب بقوة جاكيت الشريف الجلدي الأسود الذي يصل إلى ركبتيه، ويداعب أعلى قبعته العريضة المُثبتة بإحكام فوق رأسه، لا تخطئ العين الحُلة البيضاء الكاملة ورباط العنق ذا اللونين الأحمر والأزرق، يحمل حقيبة جلدية مشغولة باليد، ينظر إليه الطلاب بإعجابٍ بدا على قسماتهم وهم يلقون عليه التحية في مطلع ذلك العام الجديد، بلغ الحسين في عامه هذا ستة عشر عاماً، بان قوامه، واعتدل جسده النحيل، وصفا وجهه بلمحةٍ جذابة، زاد وقعها على الأعين لونه القمحي الهادئ وقسماته الدقيقة ونظرات عينيه الواسعتين التي تنمُّ عن ذكاءٍ مُتّقد.

جلس على طاولته في غرفة المحاضرات وهو يتذكر إصرار السيد عبدالرحمن المهدي على أبيه بضرورة ذهابه إلى الكلية، كان السيد يحبه حبًّا عظيمًا، ويشيد بذكائه وقوة حفيظته وتميّزه بين أبناء جيله، وافق أبيه بعد إلحاحٍ شديد امتزج بتدخُّل خاله أحمد خير، حتى أنّ السيد عبدالرحمن أصرّ بأن يدفع كافة التكاليف الدراسية، شأنه شأن ابنه الهادي، قام إخوته الكبار بإعداد إجراءات سفره تنفيذاً لرغبه أبيهم وكعادتهم لا يناقشوه في أمرٍ حتى وإن كان رأيهم مخالفاً لما يرى.

الحسين يسحره المكان كعادته، فمنذ أن تخطى القطار مدينة أبو حمد وفارق النيل مخترقاً الصحراء، كان أشدّ انتباهاً وتركيزاً لما يراه من تغيير في ملامح تلك الطبيعة الخلابة، ولما ترزح به هذه البلاد بمناخات وألوان عدّة من الأشجار والخضرة والصحراء، تضاعفت فتنته بالمكان

عندما وصلوا حلفا، تلك المدينة العتيقة النظيفة، ذات المباني المنتظمة والمتراصة في خطوطٍ مستقيمةٍ وبديعة، وتأتي أسوان التي لا تقلُّ جمالاً عن حلفا، فهما مدينتان يتداخل ساكنيها مع بعضهم البعض بروابط القرابة والبيئة واللسان، إلا أن الاستعمار أبى إلا أن تكون كل مدينة في دولة، فهي رسوم وخطوط وهمية ابتكرتها السياسة الحديثة للمستعمرين الذين اجتاحوا إفريقيا والشرق الأوسط، تضيق المساحات الطينية حول حوض النيل، فتزداد الخضرة ويتكاثف الناس ويمتلئ النهر بالمراكب، وتحاذي الرمال الصفراء تلك الخضرة شرقاً وغرباً، مروراً بقاهرة المعز العتيقة، ثم الإسكندرية الساحرة.

لا تبعد غرفتهم كثيراً من الكلية، أطلّ عليهم المساء والأجواء أشدّ اعتدالاً من الصباح، والحسين مسرورٌ بزيارة زملائهم لهم في الغرفة، أكثر ما أسعده وجود زميل دراسته في ود مدني مامون بحيرى، ومعه أيضاً إسحق محمد الخليفة شريف، وكمال البرير، وكمال عبدالله الفاضل المهدي، وسعد أبو العلا، والتوأم جون فالفيس وبولا فالفيس، علّق مامون بحيري قائلاً:

ـ أعتقد أن استقرار بلادنا وأمنها لا يقل شيئاً لما وصلت إليه مصر، كان من الأولى أيضاً أن يكون لنا في السودان كلية مرادفة مثل هذه.

تتدخل الهادي المهدي قائلاً:

ـ إنه الاستثمار يا مامون، الفرق بين كلية غردون وهذه أنها أُنشئت بواسطة بنك بارينجز، وهو من أكبر البنوك في بريطانيا، أضف إلى ذلك أن رئيسه هو حاكم مصر، إيفريل بارينج، وكان يرى بحكم منصبه أن الأوضاع هنا مستقرة، والإنسان بطبيعته يضع أمواله في المكان الذي يأمن فيه على نفسه، أما كلية غردون فهي حكومية ولا تخضع لمثل هذا الحذر.

شاركهم الحسين بقوله:

ـ هذا صحيح، فمستوى التعليم هنا مُتميّز ومُتَّبع في الكليات البُرِّيطانية، ولاحظت خلوها من أيِّ تعليم ديني مسيحي أو إسلامي، وهذه هي أداة الجذب لأثرياء العالم بإحضار أبنائهم إلى هنا، ولا تنسوا أن هناك

أفراداً من الأقليات اليهودية الموجودة في مصر لها أسهم مقدّرة في الكلية، وهؤلاء لا يلقون بأموالهم عبثاً في مشروعٍ غير مستمر، وعندما أنشأوها قبل ثمانية وثلاثين عاماً لم يتنبأوا بأن أوروبا والعالم ستلتهب في يومٍ ما، وهذه الإسكندرية أشدّ خطراً على نفسها، فهي عبارة عن واجهة بحرية قد تتعرض لضربات الحروب إذا استعرت عندهم.

أضاف كمال البرير:

ـ أكثر ما أمتعني هنا ميادين الكرة الطائرة والسلة وأحواض السباحة، وعشقي للتنس يحسسني بأنّي سأكون محترفاً في يوم ما.

ضحكوا جميعاً وبدأوا في تناول وجبة السمك التي أعدها لهم الهادي المهدي، حيث أضاف بولا مداعباً:

ـ أما أنا وأخي جون فيكفينا هنا ألوان السمك الشهية التي لم نتناول غيرها منذ أن وطئت أقدامنا الإسكندرية.

علت أصواتهم بالضحك، قضوا بعضاً من هذه الأمسية في سمرٍ ونقاش إلى أن تفرقوا إلى غرفهم التي لا تبعد عن بعضها البعض كثيراً.

لم تكن حدود الحسين وشغفه للمعرفة تقتصر على الكلية وحدها، ولم يتوقف اطلاعه على قاعاتها وميادينها، شرهه يفوق كل ذلك، ففي اليوم الثالث لمجيئه توجه إلى مكتبة الإسكندرية، كيف يفوّت معلماً أنشأه بطليموس الثاني في عصر الرومان، ويحتوي على الآلاف الكتب النادرة من العصر الإسلامي بالإضافة إلى المخطوطات الأصلية للآثار المسيحية واليونانية، تعددت زياراته للمرافق السياحية واعتادت أقدامه عليها، لم يترك المتحف اليوناني الروماني وقلعة قايتباي التي تلتصق بالبحر ومسجد المرسى أبو العباس والكثير من المعالم القديمة، حتى أحياء الإسكندرية وشوارعها لم تسلم من سير أقدامه بين شوارعها على الدوام، قال له الهادي في أحد الأيام وهو يداعبه:

ـ أنا في حيرة من أمري، هل أتيت للسياحة أم للدراسة، صرت تعرف الإسكندرية أكثر من أهلها، وقد أتعبتني معك.

يضحك قائلاً:

ـ وما الفائدة يا صديقي إذا لم نفعل ذلك؟ فالدراسة والكتب ممكنة،

ويمكن أن نتحصل عليها في غير هذا المكان، ولكن وجودنا هنا هو الفائدة بعينها، فمن الأولى معرفة المكان وأهله إسوة بما ندرسه، ولا توجد إسكندرية أخرى تشبهها في هذا العالم.

خياله يذهب بعيداً كعادته وهو يتذكّر جلساته مع أشقائه الكبار، الشريف عبدالرحمن والأمين وعبدالله، وحديثهم عن جدهم قطب القرآن، يذهب إلى ما قبل مائة عام بالتحديد، حيث لم تكن وسائل السفر سهلة كهذا الزمان، كثرت القطارات والسيارات والبواخر، وأضحى العالم يموج بالتداخل والحركة، ولكن جده الشريف محمد الأمين لم تقعده الوسيلة، فبعد أن أفرغ جهده في التلقي من مشايخ بلاده من العلم والمعرفة، أبت نفسه إلا أن يأتي مصر، فجاءها بالإبل، وحط رحاله في القاهرة، ومكث في الأزهر الشريف دارساً على يد مشايخه علوم البلاغة والفقه، وكان تلميذاً مقرّباً للشيخ الكبير حسن العدوي الحمزاوي الذي ينتهي نسبه إلى الزبير بن العوام، وأيضاً الشيخ عليش والشيخ الباجوري، وكان له زميلاً مقرباً له من مصر يسمى بالشيخ يحيى السلاوي وقد تفانا سويًّا في تقدير شيوخهم ومُعلميهم، حتى أن السلاوي ذكر أبياتاً في حقهم قائلاً:

يكفيك قدوتنا عليش وشيخنا * حسن الوفا العدوي خير مئاب

جبلان مرتفعان دونهما الورى * كالشمس من زحل بلا أطناب

لم يكتفِ الشريف محمد الأمين بالأزهر، هفت روحه إلى المزيد من علوم القراءة والتجويد بعد أن سمع بأن في نواحي أسوان شيخاً اسمه محمود أبو دريقة، فكانت الحصيلة سبع سنوات في الأزهر الشريف بالقاهرة، وثلاث سنوات بطنطا، تنقل فيها والتقى بصفوة العلماء بمصر، ولم يكتفِ أيضاً بهذه الحصيلة المعرفية القرآنية الضخمة، بل توجه إلى الحجاز بلد آبائه وأجداده مؤدياً مناسك الحج، ثم مكث في المدينة المنورة زمناً قرأ فيه الحديث الشريف وتمكّن منه، وعاد بعد كل هذه السنوات لتبدأ رحلته في تعليم أبناء المسلمين في السودان.

تنبّه قليلاً وهو يركن في جلسته على كرسي في شرفة غرفته، وعليه دِثاراً ثقيلاً من الصوف يقيه البرد، وأمامه أضواء شوارع الإسكندرية التي

تلمع مع بلاط الأرض، هـو الآن مُكتّفاً، وحركتـه محـدودة بحكـم سـنه كمـا قيـل لـه، فليـس مسـموح لـه مغـادرة الإسـكندرية إلا عنـد العـودة إلى ديـاره، ولكنـه يُمنِّي نفسـه بشيء مما فعلـه جـده، يسـيح في مصـر ويلثـم روائحهـا، ليـس في مصـر وحدهـا، بـل في العـالـم ككل.

***

بُرِّي. سراي الشريف.. منتصف يونيو 1969م

ما إن سمِع الخليفة مصطفى البيان الأول لجعفر نميري حتى خرج يجوب الأرض بحثاً عن الشريف حسين، يزداد قلقه في كلِّ مرّةٍ يسمع فيها صوت الراديو مطالباً بالقبض عليه مع مكافأة كبيرة لمن يدلّ على مكانه، وما بينهما من ودٍّ ومحبّة منذ صباهما الباكر جعلهما طبيقان في معارك الانتخابات التي خاضها الحزب في السنوات التي مضت، بالإضافة أنه شيخه وابن شيخه ود الهندي، طاف على ود مدني بكاملها، ومرّ على كل الذين لهم علاقة بالشريف، حتى أنه قابل من لاقوا الشريف، لكنّهم لم يبوحوا له بالأمر، فقصد موقف المواصلات متوجهاً إلى بُرِّي، وبينما العربة تنهب الأرض نهباً نحو العاصمة، تداخلته الذكريات، كانت الأيام وقتها عامرة بالحركة، وضاجّة بالتفاصيل، فالحزب عامر بأهله وجماهيره، وممتدٌّ إلى أقصى بقعة في البلاد ولو كانت صغيرة، والمطالب كثيرة لا حصر لها ولا عد، والناس يزحفون إلى منزل الشريف الحكومي زحفاً، كيف لا وهو وزير مالية السودان، وليس في قاموسه مع أهل المطالب بأن يأتوا غداً أو بعد غد، أو إرجائهم لانتظار الأيام والأسابيع، هو من الذين يقضون الحوائج فوراً دون أدنى تفكير، يكتب لهم حتى تنفذ الأوراق من بين يديه فيكتب في صناديق سجائره التوصيات والرسائل للطالبين، يقابل الوفود تلو الوفود بملابس الصباح دون أن يريح جانبه أو تهدأ أنفاسه ولو لدقيقة، أكله قليل وشرابه قليل، ويدخِّن كثيراً، حول مقلتيه هالات التّعب السوداء لا تُبارح مكانها، وربطة عنقه لم يكتمل خنقها يوماً حول ياقة قميصه، دائم السفر والتجوال، ويقضي أغلب لياليه في مكتبه بالوزارة حتى الساعات الأولى من الصباح، لا ينقضي أمراً في الدولة إلا به، ولا تحلّ عقدة إلا بمشورته، والصراعات حوله لا تفتر.

قال الخليفة مصطفى يوماً للأمين جراد وكانا ملازمين للشريف في منزله الحكومي:

ـ ما رأيك في الشريف، هل نتركه هكذا ليمرض ويموت؟.

أجاب الأمين وهو في حيرةٍ أطبقت عليه:

ـ وماذا نفعل،! أنت ترى بنفسك، حتى غرفته الخاصة ينام فيها الزائرون، يأخذ وسادته وينام مع الآخرين على النجيل، فيتفاجؤون به وهو نائم وسطهم.

أجاب الخليفة مصطفى وقد كان هناك شيء يدور في رأسه:

ـ أرى أن نقوم بإخلاءِ المنزل من كافة الزائرين، على أن يعودوا ببرنامج للمقابلات نضعه في الزمن المناسب له، ونخصِّص له ساعات للراحة أثناء اليوم، ما رأيك؟.

أطرق الأمين وحديث الخليفة يجول في رأسه حتى أجابه:

ـ نعم، يمكننا فعل ذلك.

نفذا فوراً ما اتفقا عليه، وأتى الشريف عصراً ليجد أن المنزل خالياً تماماً من الناس، تساءل، فأخبراه بالأمر، صمت قليلاً وقال:

ـ بما أنكما فعلتما ذلك، فسألتزم بالجدول الذي وضعتماه لي.

فوّت سائقه وأمره بأن لا يعود إلا في الصباح، وأخذ قسطاً مقدّراً من الاستحمام ولبس جلبابه السكروتة الأصفر الذي يُحبّه، ثم أغلق عليه غرفته وغاص في نومٍ عميق، جاءه يحيى الفضلي زائراً على عجلٍ ولأمرٍ هام، اعتذر له وغادر.

أتي بعده ناظر البطاحين محمد صديق طلحة فاعتذر له أيضاً، وحضر بعد مغيب الشمس وفد ثقيل من مدينة الجنينة يقوده الزعيم شُمُّو فلم يستطيعا الاعتذار، جلس أعضاء الوفد في انتظار الشريف، أحسا بأن هنالك خطأ ما فيما أقدما عليه، ملّ الوفد الانتظار وذهبوا إلى حال سبيلهم. استيقظ الشريف بعد نومه عند العاشرة مساء، صلى وتناول وجبةً خفيفة أعدّها لنفسه وأخذ كوباً من القهوة وأشعل سيجارته وجلس معهم على الكراسي التي تتوسط حديقة المنزل، وقبل أن يبادر بشيء، داهمه الخليفة مصطفى بقوله:

ـ أظننا أخطأنا، فقد أتى يحيى الفضلي والناظر طلحة وشمو، وأحسسنا بأنهم مهمومون جدًّا وقلقين بما أتوا به إليك، أرى أنه لا فائدة في ما فعلناه.

ضحك الشريف وهو يقول لهم:

ـ كنت أعلم أنكم ستغيرون رأيكم، هل تعلموا أن يحيى الفضلي أتى ليأخذني إلى أحد سفراء البعثات الدبلوماسية لمناقشة عاجلة في أمرٍ يتعلّق بأمن المنطقة بأكملها، ويقيني بأنه لم يوقظني لتأكده بأنني لا أنام إلا إذا كنت مريضاً، والناظر لديه مناسبة صلح كبيرة في البطانة بين أسرتين اقتتلتا وجاء ليطلعني على آخر المستجدات لأنه سيغادر هذا المساء وسنلحق به بعد غدٍ، أما شُمُّو فقد أتى من المطار إلى هنا، وذبح لمقدمي إليهم قبل شهور في ديارهم بمدينة الجنينة عشرات الإبل حتى سال دمها جداولاً، فكيف يستقيم الأمر مع رجال مثل هؤلاء بحجة أن الشريف نائم والشريف في الحمام والشريف يخلخل شعره؟

أفرغ بقيه كوبه بين شفتيه وألحقها بسيجارة ليأخذ نفساً عميقاً وهو يقول:

ـ هذا قدري يا مصطفى، وهذا صار حالي الذي تعودتُ عليه، لا أحس بأنني راضٍ عن نفسي إلا إذا ساعدت الناس، عاهدت نفسي منذ أن سمعت أبي يقول للأزهري ورفاقه قبل ثلاثين عاماً بأنه وأبناؤه وما يملك ملك للشعب السوداني، وأنا منذ ساعتها لا أُفرِّق كما ترون بين اتحادي أو حزب أمّة أو غيرهم من الأحزاب والقبائل، الكل عندي سواء.

انقطع سيل ذكريات الخليفة مصطفى عند مشارف العاصمة ليدخل في زمان آخر، وقتها قرر الحزب في سنار بأن يترشّح في دائرة سنار الشرقية بعد منافسة محتدمة بين مرشحين يمتلكون أموالا طائلة ومراكز قوة عديدة، وهو لا يملك إلا قرآنه الذي يحفظه ومن يحبونه، مع إسهاماته الكبيرة في خدمات المنطقة ككل، بدأ في تهيئة حملته بزياراتٍ متواصلة على قرى الدائرة المُتسعة على حمار أبيض يعلو قليلاً على بقية الحمير، فمات الحمار، وكان الاجتماع كبيراً بحضور الأزهري ولفيف من مرشحي الدوائر، فكانت تلك الدعابة بينه والأزهري عندما قال مصطفى:

ـ أريد سيارات لأن حماري الذي أدشن به حملتي الانتخابية قد مات.

ضحك الأزهري وقال:

ـ لا تقل مات الحمار، بل قل نفق الحمار.

وضحك الجميع، كانت المعركة محتدمة بين الأحزاب في تلك الدائرة، وكان الشريف دائم الحضور أثناء التهيئة والتعبئة، يأتي معه ليلاً إلى بيته في قرية

ملولحة، ويطلب ما يُفرش على الأرض، ويرقد على جنبه مُتكئاً علي أسفل عضده وراحته ما بين خده ورأسه، يأكل عصيدة ساخنة بإدامٍ من اللحم المتفوف، وحافظة مليئة بالقهوة وصناديق سجائر جوارها، تشرق عليهم الشمس وهم في جولةٍ أخرى باتجاه مختلف من الدائرة، وتكلّل جهده بفوزه بالدائرة ودخوله البرلمان.

انقطعت ذكرياته مرةً أخرى على مشارِف بُرّي اللاماب، تجاوز بوابة السرايا الغربية، المكان يلفّه السكون، والناس بالداخل كأنهم يحملون جبالاً على ظهورهم، الأجواء كئيبة والحزن يطفو على الجميع، لا يعرفون إلى الآن أين مكان الحسين، ويخافون ذلك اليوم الأسود الذي سيعلن فيه النميري بالقبض عليه، دخل مصطفى فوجد أغلب أشقاء الحسين حضوراً في بربةِ الضيافة بالسرايا الداخلية، وهي مكان خليفة السجادة القائم، الشريف إبراهيم الهندي الذي تولّى الخلافة قبل خمسة سنوات بعد وفاة شقيقه الشريف عبدالرحمن الهندي الذي توفي في لندن ودُفِن ملاصقاً لأبيه داخل القُبّة.

ألقى عليهم التحية وصافحهم وبينهم أحمد خير المحامي، كان وجودهم الدائم هنا طمعاً في أن يأتي رسولاً إليهم ويطمئنهم على الحسين، ولكن انعكس الأمر وبعُد الأمل عندما يسألهم كلّ قادم عن الحسين، فصار الحال سواء، وضعوا صينية الغداء وبدأوا في تناوله، وفجأةً وقف أحمد خير ولقمته في يده وعيناه قد غرقتا في الدموع، وقال بصوتٍ حمل كل حزن الدنيا بين حروفه:

ـ إذا كانت أختي التاية على قيد الحياة، هل كانت ستأكل مثلي والحسين غائب، ولا يعرف إلى الآن مصيره أحد؟

كان موقفاً عصيباً من رجلٍ معروفٌ عنه القوة والشدّة، وهذا يدل على حبه الشديد لابن أخته وخوفه عليه من حملة مايو المسعورة التي قد ترديه ميتاً عند أية مقاومة، أو ترمي به في غياهب السجون كما رمت بالأزهري الذي رفع علم الاستقلال وكان زعيماً مُستحقًّا للبلاد، نفض الخليفة مصطفى يده من الأكل، واستأذن الأشراف بالمغادرة، ومن هنا، تجدّدت رحلة البحث مرةً أخرى.

***

بُرِّي. سراي الشريف.. أواخر ديسمبر 1940م

دخل الحسين حثيثاً على والده آتياً من مصر وهو في كامل هيئته الإفرنجية، خلع حذائه الإنجليزي اللامع علي عتبات المخلوان الذي يؤدي إلى ساحة صغيرة تعقبها بِربة الضيافة، يجلس الشريف يوسف فوق عنقريب كساه سعف الحنقوق المبروم دون لحاف أو وسادة، وهو ذلك الرجل المهيب، طويلاً، وسيماً، وجهه كالسيف في حدَّته ووضاءته، وعينان لا تديم النظر فيهما إلا إذا أزاحهما عنك، صوته جهور، إذا همس يُسمع، وإذا تحدث يرتدّ صوته من الحيطان، وإذا صاح ترتعد له حتى الجياد في اسطبلاتها، أفنى حياته في خدمة المسلمين والبسطاء، وأفرغ ما ألهمه الله به من علم في كتبٍ عكف أربعين عاماً يكتبها، عظّم الله بجلاله وأسمائه، ومدح المصطفى وخطّ بأحرفٍ من نور صفاته وشمائله الكمالية، وأورد مآثر صحابته الأنقياء الأتقياء، وأثنى على آل بيته الكرام، ووصف مولده صلى الله عليه وسلم وفرحة الأكوان بمقدمه، ووضع أذكاراً في رواتبٍ تُتلى تحصيناً وتسبيحاً، وشعراً مُقفّى بحروفٍ أبجدية سطع من بينها سيرة المصطفى نوراً براقاً، سرد حجّته وغزواته ونصائحه وعلومه اللدنية، ونصح المسلمين في ستةٍ وخمسين فصلاً عن ما يفعلونه في دينهم ودنياهم، ولم يكتفِ بذلك، بل وضع أنساب القبائل السودانية محقّقة ومُنقحة على مخطوطةٍ ضخمة، وأردفها بأحداث التاريخ السوداني في مخطوطةٍ لا تقلُّ روعة من الأنساب، وبان لطفه وظرفه عندما كتب عن الشعر والشعراء والغناء والدوبيت وقصص إلهامهم وآلامهم، ووقّع بهذا على آخر معينٍ معرفي لأهل طريقته النبوية التي اكتمل بناؤها بنشر ركائز شرع الله وسنةً نبيّه بين مريديه في كل بقعةٍ سودانية، أمداحاً وموالداً وأوراداً لا يفتر لاهجوها وذاكروها في الليالي والأسحار.

يبتسم وهو يرى أمامه الحسين بعد طول فراق، وحزنٌ يطفوا على محياه لا يراه إلا من له دراية بأحوال أهل الله، إنه الحزن والرضاء بقضاءِ

الله على فراقِ بِكرهِ الشريف الأمين، احتضن الحسين وقبّله في خديه، بعدها تغير وجهه إلى نحوٍ مخيف، قال موجهاً سبابته في وجهه وهو يقول:

ـ إياك يا حسين أن تغترّ بنفسك وتنكفئ بعقلك إلى الدنيا التي نعلم إغواءها وتيهها وأنت بداخل هذه الملابس، فهي فناء بكل ما فيها ومن فيها، وأعلم أن أجدادك جاءوا إلى السودان وليس معهم إلا قرآنهم وعلوم دينهم وملابسهم التي على أجسادهم النحيلة، كلٌّ لديه راحلة واحدة، مشوا على شواطئ الأنهار وخيموا في الصحارى والجبال تاركين أهلهم وراءهم في الحجاز، حتى دُفن جدك الهذيل على شاطئ النيل قتيلاً بفعلِ الحسد وقوة السلطان وهو ينشر علوم الدين، وآخرهم جدّك أبو الحيران الذي تعلمه.

لم تنفكّ كلمات أبيه من أذنيه وهو يطوف مُحيياً بين بيوت أمهاته وإخوانه، كان عناقه طويلاً بينه وزين العابدين، شقيقه الأصغر، أتى به أحد أخواله من سنجة التي ذهب إليها ليدرس الأولية مع جده محمد خير، وكان يحبّه جدًّا، أما والدته التاية بت خير وشقيقته آمنه لم تسعهما أرض ولا سماء بمقدمه، جلس يُحدِّث أخاه متسائلاً:

ـ هل أعجبتك سنجة؟

أجاب والذكاء ينبع من كلماته:

ـ نعم، ولكن أمطارها كثيرة والناس فيها لا يفترون من الزراعة.

تساءل الحسين:

ـ وهل ضايقتك الأمطار أم الزراعة؟.

أجابه يقول:

ـ هي جميلة للمتفرِّجين دون عمل، ومعاناة للزارعين.

ضحك الحسين وأردف قائلاً:

ـ وكيف المدرسة؟.

أضاف قائلاً والبراءة تتدفق من عينيه:

ـ ذهبت في اليوم الأول مع خالي علي، وأحضر لي الأستاذ ورقة، وقال لي أكتُب.

ـ وماذا فعلت؟.

أجاب في مرح:

ـ لم يقل لي أكتب كذا، كتبت له (ماذا أكتب؟)، وبعد أن قرأ ما كتبته أخذ يضحك بشدة ثمّ قال لخالي (ابن أختك هذا ذكي، وقد قبلناه في المدرسة دون قيد أو شرط).

ضحك الجميع، قال له الحسين بعد أن مسح على رأسه:

ـ أحسنت صنعاً، عليك الاجتهاد أكثر.

قاطعه زين العابدين في شغف:

ـ هيا أخبرني، كيف هي مصر؟.

أجابه مبتسماً:

ـ سأتفرّغ لك غداً.. عليّ الآن الذهاب لقضاء واجب التعزية لأهالي من لم أحضر وفاتهم، وسأعود مُتأخراً، ولديّ مهمة مساء الغد كلفني بها أبي يجب الإعداد لها من الصباح الباكر.

***

الشتاء يضرب بمزاميره ذلك البهو الفخيم، لم يبق كائن يتنفّس إلا وهرب ليلتحف ويتغطى، سرايا صفراء، تطل على النيل الأزرق وحولها أشجار أضافت إلى سواد الليل سواداً موحشاً، شاب نحيل أسمر، يجلس على كرسي واضعاً رجله فوق الأخرى، على رأسه قطعة قماش ثقيلة، لم يبد من وجهه إلا ذلك الأنف النحيل وأطراف شفتيه، أمامه على المنضدة آنية كثيرة، دقيقة الصنع وبديعة المنظر، هذا هو الفنجان الخامس من القهوة، كاد أن يكون المكان مظلماً لولا مصباح خجول أعلى قبة تلك السرايا، أرسل خيوط ضوء أحمر تَجَرجَر على أرض البهو مُخلِّفاً ظلًّا ثقيلًا كلما اصطدم بشيء في طريقه، فصار المكان كأنه لوحة صاغ ألوانها رسّام مشرد ويائس في أزقةٍ باريس الحجرية الضيقة.

السرايا لا تتوافق مع عدد ساكنيها، ذلك الشاب، وبرفقته فتاة حبشية اسمها مصباح ومعها رجل ضخم، يقومان على خدمته، ليس هنالك من يدخل أو يخرج من هذا القصر، ولا يعلم أحد في المدينة أن فيه إنساناً إلا الحكومة الإنجليزية والقليل.

أخذ الشاب يتذكر يوم أن قاد جيشه لحرب الطليان على حدود بلاده مع الصومال، حينها أدرك بأنّ عرشه في خطر، فتكت أسلحة الطليان المتطورة بجيشه ودخلت لتحتل الحبشة أعلاها وأسفلها، للحظة فكّر الامبراطور هيلاسلاسي بتجميع صفوف جيشه ليعاود كرّته مرة أخرى، لا، لن يستطيع ذلك الآن، عليه الخروج من الحبشة ويفكر فيما سيفعله لاحقاً، فلا قِبل له الآن بمواجهة أسلحة الفرنجة مع شره الاستعمار المستعر وقتها، دخل الأراضي حتى أتى منتصفها في العاصمة الخرطوم، واختارت له الإنجليز هذا المكان الذي يملكه الشريف بعد استئذانه، ومنذ ذلك الوقت لم يخرج من السرايا الصفراء.

تنهّد الامبراطور وهو يسبح في موج ذكرياته، أطرق برأسه إلى الخلف قليلاً بعد رشفة قهوة مرّة المذاق وشديدة التركيز، تذكّر يوم أن جاءوا به ليلاً وجلس مع شيخاً وقوراً كثير الحاشية في داره العامرة والعالية في بُرِّي

اللاماب بمنحنى النيل، لا تفارق مسبحته السوداء يمينه، وتلك الهيبة التي تخفض لها أنظار الرجال.

أمر أحد أتباعه بأن يذهب به إلى السرايا الصفراء التي تقع وسط حقول الشريف ليختبئ فيها، كانت المنطقة تسمى (بابور مويه)، نسبة الي الماكينة التي ترفع المياه وتسقي الزرع، فقد تكون تلك أول الوابورات في هذا الجانب من النيل الأزرق، لم يدخل على هيلاسلاسي غير مُرافِقَيهِ أي شخص، عدا واحد، لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، هو الشريف حسين الهندي، أوكل له والده مهمة خدمة الامبراطور وقضاء أموره قبل أن يعود مرةً أخرى إلى الإسكندرية، ينظر إليه هيلاسلاسي عندما يأتيه بإعجاب، فهو خفيف الظل وأنيق وذكي، عيناه متقدتان وروحه متطلعة، واسع الحيلة والثقافة، يسأل ليعرف ويجيب ليسأل، لغته الإنجليزية لا بأس بها، سأله في مرةٍ:

ـ كيف هي الحبشة؟

أجاب هيلاسلاسي بابتسامته التي لم تُغيِّر جمود ملامحه الدقيقة:

ـ أجمل ما تقع عليه عيناك.

ـ وأديس أبابا؟

رفع الامبراطور يديه وكأنه يؤدي دورًا تمثيليًّا أمام جمع من الناس:

ـ كالعروس عندما تفتنك بالنظر إلى أطراف ما تلبسه عند قدميها، ثمّ تبهرك ببهجتها وأنت تمرر ناظريك إلى أعلى، وتأتي إلى تضاريس جسدها الفتّان المكسوّ بالمباهج والخضرة، ثم جيدها، ثم وجهها الذي لا مثيل له إلا الوردة المُتفتِّحة، تلك الوردة هي أديس أبابا أيها الشريف الصغير.

أُعجب الحسين من وصف ذلك المناضل النحيل لبلاده، صمت قليلاً يستجمع جملاً تليق بأسماع هذا الامبراطور الجسور:

ـ قرأت عن حربك مع الطليان في الحدود الصومالية من الصحف المصرية، لاحظت أن الإنجليز متحاملين على الطليان في اجتياحهم الحبشة، هنا أدركت أنهم يمنُّون أنفسهم بأن يحلّوا محلهم في ظلِّ ذلك التنافس المحموم بينهما على إفريقيا ومواقعها الجغرافية الحسّاسة.

اعتدل هيلاسلاسي في جلسته مواجهاً له وقد أعجب أيما إعجاب

بحديثه هذا، ورد عليه قائلاً بعد أن رشف شيئاً من قهوته التي لا يملُّ شرابها:

ـ أحسنت أيها الشريف الصغير، وبسببِ ذلك فتكت أسلحة الطليان المتطورة بمعظمِ جيشي، ودخلت لتحتل الحبشة أعلاها وأسفلها، للحظة فكّرت بتجميع صفوفه لأعاود الكرّة مرة، ولكن عدّلت عن رأيي، فلن أستطيع ذلك الآن، كان عليَّ الخروج والتفكير فيما سأفعله لاحقاً، فلا قِبل لنا الآن بمواجهة أسلحتهم الجديدة، مع إصرارهم بأن يكونوا خنجراً في خاصرة الإنجليز كما يقول العرب.

يأتي الحسين في كل يوم بعربة والده الشوفرليت حاملاً فيها طعام الامبراطور وكل ما يلزمه، يأخذ معه قسطاً من حديثٍ ويذهب، إعتاد على حضوره وأصبح يحسب له الساعات، وتعلّقت به خادمة هيلاسلاسي التي تُسمّى مصباح أيما تعلُّق، وفي أحد الأمسيات قال له الحسين مودِّعاً:

ـ سأودعك اليوم، غداً صباحاً سأعود إلى مصر لمواصلة الدراسة.

صمت هيلاسلاسي وقال في حزنٍ على فراق ذلك الفتى النجيب:

ـ قد تكون مصر إحدى نقاط مروري، لأنني سأتوجه إلى لندن قريباً، قد لا نلتقي في مُقبل الأيام، ولكننا حتماً سنلتقي، فأنا أرى فيك مستقبلاً سيعلو معه صدى اسمك عالياً.

***

سوق مدينة سنار.. العشرون من يونيو 1969م

وصل الخليفة مصطفى سوق سنار عند صلاة الظهر، بعد أيام قضاها في تجوال وبحث عسى أن يجد من يدلّه على مكان الحسين، تحسّس من يعرفه في السوق من الاتحاديين وأهل الطريق، انتهى إلى رمال مفروشة هيئت للصلاة، وامرأة تعد الشاي بالقرب من المكان، طلب منها كوباً حتى يستعدّ لجولة أخرى داخل سنار أو خارجها، لا يهم، المهم أن يجد خيطاً يوصله إلى الحسين، أحس بأصابعٍ قد أحاطت رأسه من الخلف ليضعها صاحبها أمام عينيه ليسدُّها مداعباً، وتجمّد الخليفة مبتسماً وهو يقول:

ـ من؟

صمت الشخص وواصل الخليفة ضاحكاً بعد أن تحسّس يد الشخص المجهول وهو يقول:

ـ لا أعرف من أنت بالضبط، ولكنِّي متأكد بأنك من الأشراف.

ضحك الشخص وترك عينيه ليقف أمامه، فإذا هو الشريف صدِّيق الشريف علي ابن أخ الشريف حسين، لوهلة أستبشر الخليفة مصطفى بصدِّيق، على الرغم من أنه يسكن قرية الشريف بجبوج وفي المكان الذي دُفِن فيه أبوه الشريف علي وعمّ أبيه الشريف علي، شهيد معركة سنار، ولا يفصلها من مدينة سنار إلا النيل وعدد من الكليومترات بخزانِ سنار، ووجوده في سنار شيئًا عاديًا، فهي سوقهم ومكان علاجهم ومركز إدارة قرى المنطقة، إلا أن الخليفة أحس بشيء تضمره الصدفة ويسوقه القدر في هذا اللقاء، ابتدر صديق الشريف علي الحديث هامساً:

ـ أريدك في أمرٍ مهم، هيا لنبتعد من هنا.

توجها نحو الأشجار التي تلتفّ ببحيرة الخزان ووقفا تحت شجرة سنط ضخمة، ووضع صدِّيق يده على كتِف الخليفة وهو يقول له:

ـ بحثت عنك كثيراً، وكان من الصعب أن أترك لك وصية.

تهللت أسارير الخليفة وأردف صديق مواصلاً حديثه:

ـ أرسلني لك الشريف حسين، يقول لك، (إذا كان رأسك مبلولاً، فعليك أن تحلقه معي).

جلس الخليفة على الأرض بعد أن اغرورقت عيناه بالدموع، ولا زالت يد صديق على كتفه وصار يربت عليه برفق حتى وقف مرةً أخرى، سأله:

ـ أين هو الآن؟.

ـ في الجزيرة أبا، وهو بخير، فقد فارقته قبل أيام.

ـ متى سنذهب إليه؟

أجابه وهو يشير إلى موقف مواصلات مدينة ربك:

ـ سنذهب الآن.

توجها فوراً إلى موقف السيارات فوجدوه خالياً تماماً، فجميعها غادرت بالذاهبين إلى (كوستي وَرَبَكْ)، ذهبا هنا وهناك يسألان عن باص أو عربة أو حتى شاحنة، عثرا على مُساعد سائق، وقال لهم:

ـ سنتحرك إلى ربك بعد قليل، ولكن شاحنتنا تحمل طوباً أحمر، وهو مضر لعيونكم أثناء الطريق.

لم يسمعا نهاية جملته، فالأمر المهم هو أن العربة ذاهبة إلى ربك، وهذا يكفي، ركبا والشمس قد مالت نحو المغيب، تحركت الشاحنة غرباً وخرجت جيوش حصى الطوب الصغيرة لتضرب وجههما وعنقهما بقوة، فما كان عليهما إلا أن لفّا عمائهما ولم يتركا حتى عيونهما، اكتفيا بصوت محرك الشاحنة وهو يزأر وبعض أصوات البهائم في الطريق هنا وهناك، وكلٌّ تاه في تساؤله، ماذا تُخبِّئ لهم الأيام القادمة؟ وكيف سينجو الشريف حسين من حملة نميري المسعورة التي تلهث للقبض عليه؟.

***

لم ينس الخليفة مصطفى مواقف الشريف حسين التي وقف فيها بجانبه، والتي لا تُحصى ولا تُعد في تأهيل منطقتهم البسيطة ومدّها بالمدارس والآبار الارتوازية والمراكز الصحية، وأشدها عندما تشاجر أبناء عمومته مع أفراد من قرية العواية التي تجاور قريته ملولحة بسببِ نزاعٍ في أرضٍ مُحاذية، قُتِل فيها أفراد من الجانبين، على الرغم من أواصر الإخاء والتواصل الحميم الذي جمع بين القريتين منذ أن وضعت أوّل شِعبة لإنشاء القرية عام ألف وتسعمائة، وكان بينهم التزاوج والنسب والأولاد، ولكنها الفتنة التي عمل البعض على تذكيتها بتصنيف ما حدث إلى قبيلتي وقبيلتك، هؤلاء من الكواهلة وهؤلاء من رفاعة، ولكن الخليفة لم يعنه ذلك التصنيف في شيء، فالكل عنده سواء، لا فرق عنده بين رجل ملولحة ورجل العواية، وهو الحكيم في منطقته ونائب الدائرة المُنتخب إلى البرلمان، وعليه الاجتهاد حتى يعود الوئام إلى ما كان عليه بين الناس.

اجتمعت قيادات المنطقة وقرروا ترحيل القرية إلى منطقة أبو حجار على طريق الدمازين ليكونوا بالقرب من حدود نظارتهم هناك، ولكن أبت نفس الخليفة بتنفيذ هذا الإجماع، ويتركوا أرضهم ووطنهم الذي باركه لهم الشريف يوسف الهندي، وأشار فيه إلى عين مائهم التي يشربون منها إلى الآن، وعندما علم الشريف حسين بالأمر رفض ذلك أيضاً لأنها ستكون سابقة خطيرة النتائج ووخيمة العواقب، وستفقد البلاد سمتها في تداخل القبائل وانصهارها لتكوين مجتمعٍ مُعافى ونموذجي، وسيتحول الأمر بتكرار ذلك إلى مناطقٍ تحكمها القبلية المقيتة، والتي ستؤخِّر عملية التقدُّم القومي الذي بدأ منذ الاستقلال، فكان اللجوء إلى القانون خير نموذج للفصل بين الناس وإنهاء خصومة قد تدوم لسنواتٍ طويلة، وبعد عام من ذلك تحققت سلطة القانون، ورضي الناس بذلك، وجرت المياه عذبة بين القريتين في تناغمٍ وتواصل أخوي عززه المزيد من التزاوج والتواصل بينهم.

وقفت الشاحنة عند طلوع القمر في أول الليل أمام راكوبة بداخلها من يصنع الشاي والقهوة للعابرين، جمعا صلاة المغرب والعشاء وجلسا يشرفان الشاي، وبينما كان الكمساري يقوم بتبديل أحد إطارات الشاحنة، تساءل

صديق الشريف علي وهو كثير المرح:

ـ أحكي لي يا خليفة يوم أن قمتما أنت والشريف حسين برفع الهلال فوق ضريح الشريف يوسف.

ابتسم الخليفة قائلاً:

ـ يا الله، كان يوماً مشهوداً، اهتم شيخنا الشريف عبدالرحمن رحمه الله ببناء المسجد والضريح، وكان الشريف حسين مشرفاً على الضريح ذي الهندسة البديعة، بُني الجزء الأسفل من الضريح مربعاً كهندسة بيت الله الحرام، وفوقه تاج سداسي الشكل به قبابٌ صغيرة في زواياها لو تذكر، ويرمز ذلك إلى المسجد الأقصى، أما القبة التي ارتفعت تعانق السماء فهي شبيهة بقبّة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فكان الضريح الذي يعتبر الأطول والأضخم في السودان.

أضاف صديق مُداعباً كعادته:

ـ كان الشريف حسين نحيفاً عندما صعد أعلى القبة، ولكن كيف استطعت التسلُّق وأنت بهذا الحجم؟

ضحك الخليفة مصطفى حتى وضع كفّه على فمه، وواصل حديثه قائلاً:

ـ أتينا بالهلال من المنطقة الصناعية بحري على عربة لوري، حتى أن طرفه خرج من آخر اللوري من شِدّة طوله، أنزلوه على الأرض ليرفعه العمال أعلى القبة، أصرّ الشريف حسين أن يرفعه معهم فقلت له سأكون معك، فقال لي بشرط أن تقرأ سورة المزمّل حتى نضعه أعلى الضريح، وفعلاً صعدنا بالسلم الحديدي ورفعناه بالحبال فوق القاعدة العلوية، وبشبكة من الحبال.

صعدت أنا والشريف ممسكين بالهلال وأنا أقرأ سورة المزمل بصوتٍ عال، وما إن أكملت تلاوتها للمرّةِ الثالثة حتى كان الهلال منتصباً أعلى الضريح.

دخلا الجزيرة أبا في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي بعد أن وجدا صعوبة في اختراق الجاسر وهما راجلين، وتم إدخالهما في مضيفة تمهيداً لمقابلة الشريف في الصباح الباكر.

***

بُرِّي . سراي الشريف.. فجر الخامس والعشرين من أبريل 1942م

اجتمع الناس من كلِّ حدب وصوب، سار الناس إلى بُرِّي بالجمال والخيول والسيارات، أخرجت السيوف من أغمادها وضُرِب النحاس وعلا صوته ليشق عنان السماء، امتلأت سرايا وساحات المسيد بخلق الله فانعدمت مواطئ الأقدام لقادمين جُدد، البكاء والصريخ تساوى عند الرجال قبل النساء اللائي تكشّحن بالتراب والرماد، والحزن تجسّد بخيلائه ليُخيِّم في كل ركن من أركان البراري، اليوم رحل الشريف يوسف الهندي عن عمرٍ ناهز اثنين وسبعين عاماً، تبارى المعزون في وصفه، أبو درعين، والشايب، وود الهندي، وأبو الأمين، وسيد الطريقة وعشرات الالفاظ التي استحقتها سيرته الطويلة العطرة والمليئة بالعطاءِ والتفاني والإخلاص للدين والمسلمين.

يبكي الناس عن ما يعرفونه عنه وما لا يعرفونه كثير، انطوت اليوم صفحة مشرقة من صفحات آل البيت المحمدي، نفسٌ نبيلة مُتشبِّعة بالإخلاص والصلاح، ومُتحلية بأكمل صفات الرجولة، لم يمنعه النسب من التواضع، ولم يمنعه العلم من التجرّد، قوي الحجة، لا يخشى في قول الحق إلا الله، مُهاب وودود، شديدٌ وشفوق، ذو نفس متواضعة وكريمة، عطوفة وحكيمة، تبارى الناس في الحزن عليه، وتسابقوا في وصف سجاياه، فكان موضع دفنه في نفس المكان الذي توضع فيه قدوح طعامه في كل يوم، دخل عليه السيد عبدالرحمن المهدي وقبّل جبينه وأجهش بالبكاء، وكان في مقدمة من يحملون النعش وجواره السيد على الميرغني، ومعهم وجهاء البلاد ونفر من صالحيها وشيوخها وعمدها ونظارها وحتى الإنجليز، وأمام مضيفة أبو قرينات التي بناها من الطين قبل بناء سراياه، تزاحم الناس حول مقبرته ووطئ بعضهم بعضاً، ولا عجب في كثرة أتباعه ومريديه، فهم أبناء مريدي آبائه وأحفاد مريدي

أجداده في سلسلةٍ تمتدّ إلى الهندي الأول، اصطف أبناؤه داخل المضيفة أربعين يوماً يستقبلون الوفود، ولم يغِب السيِّدان طوال هذه الأيام. كل المؤشرات التي أدركها الحسين بعد أن جاء من فكتوريا كانت تشير بقربِ رحيل أبيه، زارته الحمى واشتدت بوطأتها عليه لشهور مُتتابعة، وامتنع عن الأكل وخفّ وزنه بشكل كبير، وأتى بقريبه القاضي أبوشامة فقسّم ما يملكه من أبنائه وبناته وزوجاته، وأعد ابنه الشريف عبدالرحمن خليفةً له، بل وعيَّن من يخلفوه من أبنائه بعده، الشريف إبراهيم والشريف الصديق، وأوصى بأن يكون المسيد وما فيه ملكاً للأسرة وأهل الطريق من المريدين ويشرف عليهم الخليفة القائم.

وفي خضمّ كل ذلك أصرّ الخريجون في أربعين رحيله بأن يقيموا ليلةً تأبينية في نادي الخريجين وفاءً لإكرامه لهم. تجمهر الناس وضاقت بهم ساحة النادي واصطف كل أقطاب الحركة الوطنية، لم يحضر إليهم من الأسرة إلا الشريف حسين، فالكل مشغول بالوفود التي لا زالت تترى على بُرّي.

جلس الحسين بينما كان الشعراء يتبارون بأبياتهم التي صاغوها حبًّا وتعدادًا لمآثر الفقد العظيم، صعد عبدالله البنا وأبلى حسناً وأعقبه الشيخ مجذوب وابنه محمد المهدي المجذوب ثمّ عبدالله عبدالرحمن، وتساءل يحيى الفضلي وهو يهمس في أذن مقدم البرنامج:

ـ هل سيتحدث ابن الشريف نيابةً عن الأسرة؟

أجابه:

ـ نعم، فالزعيم الأزهري طلب مني أن أقدمه؟

وبعد أن أبان الخطباء وتحدث المتحدثون، أعلن مقدم البرنامج عن كلمة الأسرة التي سيلقيها على مسامع الحضور ابن الفقيد الشريف حسين الهندي، توجه صوب المسرح وصعد درجاته بثقةٍ متناهية، ووقف أمام المايكرفون وقفة المُتمرِّس، وبدأ الحديث بحمد الله والثناء على رسوله الكريم، وأعقبها بكلمة بليغة وقوية اهتزت لها جوانب المكان، وماج الناس وهاجوا بتصفيقٍ حار لم يتوقف حتى أنهى حديثه، فكان ذلك حدثاً فريداً من شابٍ لم يصل عمره العشرين بعد.

أصر الخريجون أن يقيموا نسخة من هذا التأبين غداً، ولكن في سراي الشريف وبين أسرته ومريديه، وعاد الشريف ليبدأ الإعداد لذلك، وفي اليوم التالي، نُصِبت الخيام وأُعدّت الضيافة على أكمل وجه، وبدأ شعراء وخُطباء الأمس بمُعاودة الكرّة بحماسٍ وقوة، والحسين وسط الحشود يعمل بيديه لإكرامهم وضيافتهم، حتى ذيع اسمه، غسل يديه واعتلى المسرح وبدأ مخاطباً الحضور الضخم:

ـ "الحمد لله الذي ابتدأ باسم الوهيته المحامد القرآنية، وجعل كل شيء ذي بال لا يبتدأ فيه باسمه فهو أجزم أو أبتر كما رواه الأعيان".

وبدأ في خطبته التي اختلطت بها المشاعر دموعاً باتساع الفقد، وفرحاً بهذا الشاب الذي سيكون له شأن عظيم، وتأكدت قيادات الحركة الوطنية بأن هنالك مكاناً شاغراً في المستقبل لن يملأه إلا مثل الحسين.

ولم يخفِ السيد عبدالرحمن المهدي إعجابه بالحسين منذ حياة أبيه، حتى أنه أخذه إلى داره في أم درمان وقضى فيها زمناً مع صديقه الهادي، وكان يعامله كأحد أبنائه، ويحسبه الجميع أحد أفراد الأسرة، له غرفته الخاصة ووضعه المُتميّز، حتى أنهم خصصوا له من يخدمه ويقضي حوائجه، ووضِعت سيارة تحت إمرته يذهب بها حيث يريد، وتمنّى السيد عبدالرحمن لو يتزوج إحدى كريماته، ولكن أمور أسرية تقاطعت وحالت دون زواجه، فذهب بعدها أخواله أبناء خير إلى أبيه، فلم يرق لهم أن يسكن في مكانٍ غير منزله، فقال خاله يوسف خير بعد أن أشار له أخوه علي خير بالحديث:

ـ نعلم سيدي الشريف علاقتك الوطيدة بالسيد عبدالرحمن، ولكن لا نرى ضرورة في بقاء الحسين عنده طالما أن زياراته متبادلة ومتواصلة مع صديقه الهادي.

ابتسم الشريف وهو يعلم خوف أخواله عليه، وهي المرّة الأولى التي يأتوا فيها لإبداء رأيٍ أسري، ولولا حبهم الشديد لابن أختهم لما أتوا، ردّ عليهم قائلاً:

ـ تعلمون أن ما يربطني مع السيد عبدالرحمن المهدي والسيد علي الميرغني أكبر من أن أتجادل معهم في أمرٍ يطلبونه منّي، وأيضاً لا أستطيع

منعكم من أحقيتكم في الحسين، فهو ابن أختكم، ولكن عليكم أن تتركوني في منأى من تركِه أو إحضاره.

ابتسم على خير قائلاً:

ـ وهو كذلك سيدي الشريف.

خرجا من سراي الشريف واتفقا أن يطرقا الحديد وهو ساخن، توجها فوراً إلى أم درمان، تجنبا البوابة الشرقية التي هي المدخل لمضيفة السيد، وأوقفا سيارتهما أمام منزل الأسرة بالقرب من البوابة الغربية، طرقوا الباب، فإذا بالذي فتح لهم هو الحسين نفسه، قال له خاله علي خير بلهجةٍ فيها حِدّة واضحة أقرب إلى الأمر:

ـ هيا، أحضر حقيبتك.

أجابه الحسين بعد أن صافحهما:

ـ إلى أين يا خال؟

أجابه يوسف بحدةٍ أشد:

ـ إلى منزل أبيك، هيا.

رد عليهم قائلاً:

ـ حسناً، تفضلا حتى أقوم بتبديل ملابسي وأستأذن أهل الدار بالمغادرة.

رد علي خير وقد نفذ صبره:

ـ هيا يا ولد، ملابسك سيأتون بها إليك، هيا.

تأكد الحسين بأن خالاه بينهما والانفجار شعرة، وهو يعلم تماماً حِدّة مزاجهما إذا جادلهما أكثر من ذلك، ركب معهما وليس عليه إلا عراقي وسروال.

توجها إلى بُرّي دون أن يتفوها له بكلمة، ووقفا أمام منزل أختهما التاية داخل سرايا الشريف وطلبوا منه النزول، وأخبراه مُحذِّرين بأنهم سيأتون به في كلِّ مرة سيقيم فيها خارج داره.

***

لكم يفتتن الحسين بما جاد به الله هذه البلاد، الأرض والماء وخيرات السماء، أنهار وسهول وغابات، الحيوان أليفه وشرسة، وطيور تسبح في فضاء الله تطوف حول كل ذلك، أرزاق يستحيي العبد حتى من طلب المزيد، ماذا يطلبه من الله بعد أن منّ عليه بكل هذه النِعم غير العافية والمغفرة، ترك أبوه مَزارِع تتفرق هنا وهناك، كان نصيبهم ومعه زين العابدين وآمنة مزرعة حلة كوكو، ولا يفصل بينها وسراي الشريف إلا النيل الأزرق.

بدأ في غرس أشجار الفواكه وتوضيب الأرض لزراعة الخضروات والمحاصيل، ولهم مزرعة أخرى في سوبا شرق انتقل إليها يزرع ويحصد، وذهب إلى النيل الأبيض منطقة الكباشي ليُحيي مشروع التُّمانيات بمحصول القطن، ولم يتوقف على ذلك، بل ذهب إلى القضارف ليزرع في مشاريعها مُشاركاً عبدالرحمن أبو حسبو ومحمد أبو لكيلك، وفي خضمِّ ذلك لا يبتعد الحسين كثيراً عن المسيد، فهو دائم الحضور لليالي المولد وسهرات المديح النبوي.

جلس في يومٍ إلى الخليفة قسم السيد، وقد كان أحد المُريدين المقربين للشريف يوسف، فتًى أبنوسيًّا طويل القامة، من قرية في الجزيرة تُسمى سابع دليب، قال له الحسين قبل استعداد المادحين لإقامة إحدى الليالي:

ـ ما بين شيخنا الشريف والشيخ حياتي لأمرٌ عجيب، على الرغم من أن حياتي لم يرَ الشريف ولو لمرةٍ في حياته.

ابتسم الخليفة قسم السيد بعد أن اغرورقت عيناه بالدموع وأجاب:

ـ بذل جهدًا خرافيًّا في سبيل رؤيته ولكن الشريف كان يمنعه ذلك، يعلم أنه مُشبّعٌ إلى حدٍّ لا قياس بحب النبي وال البيت، وفي حال رؤيته الشريف قد يفنى ويموت.

أجاب الحسين:

ـ لحِق به بعد عام بالتمام والكمال، أكثر ما يثيرني في نظمه المديح هو انتقاؤه البديع للكلمات بليغة الوصف وعميقة المعاني، ولا يرتاب من تزيينها بالعامية الضاربة في جذور البادية، وهي لا تزيدها إلا قوة وإبانة وجمال.

كان الحزن بادياً على كل من يعدّون ليلة المديح لفقدهم قبل يومين

الشيخ حياتي بن الحاج حمد العربي، شكّل لهم نموذجاً فريداً في حب الأخ لأخيه، قصصاً سيحفظها التاريخ وسيرة رجال أنقياء وصفحات لم يكتب عليها غير التقوى والورع وحب النبي صلى الله عليه وسلم.

لم يكن الشريف عبدالرحمن الهندي بأقلّ حزناً من بقية أفراد الوفد الذي تقدّمه لتعزية أحباب النبي وأهل حياتي في أبو جلفة بالقرب من مدينة رفاعة، فهو المعاصر لكلِّ حدثٍ حول الشريف يوسف، والملازم لكل حركاته وسكناته، والأمين على مدّ الجسور والتواصل بين بيتهم الكبير والناس، والذي يعرف قدر الرجال وحقهم ومستحقهم، فما تركه الشريف ضخم، ولكنه عززه وشدّ من أزره بما يعلمه عنه عندما قال:

- ما أقضيه من أمور واقفاً، يقضيها ابني عبدالرحمن وهو مستلق على فراشه.

بدأت ليلة المديح وكانت امتداداً لحديث الحسين والخليفة قسم السيد بقصيدة حياتي التي نظمها شوقاً وتحرُّقاً لرؤية الشريف يوسف:

- نم يا فمي ليهم بشكر الجيدين أصحاب الرسول الإيدو النديين
أيدي الإنكسار بالإفتِقار مادّين للنافي الشريك والزوجة والوالدين
مالك الملك جلا مالك ليوم الدين أرجوهو الخلاص من النفس والدين
والتوبة النصوحة والخلُص في الدِين والتقى والورع والزهد كالزاهدين
وما أن جاء في قوله:
ممكون بالغرام خلُّوني يا لايمين واسألوا حالي عنها ال بالغرام عالمين
إن كان جاهلين قولو لي من هُم مين؟ المرمي الشريف يوسف من الرامين
ما سوا الشبه هام هيّم الهايمين وأحرق مهجتي قد صادا بي سهمين
مالك يا الشريف أحرمتني النومين ما تخاف الله فيني يا الهندي صبري يمين
ضاق واسع الفضا وضاق بيّا دائي كمين.

حتى انخرط الجميع في بكاءٍ لم توقفه جريان دُرر حياتي على لسان الخليفة قسم السيد وصوته البديع ومن معه من المادحين.

***

الجزيرة أبا.. الحادي والعشرون من يونيو 1969م

عناق طويل بين الشريف والخليفة مصطفى، في ذات اللحظة التي دخل فيها الإمام الهادي، حيث كانت غرفته مجاورة لغرفة الشريف حسين، جلسوا وتساءل الشريف قائلاً:

ـ كيف هو الحال يا خليفة؟.

أجاب:

ـ الكل قلقٌ عليك سيدي الشريف، والأمن منتشر في كلِّ مكانٍ يظنون أنك مختبئ فيه، داهموا بيت الشريف المهدي في العُقدة، وبيت الشريف عبدالرحيم في الربوة، ودار الشريف عمر في مارنجان حلة حسن، حتى أنهم ذهبوا إلى دار الشريف الصديق في أبو ريش، أمّا بُرّي فقد نشروا فيها مُخبريهم في كلِّ شارعٍ وركنٍ من أركانها.

ابتسم الشريف قائلاً:

ـ سيطمئنون بإذن الله، وحتى نستفيد من الزمن، أريد أن أعلمك بأننا قد قمنا بالأمس هنا بتوقيع اتفاق رباعي، بيني كحزب اتحادي، وبين الإمام الهادي زعيماً لحزب الأمة، والشيخ محمد الصادق الكاروري عن الإسلاميين، والصادق المهدي بحزبه هذا الذي ابتكره حديثاً، وقد أصرّ على الذهاب إلى الخرطوم للتفاوض مع الانقلابيين وإجراء حوار معهم، وقد حذرناه أنا وعمه من ذلك خوفاً عليه من الاعتقال أو القتل، أظنه لن يستبين النصح إلى ضًحى الغدِ.

تساءل الخليفة مصطفى:

ـ على ماذا وقّعتم؟.

أجاب الشريف بحزم وقوة:

ـ مقاومة النظام، وتكوين خلايا سرّية لمجابهته قبل أن يشتدّ ويقوى، وتنظيم الصفوف وجمع التبرعات لتحقيق ذلك.

رفع الخليفة مصطفى قبضة يده باكياً:

ـ أبشر بالخير، أبشر بالخير يا الشريف.
تدخل الإمام بقوله:
ـ لقد أعددنا لك مهمة في غاية الأهمية والحساسية، ولا تخلو من خطورة، وقد رأى الشريف حسين بأنك الشخص المُناسب لها.
خنقته العبرة لتخرج كلماته مُتقطِّعة وهو في أشدِّ حالات تأثيره:
ـ حبًّا وكرامة، حبًّا وكرامة، لن يوقفني إلا الموت.
أضاف الشريف:
ـ عليك القيام بطوافٍ يشمل كل الاتحاديين والوطنيين وتبليغهم بما اتفقنا عليه، وحثهم على تكوين الجبهة بحذرٍ شديد حفاظاً على سلامتهم، وقل لهم إننا لا نسعى للكم بحشد الناس، ولكن يهمنا تنقية من يستطيع تحمل هذه المسؤولية في هذه المرحلة الحساسة حتى نستطيع البناء.
مد له الإمام الهادي كشفاً بالأسماء وهو يقول:
ـ هذه هي الأسماء التي نريد أن تصلها، ولكن قبل أن تتحرك عليك القسم على ذلك المصحف بأن ما دار بيننا يكون في طي الكتمان حتى لو تمّ اعتقالك واستجوابك.
قال الشريف بعد أن أكمل الإمام حديثه:
ـ لا يحتاج مصطفى إلى القسم سيدي الإمام، فأنا وهو منذ طفولتنا لم نتفارق، نشأنا سويًّا وخضنا معاركاً استطال زمانها وأمدها.
ابتسم الإمام قائلاً:
ـ حسناً، ماذا تحتاج لمهمتك؟.
أجاب الخليفة مصطفى وكأنه قد أعدّ لذلك مُسبقاً:
ـ أريد التحرُّك مُتنكِّراً، بحيث لا يتعرف عليّ حتى من يعرفني.
تساءل الإمام:
ـ كيف؟.
أردف الخليفة مصطفى قائلاً:
ـ أريد ملابساً كالتي يرتديها الرعاة المحترفون، ثوب من الدمورية وزن تسعة، وعرّاقي قصير من نفس القماش، وعِمَّة دبلان أدرجها حول رأسي بلا طاقية، وحِذاء ماركة باتا، ومخلاية بها إناءً محروقاً لحلب اللبن،

وعصاة محنوفة.

أجاب الإمام ضاحكاً:

- الآن سيكون ما طلبته معك.

وأردف الخليفة:

- سأرتديها في المساء وأودعكما، وسأقضي ليلتي مع رعاة أبقاركم حتى تتسخ ملابسي، ثم أخرج في الصباح.

ضحكوا كثيراً، خرج الإمام تاركاً الخليفة مع الشريف ليواصلا حديثهما خصوصاً وأنه سمع بأنه قد أتي من بُرِّي وقد يكون لديه رسائل خاصة يبلغها له.

***

خرج الخليفة مصطفى صباحاً من الجزيرة أبا وهو على هيئته التنكرية، أخرج قائمة الأسماء وقام بحفظها على ظهر قلب، عاد بنفس الطريق الذي أتي به متوجهاً إلى سنار، يركب مجاناً كل سنحت له فرصة الركوب فوق ظهر لوري أو فيات أو بوكس، وفي كلِّ مرّة يتحجج للسائقين بأنه يريد اللحاق ببهائمه التي ترك عليها ابنه الصغير لاستعطافهم، وصل سنار عصراً، ومر على الكثير ممن يعرفهم من المنطقة ولم يتعرفوا عليه، بل أنه مرّ بأحد أبناء عمومته ولم يلفت انتباهه، توجه إلى منزل جعفر الخليفة، رئيس الحزب بسنار، وطرق بابه والشمس قد احمرّت نحو الغروب، ففتح الباب بنفسه ولم يعرفه حتى أخبره بأنه الخليفة مصطفى، أدخله واحتضنه، تناول أكلاً وبلّغه الرسالة الشفهية وخرج متوجها نحو الطريق الذي يؤدي إلى مدينة الحاج عبدالله، فهي محطته القادمة، وأصرّ على الذهاب في هذا الليل حتى يكسب زمنه ويقصِّر موعد عودته إلى الجزيرة أبا، فكان محظوظاً عندما وجد لوري مليئاً بالجلود المدبوغة متوجهاً إلى ود مدني، نزل والليل قد تمكن من الأرض.

سار في شوارع الحاج عبدالله إلى أن وصل منزل إبراهيم الأحمر رئيس الحزب فيها، قضي معه ساعات الليل حديثاً، ونام قليلاً ثمّ خرج قبل شروق الشمس وأهله في حيرة، وأمنيتهم معرفة ما يجمع بين أبيهم وراعي الغنم المُتَّسِخ الثياب، وعند التاسعة صباحاً كان يجلس مع محمد عبدالله موسى ومنه إلى عبدالرحيم أبو عيسى ثمّ أحمد دهب المحامي، وبعد آذان العصر ركب شاحنة مليئة بالخراف، نزل في مدينة الحصاحيصا، وتوجه إلى السوق حيث قابل رئيس الحزب فيها يوسف حسن بابكر وسكرتير الحزب علي عيسى بشارة في أحد الدكاكين داخل السوق، وأوصاهما بأن يستعينا بمن يثقا لتكوين الخلايا في ريفي الحصاحيصا ومدينة رفاعة وما حولها، وتحرك ليقف في الطريق وقد أشارت الساعة إلى الثامنة مساءً، وبعد ساعة من وقوفه، توقّف جواره لوري مُكدّس بالأخشاب، نزل سائقه يتبوّل، اتفق أثناء غيابه القصير مع مساعده أن يقله فوق

الأخشاب مقابل مبلغ معين، تحرك اللوري ودخل الخرطوم في الثالثة من صباح اليوم التالي، سار على أقدامه مسافةً طويلة حتى وصل إلى سوق محطة أربعة ببُرِّي، استأذن أحد الخُضُرْجِية لينام على عنقريب.

استيقظ بعد ساعتين وسار برجليه إلى أن وصل إلى منزل أسرة الشريف حسين في بُرِّي حِلّة فوق، وهو يبتعد قليلاً من سراي الشريف، قابل الشريف زين العابدين وأبلغه رسالة الشريف وأوصاه أن يقوم بنقلها إلى السيد محمد عثمان الميرغني، وفضّل أن لا يذهب إلى السراي حتى تكون ختام محطاته، وعند منتصف النهار أخبره الشريف زين العابدين بأن الحاج مضوي طريح الفراش في إحدى المستشفيات بسببِ كسرٍ في ساقه، ركب عربة كارو وتوجه نحو المستشفى، وقابل بعدها إبراهيم حمد الذي أعطاه مائة جنيه ليسلمها الشريف، وأمسى في الملازمين وبالتحديد في منزل أحمد عثمان الشايقي، نائب دائرة السوكي سابقاً، وقضى ليلته مع عماله الذين يزرعون على شاطئ النيل، لحقه في المزرعة وسلّمه مبلغ مائتي جنيه حتى يُسلِّمها للشريف، وبعد أن خرج منه صباحاً توجه برجليه صوب منزل صالح سُكّر في الملازمين أيضاً، رحّب بما جاء به ومدّ له مائتا وخمسين جنيهاً كدفعة أولى، ومنها اجتاز الخليفة مصطفى النهر بأحد المركب إلى مدينة بحري وقابل هناك حسن عوض الله وحاج بابكر وأبو القاسم الجعلي، وقد رأي في هؤلاء تبايناً وليناً في مواقفهم تجاه النظام العسكري الجديد، وأخبره بعضهم بأن يخبر الشريف برأيهم في ضرورة التأني قليلاً حتى يستبينوا الأمر، ثم عبر بعدها كُبري بحري إلى إحدى زرايب الحطب بالقرب من السكة حديد بعد أن أتاها ماشياً ليقضي ليلته ويريح جانبه. وفي الصباح أجرى اتصالًا هاتفيًا من أحد الدكاكين في السوق العربي مع الأستاذ أحمد زين العابدين ليبلغه رسالة الشريف، أما تاج الدين أبوشامة وجعفر قريش ومحمد الحسن عبدالله يس، فقد شكوا إليه المرض بعد أن وصل كلُّ فردٍ منهم في داره، ودخل سراي الشريف ببُرِّي بعد أن جاء العصر ومالت الشمس إلى المغيب قليلاً وهو في حالةٍ يُرثى لها من الرهق والاتساخ، رآه عمه الأمين ود طه وقد أتي من ملولحة بالأمس باحث عنه هو أيضاً بعد أن انقطعت أخباره لشهرٍ

كامل، وكان رجلًا قويًّا وشديدًا، حاضر البديهة وحاد الذكاء، سلم عليه مشمئزاً وقال له:

ـ ما هذا؟

إلا تخجل من هذه الثياب التي عليك، أتريد أن تفضحنا يا مصطفى.

ردّ عليه ضاحكاً:

ـ الأمر ليس كما ترى يا عم، سأخبرك ولكن بعد أن أستحمّ وأغسل ملابسي.

جلس معه وأخبره بما كان منذ أن فارقهم في القرية، وبعد صلاة المغرب، دخل الخليفة مصطفى على خليفة السجادة الشريف إبراهيم الهندي، وهو الخليفة الثاني للطريقة بعد شقيقه الشريف عبدالرحمن رحمه الله.

رجل ذو هيبة وهيئة وضيئة، أشبه الناس بأبيه في قوامه ومظهره، قليل الكلام، ويده خارقة للعادة في الكرم والجود، كان مقامه في منطقة البطانة، أقام فيها عقوداً بين أتباع أبيه في المنطقة ويملك من الإبل الكثير، لا يمرّ يوماً عليه إلا وهو ينحر إكراماً لمن معه، ضيفاً أو مقيماً، ويدفع منها لكل من يطلب راحلة يسافر بها، حتى سُمِّي (جيب رسنك)، وتغنّى شعراء البطانة وغيرهم بمآثره وكرمه وفضله، حتى جاء إلى بُرِّي تنفيذاً لوصيّة أبيه بأن يكون ثاني من يتقلّد خلافة الطريقة، وعندما أتى المساء، كان أفراد أسرة الشريف ومعهم أحمد خير مجتمعين سرًّا داخل بِربة الضيافة ليسرد لهم الخليفة أخبار الشريف حسين ومكانه وما يريد أن يعزم عليه في الأيام القادمة.

***

درب الأربعين.. شتاء 1944م

أسدل الليل ستائره على جوانب الأرض، وخيّم الظلام مُغطياً ما فضحته شمس النهار، وأنوار النجوم تقوى حيناً وتضعف أحياناً وكأنها تسمر مع مع بعضها البعض، وهواءً بارداً يلفح الرمال فتتطاير ذراتها لتغزوهم ولكنها لا تجد منفذاً لأجسادهم، صاح كبيرهم عندما قاصدوا صخرةً ضخمة وكأنها القيت من ذلك التل الذي يجاورها، صاح قائلاً:

ـ الهواء شديد، علينا المبيت هنا.

جعلوا الصخرة درعاً لهم يقيهم البرد، وأشعلوا النار وارتفعت ألسنتها لتزيد من وحشة الظلام بعد اختفاء النجوم من فوقهم، قد أتوا مع (حركة)، وهي مجموعة الإبل التي لا تزيد عن خمسمائة ولا تقلُّ عن ثلاثمائة، وهم تسعة من المتمرِّسين على اقتيادها وحمايتها حتى تصل إلى أرض مصر، خبراء للطريقِ الذي يمتدُّ مسيره أربعين يوماً، لكم خطط الحسين لهذه الرحلة وتمنّاها منذ أن كان طالباً بفكتوريا، فقد كان مُتابعاً ومراقباً وقتها حركة التجارة المُتبادلة بين السودان ودول جواره، بدأ إعداده لها منذ أن باشر عمله الزراعي، وجمع أموالاً مع امتدادات معارفه حتى التقى أهل المهنة، للحسين نزعة حسابية تجعل كل حواسه مترِكِّزة على كيفية الاستفادة من خيرات البلاد، فإيمانه بالموارد تدفعه لاكتشافها وممارسة ذلك عمليًّا، لا تستهويه القراءة عن شيء يمكنه فعله، ولا السماع عن تجربة يمكنه خوضها، يحب أن يلقي بنفسه في قلب الأحداث، ولا تُنفِّره أهوالها وقساوتها، فهو الآن واحدٌ من التِّسعة، لا تعرفه بينهم إلا إذا تحدّثوا إليه أو صاح إليهم، وقبل شروق الشمس، اعتلى جمله وهو خالف ساقيه أمام (الحويّة) مرتدياً ما يرتدون ومسدسه مربوط على ساقه، وهو مستمتع بقياس الفرق في شخصيته عندما دخل مصر قبل سنوات، أفندي صبياً يلبس الحُلّة الإفرنجية كما يجب، ويجرّ رباطة عنقه مُثبتاً عقدتها على ياقة قميصه بين كلِّ حينٍ وآخر، والآن

هو أحد سائقي الإبل، يدخل مصر وهو فوق جمل، ها هم قد وصلوا أمبابة، وباعتبار أن هذه هي الزيارة الأولى له، عليه التركيز على كيفية سير الأمور هناك، والعلم بكيفية اكتمال دائرة عملية العرض والسعر وطرق البيع، وبعد أن قام بمسح السوق وسط الآلاف من الإبل ومئات التُّجار، جلس مع بعض التجار السودانيين ليناقشهم في الأسعار الضعيفة التي يبيعون بها، وجد فيهم استسلاماً غير مُبرّر لحكم الأسعار التي يتّفق عليها التجار المصريون، والتي لا علاقة لها بالسعر الباهظ الذي يبيع به هؤلاء الوسطاء للمسالخ والجزارين، فالأرباح التي يجنيها الوسطاء تقدّر بأضعاف ما يحصل عليه المورِّدون من السودان، وهم من يأتون بالإبل بعد عملية شاقّة تأخذ شهوراً من العام وتحفّها الخطورة، هذا ليس بالعدل، قال له أحد الموردين من ديار الكبابيش واسمه عبدالرحمن وهو وكيل لناظرهم حسن التوم وقد عرِف الحسين وأُعجب به:

- هذا أمر خطير، لن نستطيع مسك إبلنا والعودة بها في حال عدم موافقتهم على السعر الجديد، وقد يؤدي ذلك إلى خلاف وخيم العواقب، وفي الأمر أيضاً خطورة علينا من قطّاع الطرق، فنحن لا نثق بما سيفعلونه إذا تعرّضت مصالحهم للخطر.

أجاب الحسين قائلاً:

- لن نتمسك بما نحدُّده من سعر، ولن يستمر تمنّعنا من البيع لهم طويلاً، هي فقط ليلة واحدة، ستصلهم رسالتنا، وسيزيدون لنا في السعر قليلاً، ولنا معهم حديث في المرات القادمة.

أجاب عبدالرحمن:

- وإذا لم يشترُوا؟

رد عليه بثقةٍ بدت على ابتسامته:

- يستحيل هذا، سوق الاستهلاك لا يتحمّل يوماً واحداً بدون الإبل السودانية، وأي معالجة يشرعون في تنفيذها ستكلِّفهم أضعاف ما يدفعونه لنا، ثِق بي يا عبدالرحمن.

التفت عبدالرحمن إلى الستة الآخرين، وجد في اثنينٍ منهم امتعاضاً من مبدأ الجلوس والاستماع إلى ولد صغير يفتقِر إلى الخبرة والمعرفة،

ناهيك عن كونه خرطوميًّا لا يعرف البادية والأحكام التي تسير عليها، وهو دخيل أيضاً على المهنة، أما الأربعة الآخرون فرأيهم تغير مثل عبدالرحمن، ولكنهم يعترضون على آلية التنفيذ، التفت إلى الحسين متسائلاً:

ـ الآن جميعنا اتفقنا على السعر، تبقى استلام الأموال، لا يجوز.

قاطعه قائلاً:

ـ أنا أيضاً اتفقت على السِّعر، ولكن لنا مطلق الحرية في تغييرِ رأينا، فهذه إبلنا وليست إبلهم.

أحسوا بارتياح عظيم، وسأله أحد المعترضين بعد أن تغيرت ملامحهم قليلاً:

ـ وماذا نفعل؟

أجابهم وكأنه قد أعدّ لهذه العملية في الطريق، الشيء الذي فاجأ حتى السائسين:

ـ نذهب إلى شيخ السوق في الصباح، ونطرح له الأمر.

***

لم تذهب ثقافة الحسين عن الإبل هباءً، كثيراً ما جلس إلى الخليفة الأمين ود صالح المغربي، وكان يسأله إلحاحاً عن حياتهم في منطقة البطانة وكيف كانوا يتنقّلون خريفاً وصيفاً مع آلاف الإبل، وربطتهم علاقة متينة مع أبيه الشريف يوسف منذ صباه، سأله الحسين في مرّة وهم يجلسون في شرفة السراية البحرية:

ـ متى قابلت أبي يا فكي الأمين؟

نظر الخليفة الأمين بعيداً وكأنه يرى ذلك الزمان وذلك المكان:

ـ كُنّا نأتي صيفاً مع إبلنا ونوردها نهر الرهد لتشرب، ولا نبتعد كثيراً من مجرى النهر حتى تهطل الأمطار في بدايات الخريف لنعود مرّة أخرى، لم تكن مشارع نزولنا النهر تبتعد كثيراً من قرى الشريف يعقوب ونُوّارة، امتدت أواصر علاقة آبائنا منذ أيام جدك الشريف محمد الأمين الهندي، كُنّا نأتي معهم وأبقوا بعضنا معه لدراسة وحفظ القرآن الكريم، وعندما دُفن جدك الشريف بعيداً في الرهد أبو دكنة، واستشهد عمّك الشريف علي في سنار، كان والدك حينها صغيراً.

قاطعة الحسين:

ـ كم كان لديكم من الأبل.

أضاف مُجيباً:

ـ أكثر من ثلاثين حركة، إذا جمعنا ما لدى إخوتي وأبناء عمومتي، وترتكز في منطقة تسمى أبو حريق بالقرب من قرية الشيخ حسن ود حسونة.

ـ لأبي علاقة متميّزة مع المغاربة الدسيساب لدرجة أننا كُنّا نحس أنه لا يعرف غيرهم.

ـ هذا صحيح يا حسين، بدأ تجديد التواصل بيننا بعد أن شبّ الشريف قليلاً وبدأت معالم صلاحه وعِلمه وكرمه في البروز، كنا نأتي النهر كعادتنا ويقوم بدعوتنا وإكرامنا، استمرّ ذلك إلى أن قام الإنجليز باعتقاله في الخرطوم، وشددنا الرحال إليه في سجن كوبر، ولدى العمدة فجّ النور قصة معه، فقد اتّهم الشريف إدارة السِّجن بأنهم يريدون التخلُّص منه بالسُّم، فازدرد الكوب في

شربةٍ واحدةٍ ولم يسرِ السُّم في جسده، حتى أنه أهدى ذلك الكوب للعمدة فجَّ النور ولا زال معه إلى الآن، وبعد أن حدّدوا إقامته في بُرِّي وشرع في بناء المسيد، كُنا نأتي بحطب البناء على ظهور الجمال، وتفرّغت لسنوات عديدة أقوم فيها بتدريس القرآن الكريم لإخوانك الكبار في المسيد.

تدخل الحسين يداعبه:

ـ وتزوّجت أختي الهاشمية.

ابتسم وقد دخله حزن كبيراً بدا في عينيه، ودموع تقاطرت ألفاها بيده قبل نزولها وقال:

ـ لقد أكرمني ود الهندي بمصاهرته، رحمها الله رحمةً واسعة.

صمت قليلاً وأردف مواصلاً حديثه:

ـ اعتدنا ملاقاة الشريف في نهر الرهد، ولدينا خط صيفي آخر نسير به وإبلنا عبر وادي سوبا الذي ينتهي بنا في النيل الأزرق شرق الخرطوم، وفي هذه النقطة أقام الشريف خلوة لدراسة القرآن وحفر فيها بئراً، وهي أقصى منطقة يمكنه الوجود فيها خارج العاصمة، بعد أن فرض الإنجليز حدوداً لإقامته، سميت بمرابيع الشريف، نقضي فيها أغلب أوقات الصيف ليدرس أبناءنا ونعود مع بدايات الخريف كعادتنا، ومنا من ينتقي إبل التجارة ويذهب إلى مصر.

أضاف الحسين:

ـ كان أبي معجباً بشجاعة محمد المغربي عندما أودعه أهله كل ما لديهم من ذهب أيّام الأتراك، حكى لي بأنه دفنه في الأرض، وعذبوه ونكّلوا به ولم يفصح عن مكانه على الرّغم بأن الذهب كان مدفوناً تحته، فأطلقوا عليه اسم (فجُّونة).

لم يترك الحسين شاردة ولا واردة متعلّقة بتجارة الإبل إلا وبحث عنها على مدًى طويل، فكل من حوله مُلتصقٌ إمّا بالرعي أو الزراعة، وقبل المسير مع السائسين إلى مصر قام بنفسه بشرائها وتجهيزها وإعداد من يرافقونه بزادِهم وعتادِهم بأسلوبٍ محترف، لم يحسُّوا بأنه غضٌّ وصغير أو مُستوحش ومرتاب.

كان بينهم مُتمرّساً بالصحراء، عالماً باتجاهاتها ويهتدي بنجوم السماء، الصباح في أمبابة قارس البرودة، العم عبدالرحمن وثلاثة من المورِّدين والحسين يجلسون مع حاج ورداني المصري في دكانه، وهو كبير السوق وحكيمه، طرح

عليه عبدالرحمن مطالبتهم بزيادة السعر وضرورة ذلك، أخذ يُفكِّر بعمق وهو ينظر إلى ابن العشرين الذي لم يره من قبل، وقبل أن يرد عليهم سأل العم عبدالرحمن:

- لم تُعرِّفوني على هذا الشاب الذي يرافقكم.

أجاب قائلاً:

- إنه الحسين بن الشريف يوسف الهندي، ابن أحد القيادات الدينية بالبلاد.

صمت مليئاً، فزادت دقائق صمته عن الأولى، وقال بعد أن أخذ نفساً عميقاً:

- باعتباري القيّم على السوق، أستطيع أن أقول لكم بأنّ قيمة الزيادة الذي طرحتموها عالية جدًّا، مع إيماني بحقكم في ذلك، فأنا أستطيع أن التزِم لكم بعشرين في المائة من قيمة الزيادة، ولكن ليس قبل أن أُشاور تُجّار السوق، وسنرى بقيّة مُطالبتكم لاحقاً.

التفت العم عبدالرحمن للشريف الذي فاجأه بردِّه على الحاج ورداني:

- موافقون.

وانفضّ السامر، أعجب التُجّار كثيراً بالحسين، على عكس المشترين، فقد أحسُّوا بخطورة الوضع، ولم يطاوِعوا الحاج ورداني إلا بعد جدال طويل، أقنعهم فيه بضرورة الانحناء لمطلبهم وعدم رفضه حتى لا يفكرُّوا بحلول أخرى، وحتى يكسبوا الوقت ليروا ما يفعلونه في مقبل الأيام، فقط كان خوفهم من نشر الخبر والتحريض، فهناك رِكاب آتية في الطريق، وأخرى في طور الإعداد للتحرّك، ساقية لا تقِف، أما في الجانب الآخر فقد أخبر الحسين التجار الذين تجمعّوا حوله بخطورة الحاج ورداني وحكمته وخبرته في التأني والخروج بأقل الخسائر حتى يكسب الوقت، وسيرون ما سيفعلونه في الرحلة القادمة، ستكون فيها حرب التجارة مستعرة في أمبابة، وكان الحسين متخوِّفاً من احتمال لجوئهم للإنجليز لوقف تصاعد الأسعار، عليهم الإعداد جيداً لكلِّ الاحتمالات، وأقرّ كل موردي الإبل بأن لا يعودوا في رحلتهم القادمة إلا ومعهم الحسين.

***

سنجة ـ الجزيرة أبا.. أوائل يوليو 1969م

تسابق الخليفة مصطفى مع سحابة تنذر بالمطر إلى منزل يوسف خير بمدينة سنجة، ولم يفلح، دخل عليهم مبتلاً، جلس إلى خال الحسين يحكي له كل التفاصيل التي مرُّوا بها وختمها برسالة الشريف إليهم بضرورة الوقوف سدًّا منيعًا أمام حكم النميري.

في الصباح الباكر توجّه إلى منزل القيادي كامل قسم السيد وأبلغه نفس الرسالة، وسلمه مبلغ مائة جنيه. وعندما خرج منه بدأ في تحسُّس الطُّرق التي تؤدي إلى الحدود مع الحبشة ويسأل عن صلاحيتها مع بدايات هذا الخريف الذي يُنذر بمطرٍ غزير، جمع الكثير من المعلومات وسافر عصراً إلى الجزيرة أبا فدخلها في الحادية عشرة ليلاً. وفي الصباح دخل على الحسين في غرفته وابتسامة عريضة تعلوهما، ثم دخل عليهما الإمام وجلسوا يستمعوا إلى تقريره عن رحلته التي قضاها مُتجوِّلاً، وطمأنهم على أحوال الناس، سأله الحسين:

ـ كيف وجدتّ شيخنا الشريف إبراهيم؟

أجابه بحزنٍ طفيف:

ـ غير مرتاح، ويرفض الذهاب إلى المستشفى على الرغم من إلحاح ابنه صديق ومن حوله.

رد الحسين:

ـ هكذا هم إخواني، يهزأون بالمرض ولا يعيرونه انتباهاً.

كان شيخنا الشريف عبدالرحمن يضحك ويداعب من حوله كعادته حتى سافر إلى لندن وهو يعلم أن مرضه عضال، ويعلم أنه قد لا يأتي، ترك وصاياه وعاد في صندوق ليُدفن جوار أبي بعد حياة حافِلة بالعطاءِ، رحمهم الله جميعاً.

أردف الحسين يسأله:

ـ ها، ماذا وجدت عن الطرق المؤدية للحدود؟

أجاب الخليفة مصطفى قائلاً:

ـ لاحظت أن هناك قوات منتشرة في حدود المدن بكثافة، تُراقب السيارات بتركيزٍ شديد، وعلمت من أحد معارفي وهو يعمل في الشرطة بأن الأجهزة الأمنية صار شغلها الشاغل هو القبض عليك، لذا علينا عندما نُقرِّر التحرُّك لا بدَّ لنا من دليل يسير بنا عبر طُرقٍ أخرى غير مطروقة.

تدخل الإمام الهادي:

ـ نعم، هذا ما فكرت فيه مع الشريف، ولكن الأهمّ من ذلك هو الاتصال بالامبراطور هيلاسلاسي، وقد تبادلنا معه الرسائل فعلاً ورحّب بذلك، وقال بأن كل الحدود الإثيوبية منذ الآن على أهُبّة الاستعداد لاستقبال الشريف.

أضاف الحسين وهو يقول:

ـ بل ذهبنا معه إلى أبعد من ذلك بأن يسمح لنا بعد خروجنا إن شاء الله بجمع الناس والسلاح على الحدود لتكون مدخلاً وطريقاً لاستعادة كرامة الشعب وديمقراطيته، ووافق على ذلك.

صارت الجزيرة أبا مثل القنبلة الموقوتة التي قد تنفجر في أية لحظة، فقد امتلأت بالسياسيين المُطاردين الذين لم يجدوا مهرباً إلا إليها، وبدأت الإشاعات والأقاويل تنتشر هنا وهناك بأنّ كل من يطلبهم النظام يلوذون بها.

كانت غرفة الإمام مُلاصقة لغرفة الشريف، وغرفٌ كثيرة بها سياسيون ولكن ليس لديهم تواصل مع الشريف حسين، بل إنّ بعضهم لا يعلم أن الشريف في الجزيرة أبا وفي غرفة لا تبعد عن غرفهم كثيراً، فكان عثمان جاد الله النذير ومحمد عثمان صالح وعبدالله محمد أحمد، وهناك في غُرفٍ أخرى قيادات من الإخوان المسلمين على رأسهم الشيخ محمد صادق الكاروري، والأستاذ محمد صالح عمر ومهدي إبراهيم وعزالدين الشيخ.

كان الخبر المُزلزل الذي أتت به عيون الإمام إليه من داخل الجزيرة بأن هناك شباباً يعملون في مهنة التدريس بربك وكوستي، وينتمون إلى الحزب

الشيوعي، وهؤلاء متمرِّدون بطبعهم على النظام الديني المُحافِظ القائم في الجزيرة، وقد أحسوا بأن هناك شخصية مهمة يحاول الإمام إخفاءها عن الأنظار ويعتِّم الزيارات حول داره على غير عادته، وبعد التلصُّص الذي استمرّ لأسابيع تأكدوا بما لا يدع مجالا للشك بأن الشريف حسين في الجزيرة أبا، وأبلغوا السلطات بذلك فكان عليهم الخروج فوراً من هذا المكان.

قام الإمام بتجهيز عربته اللاندروفر، وقام بتوفير الزاد اللازم حتى يكفيهم لرحلةٍ طويلة، وعدد من البطاطين وقطعتين من السلاح، وجلس شوقار سائق الإمام خلف عجلة القيادة وجواره علي العبيد، بينما ركب الخليفة مصطفى في الخلف ومعه الشريف حسين مُتخفِّياً، ودّعهم الإمام ودعا لهم بالحفظ لتنطلق العربة جنوباً حتى وصلوا منطقة نائية ليس فيها إلا أحد وكلاء الإمام على أحد مشاريعه، قضوا معه ليلتهم، وعند الثانية صباحاً ركب معهم وكيل الإمام وساروا في طريق الدالي والمزموم حتى وصلوا قرية (جِرِيوَة) فتجاوزوها.

كان الطريق وعِراً فأبطأوا السير حتى لا تتعطل الوسيلة الوحيدة التي تقِلّهم، فالتراكتورات والشاحنات مع فعِل الأمطار أضرّت الطريق بالكثير من الحفر الكبيرة والمزالق اللينة، ولكن شوقار سائق الإمام يعرف الطريق جيداً، ووكيل الإمام يُلقي التحايا هُنا وهناك على كل من في العربات التي تسير في الطريق، أحسوا ببعض الطمأنينة، وعلى هذا النحو حتى وصلوا قرية بوط، ثماني ساعات من المسير المتواصل، لم ينفذ الوقود ولكنه قلّ، توقفوا تحت أحد الأشجار، افترشوا أغطيتهم وجلسوا يتناولون بعض الأكل في حين ذهب شوقار إلى بوط ليأتي بجازولين، بدا الشريف مرهقاً، ولكن هذا هو وضعه الطبيعي الذي اعتاد عليه لسنوات، بدأ حديثه قائلاً:

ـ أنا في أشد حالات القلق على الزعيم، لم نستطع أن نتحصّل على أخبارٍ عنه.

شاركه وكيل الإمام:

ـ هذا صحيح، فلم نسمع عن المعتقلين شيئاً سوى أنّهم سيقدِّمونهم

لمحاكمات، أعتقد أنهم يؤجلونها إلى حين القبض عليك، ولكن هيهات.
أضاف الشريف وهو يقول:
ـ هذه ليست أوّل مرة يُعتقل فيها الزعيم، اعتقله الإنجليز عدد من المرات، وآخرها عبود، ولكن الأمر هنا يختلف، فلدى الشيوعيين حنق كبير تجاهه، وهو ذات الذي دفعهم إلى قلب نظام الحكم، أخاف أن يتحوّل ذلك إلى عداءٍ شخصي، وفي ذلك خطورة عليه.
تذكّر الخليفة مصطفى أمراً فات عليه أن يقوله للشريف:
ـ سمعت من بعض الاتحاديين خلال تجوالي أن شقيق الأزهري مريض جدًّا.
لاح لهم من بعيد حمار وشخصٌ يسير جواره، يتّجهان نحوهم مباشرة، وعندما اقتربا بانت ملامحهما، صبي يجلس بين جركانتين على ظهرِ الحمار، وشوقار يسير إلى جواره.
رفعوا الجازولين واستأنفوا رحلهم، خمس ساعات متواصلة، اللاندروفر يئنُّ من قسوة الطريق، الظلام يلاحقهم، لابدّ من إسدال سواده فوقهم وهم يسرعون، ساعة أخرى ويصلون إلى قرية قُلِي، وهنا، لا يعرف وكيل الإمام الطريق الذي يؤدي إلى الحبشة، ولا حتى شوقار، الخطة تقول كما أوصى الإمام الهادي أن تقف العربة بعيداً من قُلي، ويذهب وكيل الإمام إلى وكيله الآخر فيها، والأخير له دراية بكلِّ شبرٍ وطريقٍ على الحدود.
ابتعدت العربة من الطريق وتوقّفت بعيداً بين الأشجار، هي والظلام سواء عندما أطفأوا مصابيح اللاندروفر، سار وكيل الإمام نحو القرية ومكث فيها قرابة الساعة، وللأسف، لم يجد وكيل الإمام الآخر، فأتى بشابٍّ غيره قيل له إنّه يعرف الدروب جيداً. أشار فوراً الخليفة مصطفى على الشريف حسين بيده، وهو يوجِّه حديثه للشاب:
ـ هذا هو الخضر، خال الإمام الهادي، ونحن مُرافقوه، ابتعثنا الإمام لتأدية واجب عزاء داخل الحدود الحبشية في واحدٍ من الزعامات القبلية هناك.
أجاب الشاب بعد محاولته التركيز في ملامحهم:

ـ نعم، أخبرني وكيل الإمام بذلك.

أضاف الخليفة مصطفى:

ـ سنعطيك خمسين جنيهاً على كل يوم تقضيه معنا، بشرط أن تقسم لنا على المصحف بأن لا تُخبر أحداً بأمرنا.

كان الشاب بسيطاً ولا يوحي بأنه يعلم الكثير في أمور السياسة وما يحدث الآن، وهذه محمدة، ولكن، تكمن الخطورة في لسانه إذا تحدّث لأحدهم وهم في الطريق، أو بعد عودته أهله. والجيد أيضاً أنه بينهم ونصب أعينهم، لن يفلت منهم حتى يصلوا الحدود، وستنتقل الخطورة إلى من يعودوا بعد توصيل الشريف لمبتغاه، ولكن مهما يحدث بعد ذلك، يراه الخليفة مصطفى هيّناً بعد سلامة الحسين.

سارت بهم العربة حتى طلعت الشمس، وعندما ارتفعت قليلاً كانوا على مشارف مدينة الكُرْمُك، وفقوا بعربتهم على جانب الطريق حتى يرتاحوا قليلاً ويعتدلوا وينحنوا ويقضوا حاجتهم، جمعوا ساعات سيرهم فوجدوها ثمانية عشرة ساعة منذ خروجهم من دار وكيل الإمام، إضافةً إلى الساعات التي توقّفوا فيها، جميعها أربع وعشرون ساعة.

وعندما همُّوا بالتحرك أوقفهم الشاب فجأة، صعد وحده فوق سقف السيارة ووضع يديه في جنبات حوضه وبدأ يكثر في التلفُّت هنا وهناك، قفز من فوق السقف إلى الأرض، واعتدل ليقول لهم:

ـ أعذروني يا رجال، اختلطت عليّ الاتجاهات، ولا أتذكر الطريق الذي يؤدي إلى الحدود الحبشية.

وكأن الصاعقة قد ضربت رأس الجميع.

***

القاهرة.. مارس 1947م.

قالت له:

ـ لماذا لا تُحدِّد وجهتك وتميل إلى الأدب يا حسين؟.

عقد جابيه ومال إلى مقبرة سجائره التي أمامه:

ـ الأدب جزيل، ولكني أعتقد أنّ الاهتمام به وحده فيه أنانية مفرطة لإنسانٍ يستطيع فعل الكثير غيره في هذه الحياة.

اتقدت عيناها الجميلتان وهي تنظر إليه بفتنةٍ وإعجاب:

ـ تريد أن تقول أن فِعل الأدب ضئيل ولا يخدم قضايا البشرية؟

ابتسم قائلاً:

ـ الأدب يدعو البشرية إلى إخراج خلاصة إنسانيّتهم ليعيشوا في أمان وسلام، وهذا يستحيل، ودنيانا هذه مليئة بالأطماع والحروب، وبها يُدفن الأدب تحت أنقاضها كما فعلت أوروبا في الحرب العالمية الأخيرة، حينها يتحوّل الأدب نفسه إلى النقيض، فالشعر يتحوّل إلى شعر حرب، فيكون الشعر حينها فتنة، والقصة تتحوّل إلى بندقية، والرواية إلى مدفع، أليس هذا هو حال العالم اليوم؟

صمتت قليلاً ثم قالت:

ـ إذاً أنت ترفضه؟

ضحك قائلاً:

ـ لا أرفضه يا أماني، بل أشجِّع صناعته وتعاطيه، تراثنا العربي لولا التفرِقة والعنصرية لساد العالم وغيّر من ثقافته، حتى ولو كانوا ليسوا بِعرب، فنحن تمدّدنا شرقاً وانحسرنا، وذهبنا شمالاً ثم تراجعنا، ولم يتبقّ إلا دين الإسلام الذي تمسّكت به بعض الدول، وعلى الرغم من إسلامها، فهي لا تحمل العربية بثقافتها وأدبها وشعرها.

في صالة فندق الكونتننتال بقلب القاهرة تجلس الأديبة المصرية أماني فريد برفقة الحسين يتجاذبان أطراف الحديث كعادتهما. وقد أتي

إلى مصر بعد أن أحسّ أن الإقامة فيها لبعض الوقت يتيح له فتح نافذه يرى من خلالها العالم بشتى ضروبه، فمصر هي بوابة العالم ومركز مهم للتحصيل الثقافي والأدبي، قرأ كثيراً واطلع على الكثير، حتى أن غرفته بالفندق امتلأت بالمجلات والكتب، وهو كعادته، سريع القراءة وسريع الحِفظ، يحضر منتدى العقاد باستمرار، وهو عضو دائم في مجالس طه حسين التي تُسمى بحديثِ الأربعاء، وكثير الوجود مع الأدباء. يعرف مصر كما يعرف الخرطوم، فقد أتاها ثلاث مرّات، وفي فترات مختلفة، طالباً وتاجراً للإبل وسائحاً مُقيماً، اتهمه بعض من يعرفونه بأن هنالك علاقة غرامية تجمعه بأماني فريد، بل سألها بعضهم عن سرَّ هذه العلاقة، فتقول مبتسمة:

ـ قد يكون معجباً بي، ولكنّه لم يخطرني يوماً بذلك، وقد أكون معجبةً به، ولن أبوح له بهذا حتى ولو كنت كذلك، نحن نسبح معاً في أشياءٍ تتعدى الحب مما يعرفه وأعرفه، ونقضي أوقاتاً لم تترك لنا الثقافة وتبادل المعرفة فيه مساحةً لغيرها.

يمتلك الحسين مالا معقولاً، وهو حصاد زراعته التي تمكن منها وتأكد من استمراريتها، وكانت لتجارة الإبل فيها النصيب الأكبر من التحصيل عندما انتشر وذاع صيته في أمبابة، وأرسى في سوقها قواعداً تعود على التجار السودانيين بالفائدة حتى سُمّي بثعلب الإبل، بل إنه اشترى أرضاً بأمبابة واستأجرها للتجار بسعرٍ معقول حتى تكون مكاناً لتخزين إبلهم، ليضيف على ذلك إنشاء شركة تجارية سمّاها ما وراء البحار يشاركه فيها عبدالرحمن أبو حسبو وإبراهيم المقبول.

في يومٍ وهو في غرفته بالفندق، قرع الباب أحد العاملين فيه، وعندما خرج إليه أخبره بأن هنالك ثلاثة طُلّاب سودانيين ينتظروه في باحة الفندق، بدّل ملابسه سريعاً ونزل إليهم.

ثلاثة شباب يافعين من أبناء الخرطوم كما يبدو عليهم، صافحهم وجلس جوارهم، ثم أشعل سيجارته حين بادر أحدهم قائلاً:

ـ اسمي عبدالعزيز إبراهيم الريح، وهؤلاء زملائي، عبدالرحمن أبو زيد، وإبراهيم عباس، نحن ندرس في كلية فكتوريا، وقد طلبت منا إدارة

الكلية أن نحدِّد لها اسم شخص سوداني مُقيم هنا في مصر، حتى يكون ولي أمر شرفي يمكن الرجوع إليه إذا تطلب الأمر، وعندما راسلت والدي أمرني بالمجيء إلى هنا لتكون ولي أمري، ولأن زميلي ليس لديهما معارف هنا، أحضرتهما معي.

ابتسم الحسين وهو يقول لهم:

ـ نعم، أعرف أبوك وتجمعنا به صِلاة عِدّة، أتذكرك قبل سبع سنوات، كنت أنا في عمرك وأنت صغير.

سمِع منهم حديثاً كثيراً بعد أن سألهم عن أحوال البلد وأحوال أهلهم، وقام معهم بواجب الضيافة وأكثر، ثم وزّع عليهم مبلغاً من المال، وعندما همُّوا بالذهاب، قال لهم:

ـ على الرحب والسعة، لكم ما جئتم له، وأرجو منكم أن تتواصلوا معي في أي أمرٍ يعترض طريقكم.

***

ـ سألت عنك كثيراً، منذ متى وأنت هنا؟

أجاب حسين:

ـ تقريباً تسعة شهور.

أردف إسماعيل الأزهري قائلاً:

ـ الكلُّ يتحدّث عنك منذ خطابك في تأبين مولانا الشريف يوسف.

ابتسم الشريف وهو يقول:

ـ هذا من لطفك أستاذي.

أردف الشريف جوابه بقوله:

ـ لم أعلم بمجيئكم إلا بالأمس بعد أن ترك لي خالي مُذكِّرة في استقبال الفندق.

ـ نعم، أتينا بوفدٍ من الخريجين يمثل السودان بغرض القيام بالكثير من المباحثات المُتعلِّقة بالعلاقة المستقبلية بيننا وبينهم، نريد أيضاً أن نُناقش مصير البلاد بعد أن أعلنّا أحقيتنا في الاستقلال بعد خروج المُستعمر.

في تلك اللحظة نزل بقية أعضاء الوفد من غرفهم إلى صالة الفندق الذي يقيمون فيه، وكان بينهم خاله أحمد خير ويحيى الفضلي ومبارك زروق، صافحهم مُرحِّباً وجلس بعدها يستمِع إليهم، كان مجلسهم في ركن بعيد عن الضوضاء وكان قد أُعِدّ لهم حتى يُتاح لهم الحديث دون أن يسمعهم روّاد الفندق لحساسية ما يقولون، كان مستمعاً جيداً لما يقولون.

أحس هنا بنزعة كان يحسُّ بها تتكون في داخله، وهي رفضه لممارسة السادة أهل الطوائف والسجادات الصوفية وامتهانهم السياسة وإقحام أنفسهم فيما يشغلهم عن الواجب الأساسي والهام وهو بناء إنسان معتدل الفكر ومعافى من سموم التنازع والتجاذب التي أحدثته الأفكار الأيديولوجية الوافدة والتي تبعد الشباب كثيراً عن السمة السودانية

المُتميّزة، ويرى أن عليهم ترك أمور السياسة للمدنيين والمخضرمين من تيارات الوعي السودانية المختلفة، فالانقياد للطائفة يُعتبر انقياداً أعمي في الأساس، يفتقر إلى المنطق وواقع الحال، وقد يؤدِّي ذلك إلى نزاعات وخلافات جوهرية تؤدي إلى انفراط العقد والتماسك الاجتماعي الموجود. على الرغم من أن الوفد برئاسة إسماعيل الأزهري، إلا أنه رأى فيه بطريقته في إدارة الأمور، أشبه بمن لا إدارة له، فهو يبقيهم دائماً على تشاورٍ مستمر ويستمع ويعمل بكل الآراء التي تصدر منهم بشرط أن يوافق عليها الجميع.

لاحظ أيضاً بأن هناك انقساماً وشِقاقاً بين أعضاء الوفد، فهنالك من يرى بأن السودان للسودانيين ويجب أن يكون دولةً مُستقِلّة، وهناك من يظن أن خيار الوحدة مع مصر هو الأفضل، فاتّسع هنا الخلاف بين أحمد خير المحامي ويحيى الفضلي. لم تستهويه المشاركة معهم في شأن ما أتوا لأجله من أمور السياسة، هنالك الكثير من التحفظات تتداخله هنا وهناك، وهو أيضاً ليس عضواً معهم، وقد يكون عمره لا يتوافق مع خبرتهم ووطنيتهم التي لا يختلف عليها اثنان، على الرّغم من خلافاتهم العديدة، يرى بعضهم أنه شابٌّ كفء، وله من الذكاء والكياسة ما يجعله بينهم الآن وهو ابن الثالثة والعشرين ربيعاً، وكان مُطالباً بأن يُبدي رأيه في بعض الأمور ولكنه يرفُض احتراماً لخاله وخوفه من اتهامه بالميل إلى جهته في المواقف، الشيء الذي جعل يحيى الفضلي مُتحاملاً عليه ومؤكداً بأن الخرّيج الصغير بصمته هذا يؤكد بأنه يتعاطف مع خاله.

قلل الحسين من حضوره إليهم، يأتي فقط بين الفينة والأخرى ليطمئنّ عليهم، وانشغل ببعض الأعمال التجارية وبتحصيله والتهامه الكتب وحضور الجلسات الأدبية وإجراء المُقابلات الثقافية مع الكثير من الأدباء والشعراء الذين أنشأ وطوّر معهم علاقات قوية ومُتواصلة.

وبعد أن أتمّ الوفد شهراً كاملاً، ذهب إلى الفندق الذي يقيمون فيه، ودفع تكاليف الشهرين القادمين كاملة.

***

مشارف مدينة الكُرْمُك.. منتصف يوليو 1969م

ـ كيف لا تعرف وقد أتيت معنا دليلاً.

سأله الخليفة مصطفى فأجابه بعد أن دخله حرج شديد:

ـ أعتقد أن الطرق تغيرت، فسائقو السيارات يسيرون بطرقٍ عِدّة بعد كل خريف.

أصابتهم حيرة صاروا بعدها لا يدرون ماذا يفعلون، الطريق مجهول، والكرمك مدينة حدودية في باطنها كل تشكيلات الأجهزة الأمنية من جيش وشرطة وأمن، وخطوطهم مع الخرطوم ساخنة على مدار الساعة بضرورة تمشيط الحدود على الدوام، البقاء خطر، والرجوع يعتبر عملية انتحارية يكثُر فيه احتمالات القبض على الشريف بنسبةٍ كبيرة، لم يبد وكيل الإمام أي انطباع غير حرجه الذي فاق حرج دليله الذي أتى به، فقد أخفق في مهمةٍ حساسةٍ قد أوكله بها شيخه الإمام الهادي، قال الشريف كاسراً ذلك الصمت المُخيف:

ـ أقترح أن نُرسل علي العبيد إلى محمد أحمد، نائب دائرتنا في الكرمك وإخباره بما جرى، حتماً لديه حلول.

صمت الجميع لدقائق حتى قطع الخليفة مصطفى حبل تفكيرهم وهو يقول:

ـ ولكنّنا لا ندري أين هو، هل هو موجود في الكرمك؟ أم في مشاريعه خارج المدينة؟ ولا ننسى أن العيون ترصد كل داخلٍ إلى الكرمك، ومن الصعب السؤال عنه، لأنه بلا شكّ سيكون مراقباً.

شاركهم وكيل الإمام بعد أن تأكّد من أن نظرات الشريف والخليفة مصطفى لا تلومه في شيء، بل يعاملونه بكل احترام وامتنان، فقد عرّض نفسه لخطرٍ داهم لا يقل شيئاً عن الخطر الذي يحيط بهم، قال لهم:

ـ يمكننا المواصلة، نُحدِّد اتجاه الحدود، ونسير نحوه بطريقٍ غير مسلوك.

قال لهم الشريف بعد أن أشعل سيجارته وارتفع دُخانها أعلى شعره المُتّسخ المُتشابك:

ـ لا سبيل لنا إلا العودة، لن أقدِّم نفسي كالحَمَل الوديع لتسجنني سلطة غير شرعية ومُنقلبة على الديمقراطية، ولن أسمح لأيٍّ من كان أن يحبسني مع طاقاتي وأحرم نفسي وبلدي من مساهمتي في تحريرها من هذا الدكتاتور الوليد، لقد قلت هذا لأشقاء لنا فارقوني أثناء رحلتي، قلوبهم وآمالهم وأحلامهم معي والملايين غيرهم، ليست الشجاعة أن أقدِّم يديَّ مُختاراً للحبس، وحينها لن أكون أنا المسجون، ستكون طاقاتي هي الحبيسة.

صمت قليلاً، وحزم أمره، ثم قال:

ـ لقد فعلتها قبل شهرين من الآن، عدت إلى العاصمة في اليوم الثاني من الانقلاب، وكل من يلبس الكاكي يبحث عني، وقابلت من قابلت، كان آخرهم ابن عمي السيد محمد عثمان الذي نصحني بتسليم نفسي ثمّ نتفاوض، أخرجت مسدسي من جيبي وقلت له، «لن أسلِّم نفسي يا ابن العم، ومسدسي هذا فيه ثمان رصاصات، سأطلق عليهم سبع رصاصات قبل حتى أن يقتربوا مني، وسأطلق الثامنة في رأسي قبل أن يلمسوا منِّي شعرة".

قفز الخليفة مصطفى من مكانه خطوتين ووضع نفسه أمام الشريف ورفع رجله اليمنى عالياً وضرب بها الأرض وصاح بأعلى صوته والعَبرة قاربت أن تسدّ كلّ حلقه، صاح قائلاً:

ـ أبشر بالخير سيدي الشريف، على الطلاق قدامك ووراك، أبشر بالنبي.

قام الشريف بتهدئة ثورته قليلاً وواصل في حديثه:

ـ المكان هنا صار مجهولاً لدينا، ومراقب من قِبلهم على مدار الساعة، لذا سنعود، فمن الأفضل التحرّكُ في أمكنةٍ نعرفها، من أن نجازف هنا بدون دليل.

ما إن ذكر كلمة دليل حتى التفت أربعتهم صوب الشاب، الآن أدرك كل ما كان مجهولاً عنه، وتأكّد بأنّ الكل يجري خلف هذا الرجل للقبض

عليه، والجميع يُفكر في أمر معالجة هذه المعضلة، سيعودون وسيكون ذلك الشاب طليقاً، ومن الصعب التنبؤ بصمته، سهلٌ جدًّا أن يحكي لغيره، وقريته كلها تعلم بأنه ذهب مع وكيل الإمام، ليس هنالك حلٌّ إلا التوكُّل وإنزاله في المكان الذي أخذوه منه، انتبه سائقهم شوقار قائلاً:

ـ إذا أردتم العودة فيستحسن أن يكون ذلك الآن، انظروا إلى السحاب، إذا هطل قبل أن نقطع مسافةً مُقدّرة سيطول بقاؤنا في الطريق، وعلينا أيضاً أن نتزوّد بالوقود من أقرب نقطة نصل إليها.

توجهوا نحو اللاندروفر بعد هذا التنبيه، ركِب وكيل الإمام وعلي العبيد مع شوقار في المُقدِّمة، بينما ركِب الخليفة مصطفى والشريف حسين والدليل في ذيلها، بعد أن افترش لهما الأخير البطاطين تحتهما وقايةً من حركة العربة مع وعورة الطريق، ينظر الخليفة نحو الشريف حسين وقد بلغ منه التّعب أشده، وجه شاحب وحمى تزوره في اليوم ثلاث مرّات، وقلّة أكل وإكثار في التدخين، قد يكون معتاداً على ذلك الرهق إبان تقلده المناصب الوزارية وحمله هموم الناس، ولكن الأمر هنا يختلف كثيراً، فتلك الرحلة شاقة وقاسية عليه.

بدأ جسده في النحول وعيناه تضيقان وتغوران قليلاً داخل محاجرهما، ولكنه لا زال محتفظاً بهيبته وجاذبيته وتأثيره الساحر على من حوله.

انطلقت العربة في طريق الرجوع، يتمعّن الخليفة في الشريف إشفاقاً، ويتذكّر قدرة الله في ترتيب الأقدار وتسييرها إلى أن وصل هنا مع الشريف، ويتذكّر وجه أبي الحسين، الشريف يوسف الهندي، عندما دخل عليه وهو في السابعة عشرة من عمره، كان ذلك عام سبعة وثلاثين، والحسين في فكتوريا، قال له ود الهندي صباح مجيئه بُرِّي:

ـ كيف حالك يا ود العمدة، وكيف أبوك؟.

رد مصطفى ووجهه على الأرض:

ـ بخير شيخنا، ويقرئك السلام.

أضاف قائلاً:

ـ ها، ما الذي أتى بك؟

أجابه:

ـ لم أتمّ حفظ القرآن بسبب وفاة الفكي عبدالله ود ردّاد كما تعلم شيخنا، وليس هناك من يتمّه لنا، لذا جئت لكي تدعو لي بالخير لأنني عزمت السّفر إلى القضارف لأعمل هناك في المشاريع.

رد عليه الشريف بحسمٍ شديد:

ـ أبوك يريدك أن تحفظ القرآن، ولا سبيل لك غير ذلك، أنا أراه في وجهك، ستعود ويعود معك عمّك الفكي عوض الكريم ليكملة لكم.

عمه عوض الكريم من أوائل الذين حفظوا القرآن على يد الفكي عبدالله ود ردّاد في قرية ملولحة، وجاء بُرّي ليلازم الشريف يوسف، ولا ينوي العودة قريباً، ولكن مشروعه فشل بعد أن أُمِر بالعودة لإشعال تُقّابة القرآن.

عاد الخليفة مصطفى إلى بُرّي بعد عامين وقد أتمّ القرآن حفظاً وتجويداً، أرسله أبوه العمدة لكي يبارك له الشريف يوسف ويدعو له بالخير، وفي قلبه تجدّد فقدانه لابنه البكر أحمد الذي توفى بعد أن حفِظ القرآن وهو في نفس عمر الخليفة مصطفى، سِعد الشريف به وأدخله في السراية البحرية ليؤكد حِفظه للقرآن بمُراجعته أمام الخليفة مُختار ود الترابي والخليفة الأمين ود صالح، قضى معهما خمسة أيام أبلغا بعدها الشريف يوسف بحفظه وتجويده، أكرمه وذبح له وكساه ثياباً جديدة.

يذكر الخليفة مصطفى ملازمته له بعد ذلك عاماً كاملاً قضاه في خدمته، كيف هي المعاناة عندما تتشابه، معاناة المُتجوِّل المُطارد المنهوك المكدود كالحسين من أجل الحرية والخلاص، ووقوف أبيه الذي لا يبرح مكانه من أجل إبصار المسلمين لجلال قدره وسنة رسوله، ونار وجبات الزائرين لا تنطفئ، وقلمه لا يجف، وعبادته متصلةٌ ليل نهار، لا يأكل الشهي من الطعام، ولا يزدرد أطايب الشراب، أياديه بيضاء كالسحاب الذي يهطل في أي مكان، حمل الهموم حتى نحُل ورقّ عوده. كما حملها وقد كان صغيراً، عندما وقف أبيه الشريف محمد الأمين على شفّةِ نهر الرهد مُتوجّهاً إلى كردفان لمقابلة المهدي، فكان بين خيارين لا ثالث لهما، إمّا الذهاب إلى المهدي بعد خطابه إليه، وإما بنادق وسيوف الأتراك إذا

صادفوه في الطّريق، نظر إليه وهو غضٌّ صغير لم يتجاوز السابعة وأمه ماسكة بيده، قال له:

ـ هل ستذهب معي يا يوسف؟ أم ستبقى مع أمك؟

رفع رأسه إليه وشيء صامت دار بين عينيهما، ورفع رأسه ينظر أمّه شموم بنت الأرباب ود الزين، والدموع تسيل على وجنتيها رويَّة، قال مُجيباً:

ـ أحبُّ اليّ أن أذهب معك، ولكنِّي لن أترك أمي وحدها، سأبقى معها.

توجّهوا نحو مكان ميلاده بقرية الشريف يعقوب فكانت مكاناً مكشوفاً إذا قصد الأتراك التشفِّي مِن أسرةٍ من ذهب ليدعم المهدي، فذهبت شموم بابنها الشريف يوسف إلى قرية الدناقلة التي ترقد على النيل الأزرق، وتناوب حول مكان إقامتهم الرجال ليحموهم.

هل هذا هو ديدن آل البيت وقسمتهم في هذه الدنيا الفانية، ابتلاءات وراء ابتلاءات، ومعاناة لا تنقطع، فمنذ سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما، والذي توسّط الصحراء باحثاً عن طريق ليأمن وأهله من بطش يزيد حتى وصل كربلاء، فحدث ما لا يصدقه العقل ولا يستوعبه المنطق، أبيدوا عن آخرهم إلا النساء والإمام على زين العابدين، وقبله جده علي عندما أدمى سيف ابن ملجم رأسه ليستشهد داخل المسجد وهو ذلك الأسد الذي قطع رؤوس الفرسان والشجعان.

آل بيت النبي صلوات الله عليه سلسلة من التضحيات لا تنقطع، وسيرةٌ ملؤها العذابات المُتتالية لكلّ جيل يأتي منهم إلى هذه الدنيا، هذه هي الأقدار وإرادة الله ليُذهب عنهم الرِّجس ويطهرهم تطهيراً. انقطع حبل تفكير الخليفة مصطفى إثر صوت إطار العربة الأمامي والذي انفجر بصوتٍ مدوٍّ مخلِّفاً ضجيجاً هائلاً في ذلك الليل الذي لا يُسمع فيه إلا أصوات الجنادب، ونقيق الضفادع، وحفيف الأشجار.

***

القاهرة.. فبراير 1955م

خرج الأستاذ خضر حمد الشهير بخضر الديمقراطي من مكتب أحد أصدقائه في القاهرة، تلك المدينة التي يعرفها ويحفظ شوارعها وأزقتها كما يحفظ الخرطوم تماماً، أدخل كفي يديه داخل جيوبه وهو يريد لهما التدفئه، لم يتبقّ من جسده شيء إلا وجهه الذي يتزيّن بشلوخٍ طوليةٍ لامعة، وأخذ يسير نحو شقته الكائنة في وسط البلد، تأخذه بعض الذكريات التي كان فيها موظفاً في الإدارة المالية بجامعة الدول العربية، وشيئاً من أيام تكوينهم لمؤتمر الخريجين مع رفاقه، وبينما هو سابحٌ في بحور ذكرياته أوقفه شاب عربي مادًّا يده إليه، صافحة خضر قائلاً:

ـ أهلاً بك.

صمت الشاب قليلاً وهو يتلفّت يميناً ويساراً، شعر خضر ببعض القلق تجاهه، هدأ الشاب قليلاً وقال:

ـ أنا أحمد، من دولة الجزائر.

ازدادت حيرة الأستاذ خضر وعقد حاجبيه قبل أن يقول له:

ـ بماذا أستطيع مساعدتك؟.

أجابه الشاب سريعاً وقد أخفض صوته وصار أقرب إلى الهمس:

ـ جئت قبل يومين، أرسلوني لتوصيل رسالة لكم.

لم تنفكّ حاجباه إلا وعادتا في انعقادهما وهو يقول:

ـ من أنتم؟

أجابه:

ـ نحن جبهة تحرير الجزائر، ولديّ رسالة من القائد أحمد بن بيلا.

مدّ إليه ظرفاً بني اللون، تلفّت خضر حمد وفتحه عندما اطمأن بعدمِ وجودِ أحد بقربهم، وجد فيه:

"الإخوة في جبهة استقلال السودان الشقيق، السلام عليكم ورحمة الله، نعلمكم بأننا محاصرون في الجبال، وقد داهم رجالنا الجوع،

ونفذت منّا الذخيرة، نتعشّم في أن تنقذونا يا ثُوّار السودان، فدولة مصر مُحاصرة بعد أن أغلق الإنجليز كلّ منافذها، أيها السودانيون الشُرفاء، أنقذونا وأنقذوا ثوّار الجزائر وثورتهم، رجالنا في جبال الأحجار، ويتفرّقون في الحدود المتاخمة لمنطقة غات الليبية، أحمد بن بيلا".

لم يستطع منع قطرات دموعه من النزول بعد فراغه من قراءتها، ربت على كتفه مبتسماً وهو يقول له:

"أبلغهم بأنني سأرسل للزعيم الأزهري الرسالة على وجه السرعة والسريَّة، وبإذن الله سنتواصل معهم ونُجرِي باللازم في أقرب وقت".

قرّر فور وداعه الشاب الجزائري بأن لا تبيت الرسالة في جيبه حتى الصباح، وتوجّه يسأل باحثاً عن شخص يمكن الوُثوق به لتوصيل الرسالة إلى الأزهري، سأل أصدقاءه إذا كانوا يعرفون من يريد العودة إلى الخرطوم بحجة أن لديه دواء يجب توصيله إلى أقربائه، أرشدوه إلى طالب سوداني من أسرة ميسورة الحال، اسمه حسين عثمان منصور، سلمها له بعد أن أخبره بسريتها وخطورتها، وأوصاه بأن يُخبِّئها جيداً حتى لا تقع في أيدي الإنجليز على الحدود، وعند وصوله الخرطوم بدأ يسأل ويتلمّس الطُّرق التي تؤدي إلى مقابلة الأزهري، وبعد أن نجح في الوصول إلى داره بأم درمان، دخل عليه بعد قرعِه الباب، قادوه إلى باحة المنزل، وجد الزعيم في انتظاره وهو متأهب للخروج وهو في كامل حلّته البيضاء القطنية.

صافحه، ثم ناوله الخطاب، فتح الزعيم خطاب بن بيلا ولم يخفِ ذلك التأثُّر الذي بدا على وجهه، شكر الشاب على مجهوده الكبير الذي لم يخلُ من الخطر، أخذ الشريف يُفكِّر في كيفية تهيئة هذه المؤونة ومعها السلاح، وإعداد الخطة الناجعة بحيث لا يكتشف الإنجليز أو الفرنسيين الأمر، وسر نجاح الخطّة يكمُن في الشخص المناسب الذي سيختاره لتنفيذها، الشخص المناسب، يا تُرى، من هو الرجل المناسب؟ فجأةً تهلّلت أساريره مُبتسماً، فقد وجده، وجد الشخص المناسب، وليس غيره باستطاعته القيام بهذه المهمة الحساسة، وفور وصوله مكتبه استدعي الأستاذ حسن نجيلة خرّيج علوم الدين واللغة العربية

من مدارس العرفات بأم درمان، والذي طاف زماناً مُعلماً في مدارس بادية الكبابيش المُتنقِّلة، تلك القبيلة التي تمتدّ من كردفان وحتى الحدود الليبية، بالإضافة إلى أنّها تمتاز بغزارة الثروة الحيوانية، وبالأخص الإبل، وهي ما يريدون، وبعد اطلاعه على فحوى رسالة بن بيلا قال له:

ـ أظنك عرفت الآن لم اخترتك لتكون ضمن الفريق الذي سيخطط لهذه المُهمّة.

ابتسم حسن نجيلة قائلاً:

ـ بالتأكيد.

تساءل الأزهري:

ـ الأمر شائك بالنسبة لي، فقبل يومين ذهبنا إلى عزاء ناظر الكبابيش السير علي التوم رحمة الله عليه في منزلهم بحي العرب كما تعلم، ولا أدري كيف هو ابنه حسن الذي نُصِّب بعده، وكيف سيتجاوب معنا؟

ابتسم حسن نجيله ورد عليه:

ـ اطمئن يا زعيم، فهذه الأسرة حباها الله بثلاث صفات، الحكمة والشجاعة والكرم، وإذا جلست مع الناظر حسن، فكأنّك تجلس إلى أبيه.

ارتياحٌ بدا على الزعيم حين قال:

ـ إذاً حدِّد لنا موعداً معه، غداً بعد العصر، سآتي ومعي مبارك زرُّق، وأرجوا أن لا ينتظرنا غير الناظر حسن، وأنت.

***

في غرفةٍ جانبية بداخلِ منزل الراحل الناظر السير علي التوم بحي العرب، جلس الأزهري ومبارك زرُّوق وحسن نجيلة والناظر حسن التوم، ابتدر الأزهري الحديث وقال:

ـ نشكر لك استجابتك لهذه الجلسة، ولولا حساسية الموضوع وعجلته لما أتيناك وأنت في هذه الظروف، ولانتظرنا حتى تعود لنزوركم في أم سُنطة.

أجابه الشاب الذي تبدو على ملامحه الجديّة، ولا تخلو تلك الملامح من لقطاتٍ مُطابِقة لوجه أبيه:

ـ نحن وما لدينا رهن إشارتكم يا زعيم، هنا داركم وأم سُنطة داركم، حبابكم عشرة متى ما أتيتم إلينا.

تدخّل مبارك زرق وهو يقول:

ـ أعتقد أن اجتماعنا لن يطول، فكلّ واحد مِنّا مُطّلع على المُهمّة، سنقوم بتهيئة المؤن الغذائية والسلاح كما قال أزهري، على أن يتمّ نقلها عبر الحدود حتى تصل إلى الحدود الليبية الجزائرية، وهذا لا يتمّ إلا بالإبل، وهذا أيضاً ما دعانا إلى لقائك السيد الناظر.

صمت الناظر الشاب لثوانٍ ليرتِّب حديثه الذي أعدّه مُسبقاً فور علمه بحضور الزّعيم إليه، فهذه أولى المهام الوطنية التي تُلقى على عاتقه بعد وفاة أبيه، وقف على رجليه وقال بصوت منخفض، ولكنه لا يخلو من حماسٍ وشجاعة:

ـ أولاً، نحن في قبيلة الكبابيش سعُداء بحضور الزعيم الأزهري في داره قبل أن تكون دارنا، وأقول له بأننا رهن إشارته وطوع أمره، ونتشرّف أيما شرف بأن نُشارك في هذا العمل القومي والوطني، وأتبرّع بعدد مائة وخمسين رأساً من الإبل بدليلها، تحمل هذه المؤن إلى ثوار الجزائر ولا تعود، وتكون لهم يترحلّون بها ويأكلون منها، ولا يعود منها إلا جِمال الأدِلّاء التي يركبون عليها.

ابتسم الحضور وشكروا الناظر حسن على تلك الكلمات التي توازن الذهب والتي سيحفظها التاريخ، وصدق الأستاذ حسن نجيلة عندما قال

للزعيم:

”إذا جلست مع الناظر حسن، فكأنّك تجلس إلى أبيه“، قطع عليهم مبارك زروق وصلة كلمات شكرهم عندما قال مُتسائلاً:

- ألا ترون بأنّ هذه الرحلة تحتاج إلى دليلٍ بمواصفاتٍ خاصة تجمع ما بين الذكاء والدهاء والسياسة وحسن التصرُّف؟

وقبل أن يُجيبه الزعيم، دخل عليهم الشريف حسين الهندي، صافحهم وجلس، أشعل سيجارته وأخذ منها نفساً عميقاً حين قال الأزهري:

- الشريف حسين هو الذي سيُرافِق المؤونة والسلاح إلى جبهة تحرير الجزائر، وسنُطلق على هذه المُهِمّة اسم (أسود الجبال).

***

طريق العودة إلى الجزيرة أبا..
السابع عشر من يوليو 1969م

خضرة على مدّ البصر، تكسو الأرض والتلال المُنخفضة، رذاذ خفيف يهطل هذا الصباح، تختلط حبّاته بأوراق الحشائش وأزهارها وجذوع الأشجار، تخرج الشمس في بهاءٍ وروعة، وترسل أشعتها فتتوهج الأرض بلونٍ ذهبي هادئ، تلك اللوحة الإلهية البديعة لم تمنع وعورة الطريق بعد أن لانت الأرض بفعل الأمطار، فتارةً طينية تجعل صندوق السيارة يجول يميناً ويساراً كذيل ثعبان، وتارةً شبه حجرية فتقفز السيارة براكبيها في خشونةٍ وعنف فيرتفعون قليلاً ليرتطموا بصندوق السيارة، وعندما ارتفعت الشمس قليلاً مروا بمنحنًى مُرتفع تتفرّق فيه أغنام ونعاج مع راعيها، وقفوا بطلبٍ من وكيل الإمام حين توقّف المطر، افترشوا ما يتغطّون به وجلسوا في إعياءٍ بدا على وجوههم وأجسادهم، ذهب شوقار وطلب من راعي الأغنام أن يحلب لهم شيئاً من اللّبن، أوقدوا النار ليصنعوا بها شاياً واتكأ الحسين بعد أن صلّى فروضه حين قال وكيل الإمام:

ـ الوقت باكراً، علينا أن لا نمكث هُنا كثيراً، فهذا الطريق ملتقى للكثير من الطُّرق المُتفرّقه وسيضجّ بعد قليل بالناس والسيارات.

أمسك الجميع أكواب الشاي الساخن وزاورهم النشاط بعد أوّل شرفتين منه، بدأ وكيل الإمام يتحدّث عن الحال التي ستؤول لها البلاد بعد أن أجهز النميري على الديمقراطية، وبدا وكأنه يسأل الحسين:

ـ يا تُرى، إلى أين ستسير هذه البلاد؟

أخذ الحسين نفساً عميقاً من سيجارته التي شارفت على الاحتراق، وخرج دخّانها عبر فمه وأنفه، أبطأ قليلاً في الحديث وكأنه يُفكّر في شيء، قذف بالسيجارة بعيداً حين قال:

ـ مرّت بلادنا بأحوال فيها تشابه كبير، نفس الظروف التي كانت تمر

بها قبل اندلاع الثورة المهدية، وأثناء حكم الاستعمار الثنائي أو المثلث، وهو ما كنت أتصوره وأجزم بحدوثه من جوعٍ ومن قهرٍ اقتصادي وحكمٍ بوليسي، وما كنت أعلمه من تدهور أخلاقي أخاف أن يحدث مُجدّداً، بل يمكنني أن أجزم أنّه لا محالة سيحدث، ينتابني إحساس مُستمر بضرورة تجمع كل القوى للدفاع عن مقدسات وطننا وكياناته، وعن حقوق الإنسان فيه، يجب أن يكون هذا الوطن إرثاً لكل السودانيين، ليس عقاراً لأسرة، ولا ضِياعاً لطائفة، ما أكبرها وأعظمها لو ظلت كذلك، دون أن يشوِّه المعتدون قيادتها ويجعلون منها معسكرات للمليشيات، ودون أن تكون ثمناً لمساومة الطامعين في خيراتها.

كثيراً ما يتحدّث الحسين عن تفاصيل لا يتحدّث فيها إلا من يجلس داخل مكتب مهيب وخلف مكتبٍ فخم، تجده يسأل عن الناس وهو في أضيق الظروف وتحيط به الالتزامات من كلِّ جانب، ويفكِّر والخطر يحدِق حوله، ويبتسم في ثِقلٍ وثقةٍ وهو مُطارد ومطلوب لدى دولة أمنية تُقلِّب طوب الأرض للبحث عنه، ارتفعت الشمس قليلاً وبدأت حبّات الندى في التقلُّص، تساءل الخليفة مصطفى قبل أن يهمُّوا بالتحرُّكِ واستئناف عودتهم:

ـ أخاف أن يضيِّقوا على الإمام الهادي، هل يمكن أن يُفكِّروا في خطورة الجزيرة أبا وقد امتلأت بالسياسيين المعارضين ولا زالت النقطة التي لم تنصاع لهم، أو قد يحاولون التفرقة بيننا والأنصار بعد معرفتهم الوثيقة التي وقّعناها؟

ابتسم الحسين قائلاً:

ـ الخطورة واردة يا مصطفى، فالطريقة التي بدأت بها ثورتهم المزعومة المستوردة تؤكِّد أنهم سيخرصون كلّ لسان لا يلهج بها، أمّ الوقيعة فهي ما كانوا يفعلونه في السابق، هل تذكر أنّهم كانوا يدّعون زوراً وبهتاناً بأننا الاتحاديين نشتُم الأنصار ونُحقِّرهم؟ ويعلمون عِلم اليقين بأنّنا نعرف روابط الكفاح في التاريخ القديم والحديث، نحن وقود الثورة الأولى والثانية، ونحن الذين ربط بيننا الإمام المهدي وهو يقود ثورة قومية ووطنية ضد الاستعمار، ثم ربط بيننا أخيراً إمام آخر، هو صورة وأصل

من الإمام الأول لا يقلّ عنه في شيء، في دفاعه عن الدين والوطن.
ووقف الحسين وقد تغيّرت ملامحه لشيء أقرب إلى الغضب، وبدا يتحدّث وكأنه يُلقي خطبة أمام حشدٍ من الجماهير، ليواصل قائلاً:
ـ هو الذي يعرف أقدار الرجال، ويمنعه دينه وتعصمه وطنيته من الارتماء في أحضان الاستعمار، قديماً كان أو جديداً، هو الذي يجمع ولا يفرِّق، ويُقرِّب ولا يُبعِد، ويُوطِّد ولا يُبدِّد، ثمّ هو واضحٌ وضوح الشّمس، وماضٍ مضاء السيف، يمنعه خلقه من اتِّباع أسلوب الهمس في الغرف المغلقة، والحسابات النقدية للربح والخسارة، والجري وراء الطموح المجنون للسلطة، جادٌّ في كلّ أمرٍ يخصّ وطنه ومواطنيه، ولا يقبل لنفسه ولا تاريخه أن يضع شخصه وأطماعه وطموحاته في كفة، وفي الكفة الأخرى مستقبل بلاده ومقوماتها واستقلالها وكرامة مواطنيها، هل يجوز أن يتركها الإمام أو أتركها أنا فتُوكل لرجلٍ مثل هذا؟ هل تُترك له مقدسات الخلاص الوطني صلحاً أم حرباً؟ أو تترك له مقدرات شعب ومستقبله وأجياله الحالية والمقبلة حتى يقيسها على نفسه، مثلما يقيس أي شخص ملابسه وأحذيته؟ لا وألف لا، سنتدثّر بقضايانا التي نؤمن بها حتى يأخذ الله هذه الروح ويضمنا لحد الأرض المُظلم.
انطلقت العربة حتى قاصدت قرية قُلي التي منها الدّليل الشاب، توقّفوا جانب الطّريق لينزلوه، الآن سيتركون سرّهم عند شخص ليس معهم وليس منهم، كانت عيونهم تغمره بالرجاء أن يكتم ما رآه وسمِعه، وقف جواره وكيل الإمام وهمس في أذنهِ بجملٍ لم يسمعوا منها غير كلمة الإمام الهادي، تذكّر الخليفة مصطفى ما يحمله من المبالغ التي أعطاها له الاتحاديون في جولته، وهي التي يصرِفون منها في الطريق، ولكن قبل ذلك قال للشريف حسين:
ـ هل سنتركه يذهب يا الشريف؟
ابتسم الحسين وهو يقول:
ـ وماذا سنفعل له، هل نقتله؟
ازداد قلق الخليفة مصطفى وأردف وقال:
ـ يمكن أن نقنعه بالذهاب معنا.

ـ هذا يُسمّى اعتقال، أو اختطاف بالمعني الأصح.
ـ إذن ماذا؟

ـ الكل يعلم أننا نجول باحثين عن الخروج، ولن يضيف لهم شيئاً غير أنّه إذا كشف أمرنا لهم سيُكثِّفون البحث وتعلو وتيرته، الأفضل أن نتركه بدلاً من اصطحابه، فوجوده معنا قد يُشكل لنا خطراً من نوعٍ آخر، اعطه ما تبقّى لك من مال.

أدخل الخليفة يده في عراقيه وهو يقول:

ـ أنا أيضاً فكّرت في هذا.

أخرج كلّ ما تبقى عنده وقفز من العربة وتوجه نحوه ومدّ له المبلغ وهو يقول له مجامِلاً وشاكراً:

ـ هذه هدية الشريف، وهو يشكرك كثيراً على المجهود الذي بذلته معنا والتعب الذي أصابك.

ابتسم وتوجه نحو الشريف وقال له:

ـ حتى وإن لم تُعطني هذا المال، أُقسم لك بأنّ ما رأيته وسمعته هنا، سأتركه هنا، ولا أظنّ ضميري سيتركني وشأني إذا خُنت رجلاً شجاعاً وشريفاً مثلك.

أثنى عليه الشريف، وداس شوقار دواسة الوقود مُواصلين مسيرتهم حتى وصلوا نواحي قرية جِرِيوَة بعد مُنتصف النّهار، وأخذ شوقار يتفنّن في الخروج من مجرى الطريق الرئيسي كلمّا وجد آخر صغيراً يوازيه بحسب خبرته في المنطقة، وحسناً فعل عندما وجد مشروعًا زراعيًّا تجوب فيه التراكتورات جيئةً وذهاباً، توقفوا وأقنعوا سائقيها بإعطائهم جركانتين من الجازولين، وكانوا جشعين حين باعوه لهم بخمسة أضعاف الثمن، وعند دخولهم مرةً أخرى في مجرى طريق الدالي والمزموم، وجدوا أمامهم عربة بوكس فيها ثلاثة أفراد من الشرطة وسائقهم، العربة متوقّفة، ويظهر عليها أنّ أحد إطاراتها قد انفجر، فأوقفوهم، كان موقفاً خطراً للغاية، ولكن ليس هناك سبيل غير الوقوف، فتجاوزهم يثير التساؤل ويضع علامة استفهام قد تجعلهم يلاحظون غرابة موقفهم، خصوصاً وأن ديدن وأدبيات الطريق في غالبية مناطق السودان الوقوف والمُساعدة.

لحظة انكمش فيها الجميع وجعلت أنفاسهم تتعالى وقلوبهم تخفق، كان عليهم التظاهر بأنهم عمال، ساعدهم اتساخ ملابسهم وهيئتهم المُنهكة على ذلك، فاستلقى الخليفة مصطفى والشريف في خلفية العربة وكأنّ قد أهلكم العمل، وأمسك الشريف مسدّسه وجعله في وضع الإطلاق، نزل شوقار وتوجه إليهم، وفجأةً علا صوت شوقار مُحيياً أحدهم باسمه، صافحهم متسائلاً عن عطل سيارتهم، فأخبروه بأنهم يحتاجون إلى رافعة لتغيير إطارات الذي انفجر، عاد إلى اللاندروفر وأخذها وبدأ في مساعدتهم بصورةٍ طبيعية لم يبدِ فيها أي عجلة أو توتُّر، سألوه عن من معه وهم يسمعون فقال لهم إنّ هذا أحد التجار اشترى مشروعًا زراعيًّا جديدًا وهو يباشر أعمال الزراعة فيه مع عُمّاله.

انتهوا من إصلاح العربة وتبادلوا التحيّة مع وكيل الإمام وسألهم شوقار عن وجهتهم فأجابوه بأنهم قد استدعوهم وكثيرين مثلهم إلى الكرمك لتعزيز الحدود، تحرّكوا حتى غابوا عن الإنظار، مرّت تلك اللحظات كعامٍ كامل في بطئها، ثم واصلوا طريقهم وقد تضاعف عليهم التّعب والرهق والهموم، والكلّ يُفكِّر، كيف هي العودة إلى الجزيرة أبا معقل الأنصار ومركز قائدها الإمام؟ كلمات الحسين في الصباح ترنُّ في آذانهم، وحديثه عن المهدي حديث العارفين لهم، والتاريخ والأحداث يشهدان روابط العلاقات وتجذُّرها، يذكر التاريخ القريب رحيل الشريف محمد الأمين الهندي على ضفاف تلك التُّردة الهائلة بالرهد أبو دكنة بعد ثلاثة أيام من المرض، وافى حينها المهدي بعد معركة الأبيض وبارا الشهيرتين، ووجدوا في الرهد أبو دكنة الملاذ الآمن للبقاء إلى حين مداواة جروح الجند والاستجمام بين الظلِّ والماء، وهي منطقة شائكة وغزيرة الأشجار ويصعب على الأتراك الولوج بداخلها، لم يكن في نيّة الشريف محمد الأمين الحضور إلى المهدي بسبب ذلك الخطاب وحده، بل أتى إليه ناصِحاً ومُذكِّراً له واجبه تجاه المسلمين، ولم يكن هذا هو أوّل لقاء بينهما، فقد أتى إليه المهدي في قرية الشريف يعقوب عندما كان شابًّا وفي بدايات تفكيره التبشير بمحاربة الأتراك، أنزله الشريف وأكرمه ولم يبخل عليه بالمشورة والنصائح.

مرض الشريف عند وصوله مع مريديه الذين اختاروا مشاركته الرحلة، ومعه أيضاً ابنه البِكر الشريف علي، قابل الإمام المهدي وزاد عليه المرض حتى عجِز عن الحركة، أمر المهدي جيشه بالتأني قليلاً حتى يشفى الشريف، بينما رفض عبدالله التعايشي المكوث داخل هذه الغابة أكثر من اللازم، فقد يتجمع الهاربون من الأتراك من معركة الأبيض وبارا مع تعزيزاتهم العسكرية ويجهزوا عليهم حين غفلةٍ في هذا المكان، ولكن المهدي عزِم على الانتظار، وفي اليوم الثالث من وصول الشريف خرجت روحه إلى بارئها، غسله ابنه الشريف علي وصلى عليه الإمام المهدي، وحُفِر له القبر مُلاصِقاً للبُحيرة، أنزله لحده ابنه والإمام وعبدالله التعايشي وغادر بعدها الجيش المكان، وتحقّقت الرؤية، تلك التي رآها الشريف محمد الأمين في منامه قبل سنوات، جاءه هاتف في النوم وقال له:

ـ سيكون قبرك في الرهد.

لم يكن هذا مُستغرباً، فنهر الرهد هو من تطلّ عليه قُراه التي تربّع وترعرع فيها، وجواره أضاءت نيرات تُقَّابته صفحة النهر وسمائه، ولكن عندما لحِق بالمهدي ومرض سأل ابنه عليًّا:

ـ ما اسم هذا المكان؟

ردّ عليه قائلاً:

ـ قالوا أنّ اسمه الرهد.

ابتسم وقال:

ـ سبحان الله، أيوجد رهدٌ آخر غير الذي جئنا منه؟

وحينها أدرك بأنه سيرحل فوق هذه الأرض ويُدفَن فيها، غادر الجيش، وحاصر الخرطوم، وقُتِلَ غردون، ودخل المهدي منصوراً وظافِراً، ووقف على ضِفاف النيل الأبيض وهو يركب فوق جملِه الضَّخم وخلفه الآلاف من أتباعه، استوقفه طفل عمره ثمانية أعوام وحوله رجال يحرسونه، نزل من بعيره وتوجه نحوه وسأل الرجال:

ـ من هذا الولد.

رد أحدهم قائلاً:

ـ إنه الشريف يوسف ابن الشريف محمد الأمين الهندي.

جلس الإمام المهدي على رجليه بعد أن ثنا ركبتيه ليساوي الولد طولاً، صافحه ووضع يده على كتفه الصغير وقال له مُتأثراً:

- والدك يحبّك جدًّا يا يوسف.

ردّ عليه والذكاء يتّقد من عينيه:

- وأنا أحبه كثيراً، أحكي لي لحظات فراقه وصِف لي قبره.

ابتسم الإمام المهدي وقال له:

- حسناً سأخبرك، أخبرني أولاً، مع من أتيت؟

أجاب قائلاً:

- أهلي وأمّي.

ابتسم الإمام وهو يقول له:

- ستركب معي هذا الجمل، وسنقطع هذا النّهر بالمخاضة إلى أبو سِعِد في الضفّة الأخرى، هل تُوافق.

أجابه سريعاً:

- نعم أوافق.

رِكب الشريف يوسف خلف المهدي وقال بأنّه كان يرى من خلاله أُذني الجمل ودوماته وكل ذلك المشهد المهيب الذي أمامه، وتبعه النّاس.

***

ديار الكبابيش.. أم سُنطة.. أوائل مارس 1955م

وصلت خمسة لواري تتقدّمهما عربة لاندروفر بعد منتصف الليل إلى قرية أم سنطة التي تُعتبر مركز نظارة قبيلة الكبابيش.

نزل الشريف حسين والناظر حسن التوم من العربة وأشرفا على إنزال المواد الغذائية والسلاح بواسطة شبابٍ أشداء في رواكيب من القش، وعندما فرغوا ضربوا سياجاً حولها للحراسة، بينما ذهب الحسين ليأخذ قسطاً من الراحة والنوم. لم يكن هنالك وقت، فقد استغرقت عملية تجهيز اللواري وما فيها ثلاثة أيام بعد اجتماع حي العرب، وأخذ منهم الطريق سبعة أيام بلياليها، ولكنّ الناظر استثمرها جيداً، فقد استنفر أمراءه وجميعهم يُعتَبرون أبناء عمومته في جبرة الشيخ وحمرة الوز والجمّام وسُودري وحَمْرة الشيخ، وضرب لهم موعداً بأن يُرسِلوا له أعداداً من إبلهم المُتفرِّقة في البادية. وبما أن الأزهري قد أرسل خطاباً إلى خضر حمد يخبره فيه أن المهمة جارية التنفيذ، وطلب منه إبلاغ جبهة التحرير بذلك، فقد آثروا الإسراع في تجهيز القافلة.

كانت الإبل بكامل عددها جاهزة بعد أربعة أيام من وصولهم، وبدأوا في تهيئة خطة المسير التي تعتمد على الدليل المُتمكِّن، وإخفاء الأسلحة، والسير في طُرقٍ غير معروفة، تفاجأ الناظر حسن التوم بإمكانيات الشريف حسين الفريدة ومعرفته الدقيقة بالطرق التي تقود إلى دنقلا وليبيا ومصر، وقد سمِع عنه كثيراً من تجارهم الذين يذهبون بالإبل إلى مصر، كان يسأله دون توقُّف عن تجارته التي دوخ بها أعتى تُجّار الإبل في أمبابة، وفي أثناء ذلك، برع الشريف في إخفاء الأسلحة التي تتكون من مائتي بندقية الية ومائة مسدس بذخيرتها، حُشِرت الذخيرة بين المواد الغذائية وصارت جُزءاً لا يتجزّأ منها، وخُيِّطت البنادق بحبال رقيقة تحت مخاليف الإبل وتحتها مساند من القطن والصوف حتى لا تؤثِّر على ظهور الجِمال، ووُضِعت فوقها المواد والذخيرة بداخلِ جوالاتٍ كبيرة،

صاح الناظر على أحد الرِّجال ويدعى حمّاد ود فضل، أتاه مسرعاً وكان الناظر يجلس مع الشريف في مضيفته التي تتكون من الطين والقش، ثم قال له:

- ستتحرّك القافلة غداً قبل شروق الشمس، ستكون مع الشريف أنت وخمسة ممن خبروا معك الطريق، ولكنكم ستكونون تحت إمرته، فهو أمير الرحلة، ولا أريد أن يُخالفه أحد منكم.

أجابه متأهِّباً:

- بإذن الله، لن يجد مِنّا إلا كل تعاون.

في الصباح، تحرّكت قافلة أسود الجبال المهيبة من أم سُنطة نحو الحدود الليبية في الشمال الشرقي، لم ينتهِ الشتاء بعد، لا تزال رياحه الجافة مُشبّعة ببرد الشمال، ليس هنالك أروع من شروق الشمس في تلك الدِّيار، أشجارٌ ورمال وأراضٍ خصبة، أُناس مع بهائمهم هنا وهناك، تتفرّق بيوتهم بحيث تبتعِد كلّ عن الأخرى بمسافة تزيد عن الكيلومتر، حتى تجد كل أسرة حظها من خيرات الأرض وحشاشها، وحتى يستطيعون ملء مساحاتهم الشاسعة التي تُقدّر بآلاف الكيلومترات المُربّعة، وبعد مسيرة ثلاثة أيام، بدأت المساحات الفارغة تتّسع شيئاً فشيئاً، وقل الناس إثر ذلك حتى خلت الأرض منهم ومن الأشجار، وتسيّدت الرمال التي لم تترك فجًّا إلا وغطّت من فوقه، لم تهزمها إلا الجبال التي تتراءى هنا وهناك، وبدأت الجبال تفرض سيطرتها عند اقترابهم لحدود المملكة الليبية المُتّحدة.

وبعد أن تجاوزتها القافلة مُخترقة سلسلة جبال عوينات، بدأ التوجُّس يداهمهم، فقد دخلوا أرضاً غير أرضهم، وقبائل الصحراء تجوب الفيافي هُنا وهناك، وللأدِلّاء تجارب عديدة وتمازُج مُتّصل يحدث كثيراً في تنقُّلاتهم مع القبائل الليبية، بل أن عدداً من القبائل الليبية توغّلت داخل الأراضي السودانية واختلطت مع مكونات بادية الكبابيش المُتفرِّعة مثل قبيلة الشناقيط، وهنالك تواصل اجتماعي ومسح قبلي يحدث بينهم في مناسبات عِدّة، ولكن الأمر هنا مُختلف، فلمملكة ليبيا دستور جديد وضِع قبل أربعة أعوام، ويحكمها إدريس السنوسي بنظام

فيدرالي يضم ولايات طرابلس وبرقة وفزّان، فهي تنشطر إلى نصفين شبه متساويين، النصف الشرقي من البحر الأبيض شمالاً وحتى الحدود السودانية التشادية جنوباً وتلك وحدها ولاية برقة، والغربي من البحر الأبيض وحتي الحدود مع تشاد والنيجر جنوباً، وهذه ولاية فزّان التي تشغل ولاية طرابلس ثلثها العلوي.

في ظل هذه الحكومة الفيدرالية تكون قافلة أسود الجبال بين أمرين، إما أن يصطدموا مع القبائل إذا كشفوا أمر بضاعتهم وطمِعوا في السِّلاح، وهذه هي مهمّة الشريف حسين، وإما أن يتمّ القبض عليهم بواسطة قوات المملكة النظامية في ولايتي برقة أو فزّان، وهذه أيضاً من الأسباب التي دعت الأزهري إرسال الشريف حسين أميراً على أسود الجبال.

***

تجاوزت القافلة ولاية برقة، شهر كامل منذ مغادرتهم أم سُنطة، تغيرت ألوان بشرتهم ونحل عودهم، إلا أن لياقتهم البدنية تزداد قوةً يوم بعد يوم، وصاروا يتقافزون ويركبون على ظهور الجمال كالغزلان، وفي مساء أحد الليالي، التفوا حول النار وقاموا بصناعةِ عصيدة دُخُنٍ ذات قوام قوي، ودفقوا فوقها لبن الإبل الساخن وأخذوا يأكلون تحت سماء ترصّعت بالنجوم، إلا أن ارتفاع النّار منعتهم التمتّع بهذا المشهد البديع بعد أن فضّلوا الدفء عن الفُرجة، قال حماد:

ـ عشرة أيام أو يزيد ونكون في الحدود.

أجابه الشريف حسين:

ـ سندخل في عمق المثلث الذي تتوزّع في زواياه مدينة سبها وأوباري ومُرزُق، ستنشط حركة القوافل والعابرين هناك، وستكثر الطُّرق، علينا أن نكون أشدّ حذراً في الأيام القادمات.

كان حمّاد أكثر المُعجبين بالشريف منذ أن وطئت أقدامه أم سُنطة ليلة وصول اللواري، فقد سمِع عنه من تجار الإبل الذين قابلهم في طريق التجارة إلى مصر وفي أسواقها، ولكنّه لم يحالفه الحظ برؤيته، ويحسب نفسه من المحظوظين لمرافقته له، وسمِع عن أبيه الشريف يوسف الكثير والمُثير من فمِ ناظرهم الراحل السير علي التوم، فقد ترافقا في رحلةٍ استغرقت شهوراً إلى لندن، كان ذلك عام تسعة عشر قبل ستة وعشرين عاماً ضمن وفد ضمّ شيوخ وزعماء السودان، ذهبوا إلى المملكة عبر القطار والباخرة والسيارات لمقابلة ملكها بعد دعوته لهم.

سأله حمّاد قائلاً:

ـ كيف تكون هكذا سيدي الشريف وأنا أعلم أنّك من أسرةٍ كبيرة وميسورة الحال؟.

أجابه مُبتسماً:

ـ لا يغرّك ما تسمعه، نحن مثل النّاس، لا فرق بيننا وبينهم غير أنّ الله يسّر لنا الطُّرق والسُّبل لمساعدتهم، هذا كلّ ما في الأمر.

تذكر الحسين في هذه اللحظة حديث أبيه عندما دخل عليه وهو قادم من الإسكندرية وعليه حُلّة إفرنجية كاملة، حين ذكّره بأصلهم ورسالتهم وتواضع

أسلافه ووهبهم حياتهم وما فيها لخدمة الدين والمسلمين، تشتد عليهم وطأة الجبال ومنعرجاتها أثناء تجاوزهم شمال مُرزُق، وبعدها بيومين تخطّوا أوباري من جنوبها ثم مالوا قليلاً نحو الجنوب الغربي الذي يقود إلى الحدود الجزائرية مع منطقة غات، وعندما أتمت رحلتهم ستة أسابيع كانوا قد تجاوزوا الحدود الليبية وبلغوا مرتفعات الأحجار عند بداية سلسلة تاسيلي، وما إن توغلوا نصف يومٍ من المسير حتى رأوا مقاتلي الجبهة الجزائرية يتفرّقون على رؤوس الجبال، استقبلوا بعضهم بإطلاق الرصاص في الهواء، وكان العناق بالبكاء والدموع، واحتفلوا مرحاً حتى صاح أحدهم فهدأوا جميعاً، عانق الشريف حسين للمرة الثالثة وهو يقول له:

ـ أنا هواري بومدين، من شباب الجبهة، وهذا عبدالعزيز بوتفليقة، نحن نقود أول فصيل من الثوّار، لدينا ثلاثة فصائل أخرى تتوزع داخل الجبال، لم تخيبوا ظنّنا فيكم يا شجعان السودان.

لو يعلمون، كانت فرحة الحسين مضاعفة، وسروره لا تحدّه حدود، فهو يمتلك تلك النزعة الحُرّة التي ترفُض التجبُّر والاحتلال بكل أشكاله وألوانه، وكم تؤلمه معاناة الإفريقيين مع الغازين الذين هجموا على تلك القارة السمراء ووطئوا في كل شبرٍ فيها، ومارسوا فيها ما سيكون شرخاً مؤلماً في تاريخ الإنسانية على مر العصور القادمات، إذلال وقتل ونهب واستعباد، قلبه مع كل حركات التحرير الإفريقية والعربية، ولن يدخِّر جهداً في العمل على مساعدتها ودعمها بما يعرف ويستطيع، فالطريق طويل، والتضحيات مُدّخرة إلى حينها، وتلك الفرحة التي رآها في عيون الثوار الجزائريين يجب أن تتكرّر وتتمدّد حتى يتحرّر الإنسان ويخرج من براثن الخنوع والتبعية.

ما أروع هذه الرحلة التي ستظلُّ آثارها باقية طول الحياة، وهي جذوة النضال الذي سيستمر ويستمر، طالما هذه الأنفاس تتلاحق والأجساد تتحرّك، عاد الرجال السبعة صوب بلادهم، سيكون المسير خفيفاً، وقد يصلون خلال شهر أو أقل، أزالت فرحتُهم وفرحة الثوّار تعبَ الرحلة الطويلة، ولا أظن أن طريق العودة ورهقه سيُنسيهم ما رأوه في عيون الجزائريين.

***

طريق العودة إلى الجزيرة أبا.. الثامن عشر من يوليو 1969م

ست وعشرون ساعة قضوها بين أمطار السماء وطين الأرض، التوجُّس والخوف هما سيدا الموقف حتى وصلا بوابة الجزيرة أبا عند العاشرة مساء، عودةٌ قسرية، تأزم بها الموقف وهبطت بسببها أرواحهم المعنوية إلى الحضيض، فكل ما حدث يزيد من احتمال القبض على الشريف واعتقاله بواسطة جنود النميري، استقبلهم الإمام بذات الوجه المستبشر الصبيح وكأنه يقابلهم لأوّل مرة، أصدر تعليماته لمن حوله بأن يعملوا على راحة الضيوف وضيافتهم، وعاد الحسين إلى غرفته التي تُجاور غرفة الإمام الخاصة، وغاص في نومٍ عميق، ذهب شوقار ليصلح ما أفسده الطريف في عربة الإمام، وعاد وكيل الإمام في الصباح إلى داره وأولاده، وبقي الخليفة مصطفى وعلي العبيد في غرفة لا تبتعد كثيراً عن بيوت الإمام، اجتمعوا في مساء اليوم التالي داخل غرفة الحسين، قال الإمام شارحاً الأجواء في الجزيرة:

- الجزيرة أبا امتلأت بمن لا نعرفهم، وأخبرني رجالي بأنهم لمسوا تذمُّراً من بعض المناوئين لنا بعد أن علِموا بعودتكم، وأخشى أن يقوموا بإخبار الانقلابيين ويحدِّدوا لهم موقعك فيأتون إلى هنا في حين غفلة، خصوصاً وأن كوستي وربك قد امتلأت بسيارات الجيش والشرطة هذا الصباح.

صمت قليلاً وواصل قائلاً:

- لذا أفضِّل أن نتحرّك بعد حضور شوقار بالعربة، هنالك مزرعة أخونا الجلّابي وهو أحد وكلائي، تبعد من هنا خمسة عشرة كيلومتراً، ستبقون هناك حتى نرى ما سنفعله، ما رأيكم؟

أجاب الخليفة مصطفى فوراً:

- هذا أفضل.

أتى شوقار عند التاسعة والنصف مساء، تحسنت أحوالهم قليلاً بعد ساعات الراحة التي قضوها أكلاً ونوماً في غرفهم، وأصرّ الإمام على الحسين

بأن يأخذ بعض العقاقير ليتعالج من نوبة الالتهاب الرئوي الحاد الذي صار مُلازِماً له وهو مُصِرٌّ على التدخين بشراهة، استقلوا اللاندروفر وانطلقوا برِفقة الإمام نحو مزرعة الجلاّبي التي تقع على شاطئ النيل الأبيض، وبعد أن وصلوا، انفرد الإمام بالجلابي يوصيه بالحرص الشديد والحفاظ على الشريف ومن معه، ثم عاد إلى جزيرته، وفي الصباح ابتعد الشريف بعيداً، وضع عنقريباً تحت شجرة سنط ظليلة، ركض الجلابي وراءه بمنضده وراديو، وأتى مهرولاً وعاد بالماء والسجائر والقهوة وسعاله لا يتوقّف لأكثر من دقيقتين، يجلس الخليفة مصطفى بالقرب من الجدول ومعه علي العبيد وهما ينظران إلى الشريف، وكلاهما صامت يُقلِّبان ذكرياتهما، كأنهما يقولان في نفسهما، أهذا هو الشريف حسين؟ أهذا هو حال من خاض معارك الديمقراطية ضدّ خصومه وضدّ كلّ يدٍ باطِشة؟ أهذا هو حال من يملك أقوى لسان وأقوى حجّة وأقوى إرادة؟ هل يُطارد من بذل دمه ولحمه للناس؟ وهل هذا حال من بذل المال والمتاع لأفراد الشعب والفقراء منهم؟ هو ذاك الذي وهبه الله صلة عميقة ومودّة أصيلة بالفقراء، صلة لا تعرف الفوارق ولا الطبقة، هو من قال إنّني لا أملك شيئاً، وما أملكه يعتبر حقاً مُشاعاً لجميع الناس، هو ركيزة الحزب الأقوى والأنجع في معاركه الانتخابية والسجالية المتواصلة، قطع عشرات الآلاف من الأميال مُتنقِلاً على ظهور السيارات والدواب والطائرات، دمعت عيناهما بعد امتناعه عن الأكل كعادته ليكتفي بطرقاتِ كِسرَة عليها إدام أخضر من الويكة، تساءل الخليفة مع علي العبيد محاولاً إيجاده منفذاً يخرجون به:

ـ ألا توجد أية طريقة نعبُر فيها إلى الحدود غير الكُرمك.

صمت علي قليلاً ليقول:

ـ هناك طرق عديدة، القضارف وكسلا وما بينها، ولكن المسافات إليها طويلة، وهذا يزيد من نسبة الخطورة على الشريف، أما منفذ الكرمك فميزته أنّه قريب وشائك، علينا إذا قرّرنا الخروج أن نرى طريقاً آخر يقودنا إلى نواحي الكرمك، غير طريق الدالي والمزموم الذي سلكناه.

وكان الخبر السيء الذي أتي به الجلّابي من سوق كوستي مع مغيب الشّمس، وأخبر به الإمام قبل أن يصل مزرعته، فقد سمِع بعض التجار يهمسون

في السوق بأن الشريف حسين قد عاد مرةً أخرى إلى الجزيرة أبا، وهنالك إشاعات تقول بأن أمن نميري سيقوم مداهمة الجزيرة، لم يستطع الإمام أن يأتي إلى الشريف لإخباره أو التفكير معه خوفاً من أن يكون مُراقباً، ولكنه شدّد على الجلّابي أن يخبر الحسين بأنّه سيبذل جهده ليدخله الجزيرة أبا دون عِلم أحد، فهو لا يطمئن إلا إذا كان بجواره، جلس الشريف ورفيقاه والجلّابي يتفاكرون.. بدأ الخليفة مصطفى يفكِّر بصوتٍ مسموع:

ـ ليس هنالك حل إلا الخروج من هنا فوراً.

أجابه علي العبيد:

ـ كيف نخرُج وليس لدينا وسيلة حركة؟

تدخّل الجلّابي:

ـ أمر الإمام شوقار أن يأتي إليكم باللاندروفر، ولكن الجزيرة أصبحت شبه مُحاطة بعيون النظام، فقمنا بمنعه حتى لا يتبعوها، حتى أنني لم آتِ إلى هُنا مباشرةً.

تدخّل الشريف:

ـ ليس هنالك حل إلا العودة إلى مديرية الجزيرة والخروج عبرها إلى الحدود، فقط علينا إرسال من يُخبر رجالنا هناك لتهيئة الأجواء والمُعينات.

رفع الخليفة مصطفى يده:

ـ أنا من سيذهب، ولكن كيف تستطيع المكوث هنا وقد سمِعنا ما سمِعنا.

تدخّل الجلابي:

ـ لا أعتقد أن سيدي الإمام الهادي سيترك الأمر هكذا، أتوقع أن يأتي من يقودكم إلى هناك.

وقد صدق حدسه، جاء رجلان بعربة لوري تحمل حطباً ليأخذوهم ويدخلوهم الجزيرة أبا دونما إعلان لأهلها كما حدث في المرات السابقة، وقبل صعودهم تركوا الخليفة مصطفى يُغادر في الصباح ويُنفِّذ ما خطّط له الشريف، دخل الشريف وعلي العبيد الجزيرة أبا ووقف اللوري أمام دارٍ غير التي كان ينزِلُ فيها، وحتى لا يحسّ أحد بوجوده، قرّر الإمام عدم الحضور إليه والاكتفاء بالرسائل الشفهية بينهما بواسطة رجليه اللذين أحضراه من مزرعة الجلّابي.

***

وصل الخليفة مصطفى إلى سنار منتصف النهار، وصدفة قدريّة جمعته مرّةً أخرى بصِدِّيق الشريف علي ابن أخ الشريف حسين، وترافقا حتى وصلا قرية العُقدة، لحسن حظهما كان الشريف المهدي موجوداً، جلسا ليلاً وسمع من الخليفة كل ما حدث لهم منذ أن فارقهم الشريف، وختم قوله:

- قرر الشريف الخروج عبر كسلا، وستكون نقطة الانطلاق قرية نُوّارة.

فكّر الشريف المهدي قليلاً وقال:

- إذن، فهو يونس عربي، أحد معارفنا في قرية الشريف يعقوب، يستطيع مساعدتنا، فله معرفة بالطريق وبالأدلاء، فغالبيتهم أصدقاؤه.

في الصباح استقلوا سيارة الشريف المهدي التي يقودها بنفسه، ومع شروق الشمس دخلوا مدينة ود مدني وعبروا منها ببنطون حنتوب إلى الضفّة الشرقية، وساروا حتى وصلوا قرية البُقاصة التي يفصل بينها وبين قرية الشريف يعقوب نهر الرّهد، عبروه بالمركب وكانوا في منزل يونس عربي.

رجل كريم وشهم، ذبح لإكرامهم جملاً، وبعد تناولهم وجبة الإفطار أخبروه بما يريدونه منه، كبّر وهلّل وقال:

- عليَّ الطلاق، الشريف حسين نفديه برِقابنا وأرواحنا.

ثم ثار وتشنّج حتى اضطروا لتهدئته، وبعد أن هدأ قليلاً، قال لهم:

- لديّ صديق من تمبول، اسمه محمد أحمد، يعرف الحدود كما يعرف بيته.

أجابه الشريف المهدي:

- إذن، ستذهب إليه، وتأتي به.

تدخل الخليفة مصطفى:

- كسباً للزمن، سأتوجّه فوراً إلى الجزيرة أبا حتى نُمهّد لكم الدخول إليها، ستذهب ومعك صديق الشريف علي إلى تمبول، لتأتوا بالدّليل معكم.

تتساءل يونس عربي:

ـ هل سندخلها مباشرةً؟ أم ماذا؟

أضاف الخليفة مصطفى موضِّحاً:

ـ سآتيكم في غابة العزازة أم جان بعد غدٍ الساعة العاشرة ليلاً.

وفوراً، ركب مصطفى مع الشريف المهدي عسى أن يجد ما يوصله إلى كوستي من ود مدني، ورافق صديق الشريف علي الخبير يونس عربي إلى تمبول لإحضار الدّليل محمد أحمد، على أن يتقابلوا في العزازة أم جان.

***

الخرطوم.. خريف 1956م

ـ أنا أحترم رجال الدين ما التزموا جانب الدين واعتصموا بربّهم، ولا أعتقد أنني سأُهادِن الكهنوت السياسي والرهبة في يومٍ من الأيام.

ـ هل هذا يُفسِّر عدم انضمامك للحركة الاتحادية حتى بعد أن اندمجت في حزبٍ وطنيٍ واحد؟.

ـ لم أقرر بعد، وبيني وبين نفسي أعرف جيداً بأن الوطني الاتحادي أفضل حزب سياسي موجود في الساحة الآن، ويضم قطاعاً عريضاً من المجتمع.

ـ هل تعرف أن كلّ زملائك وأصدقائك انضموا إليه؟.

ـ نعم أعرف ذلك، وهذا أيضاً من الأسباب التي تجعلني أميل إليهم.

ـ لا قداسة مع السياسة، هذا هو شعارك يا حسين.

ابتسم الحسين وهو في كامل أناقته وهو يقول:

ـ شعارٌ مُعلن، حتماً سأكتب عنه في الصحف، وسأفصح لك عن ما في دواخلي تجاه الحزب، تأكد أن وجود طائفة دينية بداخل أيِّ مكون سياسي وتنظيمي يعتبر خطأً فادحاً يعوق العملية الديمقراطية برمّتها، وهذا يتسبّب في مرض الأحزاب وضعفها شيئاً فشيئاً إلى أن يصير الحزب منها بيد شخص فرد يفعل بها ما يشاء، ونحن لا نتعرّض لزعيمٍ ديني إلا بعد أن يتحوّل إلى سياسي، وعندما ننتقد ذلك فإننا لا نتعرّض لمسائله الخاصة كطعامه وشرابه وعواطفه، فهذه أشياء تعتبر ملكه لا ينازعه فيها أحد، على الرغم من أننا نعلم عنها الكثير، نحن نتحدث فقط عن مدى صلته بالمجتمع الذي يعيش فيه ومدى تأثيره السياسي على طائفة من المواطنين بغض النظر عن الأسلوب الذي يتبعه.

صمت شقيقه زين العابدين قليلاً وكأنه تاه بعيداً للحظة وقال:

ـ أخاف يا أخي أن يضطر الجميع للارتماء في أحضان هذه التبعية والطائفية بحثاً دوائر انتخابية تُبقيهم في المشهد السياسي، أنت تعلم مدى

تأثير ذلك على الناس في هذا السودان الفسيح، والسياسة مهما انضبط تنظيمها واشتدّ عودها وأورقت أشجارها سيتسابق الجميع نحو قطف ثمارها بكلّ الطرق، فهي في النهاية أصوات يحملها الناس ويلقوا بها في صناديق.

لم يُخفِ الحسين خوفه مما ذكره شقيقه، بدا ذلك في عينيه، فهو ذات الهاجس الذي يؤرقه ويفكر فيه ليل نهار، فالنخبة المُتعلّمة تبحث عن الاستقلال بكل الطرق الحضارية المُمكنة، وإذا حدث ذلك قريباً سيظل المجتمع السوداني مستمسكاً بإرثه القبلي والطائفي عدا القليل، وسيعوق ذلك العملية السياسية التي بحث عنها الأزهري وأحمد خير ومن معهم منذ قرابة العشرين عاماً.

رفع رأسه قائلاً:

- حتى وإن لم ينجح الأمر في الوقت الحالي، فعلى الخريجين وضع سابقة ديمقراطية وثوابت في ممارستهم التنظيمية حتى وإن لم يجنوا منها مكاسب سياسية، عليهم وضع قاعدة ثابتة للأجيال القادمة حتى تسير عليها.

أعقب الاستقلال تنازعات خفية في كيفية إدارة مظلة الحركة الاتحادية التي تتكوّن من حزب الأشقاء بقيادة إسماعيل الأزهري، وحزب وحدة وادي النيل بقيادة الدرديري أحمد إسماعيل، ووفقاً لرؤية الحسين فإن كثيراً من السِّمات الملتصقة بشخصية مرشد الختمية باعتباره أحد الزعامات الدينية الكبيرة في البلاد قد أثرت تأثيراً كبيراً في سير الحزب الوطني الاتحادي، فكانت المُحاصصات الواضحة، والتي كان زعماء الحزب من نُخبة الخريجين يغضّون عنها الطرف، وكان الأزهري حينها يُرجح كفّة تلك المُعادلة بكسبه احترام الجماهير وإعجابهم به بعد أن صار رمزاً للحرية، فكان ذلك وبالاً على الأزهري حين اتفق السيدان وأسقطا حكومة الاستقلال من داخل البرلمان ليُعيِّنا عبدالله بك خليل رئيساً للوزراء، الأمر الذي توافق أيضاً مع رؤية الحسين، ليخوض أول معركة انتخابية له في دائرة الحوش التي رشّح نفسه فيها مُستقِلًّا ولم يَفُز، وفي صحيفة أنباء السودان التي يرأس تحريرها الأستاذ يحيى محمد عبدالقادر كتب مقالاً بعنوان: (نحن في الميدان، ونحن أقوى من الموت).

***

تتوسّط الشّمس في السماء، ولا يأبه بها ذلك الجمع الذي يقدّر بالآلاف، فالدنيا شتاء، والبرد يجعل من أشعة الشمس ملاذاً حُلواً ودافئاً، جاءوا من كلّ شبرٍ من منطقة الجزيرة وما حولها، نُحِرَت عشرات الإبل، وذُبِحت الخراف بالمئات، امتلأ كل ركن من ديار الشريف المهدي الواسعة بقرية العُقدة، بل تدفّق الناس حولها في الساحات وتحت الأشجار، فاليوم ليس ككُل الأيام، واللحظات القادمات سيسطِّر أحداثها التاريخ، اقترب القِطار الذي يحمل الزعيم إسماعيل الأزهري وبرفقته وفد حكومي وحزبي كبير.

اصطفّ آل الهندي أمام محطة السكة الحديد، وفي مقدِّمتهم الشريف عبدالرحمن الهندي خليفة السجادة النبوية الهندية، والشريف حسين الهندي والشريف المهدي، والشريف عمر الهندي، والشريف الصديق الهندي، والشريف إبراهيم الهندي، وإخوانهم، وخلفاء الطريقة، والنُظّار والعُمد، زيارةٌ بدعوةٍ من الشريف عبدالرحمن وبهندسةٍ من الشريف حسين الهندي لزيارة معقل آل الهندي وإعلان ميلاد وطني ليتبع ذلك الذي بدأهُ أبيهم.

نزل الأزهري من عربة القِطار ملوِّحاً بيمناه كعادته دائماً، وسار في طريقٍ فُجّ له من النّاس فجًّا حتى وصلوا صالون الضيافة، وفور انتهائهم من واجب الضيافة توجّهوا جميعاً نحو ساحة اللقاء الجماهيري، لم يكن الحسين منضماً حتى الآن للحزب الوطني الاتحادي، ولكنه ارتجل خطاباً بالإنابة عن الحشود وعن إخوانه وعلى رأسهم الخليفة الشريف عبدالرحمن، الشيء الذي جعل الناس تفور وتضجّ على كثرتهم، وأعقبه الأزهري، اعتلى المسرح، وأمسك بالمايكرفون، ولم يترك شيئاً عن آل الهندي إلا وذكره، الشريف محمد الأمين وقرآنه وخلاويه واجتهاداته ومؤلفاته، الشريف يوسف الهندي ووطنيته التي تجسّدت جليةً بدعمهم كخريجين عندما أمسك الناس عن مساعدتهم، اعتقاله وسجنه وتحديد إقامته في مسافةٍ لا تزيد عن خمسة كيلومترات من قصر الحاكم العام، وختمها عندما وصفه بأنه المُجاهد الأول في السودان، فطربت الجماهير

من وقع هذه الكلمات وهذا الخطاب القوي، فهاج الناس وماجوا بالهتاف والتصفيق عدا ثلاثة كانوا يجلسون في الصفّ الأمامي ومن الذين أتوا ضيوفاً مع الأزهري، ميرغني حمزة وأحمد جلي وخلف الله خالد، ثلاثتهم وزراء في الحكومة، ولكنّ مرجعيتهم تعود للطريقة الختمية، ظنّوا أنّ الأزهري عندما مدح ود الهندي هذا يعني أنّه قد سبّ الآخرين، فغضبوا غضباً شديداً، وتهامسوا وتحسّسوا آراءهم وعزموا أمراً، ثمّ استقالوا من الوزارة، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، ولم يمضِ الكثير عندما انفصل الختمية عن الحزب ليكوّنوا حزب الشعب الديمقراطي، فخلا الحزب الوطني الاتحادي من ذلك التأثير الطائفي الذي يرفضه، حينها كان قراره بالانضمام إليه، وفي إحدى لياليه التي يقضيها في غرفته المستطيلة داخل منزلهم ببُرّي، أمسك قلماً وأفرد ورقةً وكتب خطاباً إلى الزعيم قائلاً فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، إلى السيد الرئيس إسماعيل الأزهري، تحية طيبة واحتراماً، لعله من نافلة القول أن اكتب إليكم الآن لأعلن انضمامي عضواً في الحزب الوطني الاتحادي العتيد، فلقد ظللت طوال الفترة الماضية متجاوباً معكم بإحساسي، مؤيداً لكم في جميع الخطوات التي مشيتموها بخلقِ حركةٍ سياسيةٍ بعيدة عن مزالق الخضوع للأشخاص، سياسة تهدف لمصلحة الوطن وحده ولعلكم تدركون دون شك أن هذا التأييد يشجب على ماضٍ كفاحكم الصلد الجاد لاستخلاصِ حريةٍ للبلاد من أيدي غاصبيها والنفعيين فيها لتوطدوا للبلاد أركان استقلالها ودعائم حريتها، وقد أردت بإشهار انضمامي في هذه الفترة بالذات أن أؤكد مبدأ هامًّا لمن تزاحم في رؤوسهم شيء للولاءات، ولقد كنت ولا أزال أعتقد أنّ كلا الزعامتين الدينية والسياسية تستطيعان السير جنباً إلى جنب من أجل إسعاد المجتمع، دون أن تتغول إحداهما على الأخرى، وإذ لكل من الزعامتين رسالة، فالزعامة الدينية رسالتها روحية بحته، تهدف إلى إصلاح النفس وتقويم الخلق ورسم الطريق إلى الله، أما الزعامة السياسية فرسالتها تنظيم حياة المواطن اليومية من عمل وتعليم وأمن ورخاء، ورسم سياسة داخلية وخارجية تؤمِّن الشعب، وتُنظِّم علاقاته مع سائر

الشعوب، ولا أعني بقولي هذا أن أُجرد الزعامات الدينية من حقوقها، وإنما لأحدِّد هذه وتلك، فالزعامات الدينية من واجبها أن تتدخل عند الأزمات لترفع الروح المعنوية عند شعوبها، إذا كانت شعوبها تُواجه عدوًّا خارجيًّا، وأن تتدخّل لإصلاح ذات البين بين جماهيرها، فتوحِّد كلمتهم، وتجمع شتاتهم دون تفريق أو تفرقة، ولكنها إذا انغمست في السياسة اليومية من عزلِ زيد وتوليةِ عمرو ومباركة هذا الحزب ومحاربة الحزب الآخر، إذا فعلت شيئاً من ذلك فإنها تفقد احترامها وتهدر كرامتها، بل إنها تثيرها فتنة لا يرضاها الله ولا عباده، ويوم ترضى الزعامة الدينية هذا المسلك فلن تكون من الدين في شيء، بل إنها تتحوّل إلى حركة مُخرِّبة، هدّامة، والى حركة مصلحية بحته تهدف إلى إرضاءِ مصالحها الخاصة وشهواتها الذاتية، ويحق لنا عند ذلك أن نقول لها لقد تنكّبت الطريق وانحرفت عن الهدف، هذا هو رائي الذي آمنت به وأؤمن به، وعهدي الذي عملت وسأعمل عليه ما حييت، ولا أظنني أكون قد تنكّرت لوضعي الاجتماعي أو جافيت التراث الذي أنتمي إليه، فلقد كان والدي رحمه الله أول من نادى بهذا وأول من دفع ثمنه، فلقد حاربه الاستعمار وأُعتقل وسُجِن وحددت إقامته حتى توفاه الله، لقد اهدى والدي للخريجين دارهم التي نشأ في أروقتها مؤتمر الخريجين العتيق الذي أضاء الشعلة الوطنية، وفيها تكوّن أول وفد سياسي خرج للعالم يُعلن مطالب شعب السودان وانبعثت شرارة الحركة الوطنية التي صنعت السودان الحديث، والذي دفعني لاستعراض هذه الحقائق هو أنه بمجرّد هذا الاهداء تم توجيه والدي لأكبر أبنائه للانضمام إلى مؤتمر الخريجين في وقتٍ عنت فيه الرقاب وانحسرت الوجوه أمام المستعمر الغاشم، وفي كل هذا ما يؤيد رأيي في أنّ والدي كان يُعلِّق آمالاً كباراً على الحركة الوطنية المُتمثّلة في الحزب الوطني الاتحادي.

أما أنت أيُّها السيد الرئيس فإن كانت المعركة ضد الاستعمار والمستعمرين من أجل حرية البلاد واستقلالها، فقد انتصرت على الاستعمار والمُستعمرين، ونشرت لواء الحرية وجلبت استقلال البلاد، وستنتصر غداً بإرادة الله وإرادة شعبك الذي لم يتخلّ عنك لحظة،

والـذي جعـل لـك في سـويداء القلـوب مكانـاً أرفـع وأجـل مـن كـراسي الحكـم، فـإذا كانـت حكومتـك قـد أسـقطت غيلـةً وغـدراً، فـربّ نجـاح، أشـرف منـه الفشـل، سـلام اللـه عليـك".

***

ريبا ـ العزازة أم جان.. أواخر يوليو 1969م

دخلت السيارة غابة ريبا بعد مغيب الشمس، يونس عربي ورفيقاه صديق الشريف علي ودليلهم محمد أحمد، منطقة آمنه يمكن المكوث فيها حتى الصباح، هذا إذا تأخر الخليفة مصطفى عن موعده المضروب عند العاشرة، كل ما فعلوه هو البقاء داخل السيارة وسط الغابة، الجوّ كاتم، وليس فيه ثمة هواء يُرطب ذلك العرق الذي بلّل عراريقهم وسراويلهم، تأخّر الخليفة مصطفى بالفعل، تجاوزت الزمن الحادية عشرة ليلاً ولم يأتِ، لم يقلق أيّ منهم، فالعاشرة تعني زمناً مفتوحاً، يبدأ بها وقد يستمر حتى الواحدة أو الثانية صباحاً.

لمحوا عند الواحدة والنصف نوراً يطفئ ويشتعل بشكلٍ مُنتظم، بعدها سمِعوا نهيق حمار خارج الغابة، عرفوا أن أحدهم يطلبهم، أو قد يكون الخليفة مصطفى ويجهل مكانهم، اضطروا لفتح مصابيح السيارة وإطفائها حتى يراهم صاحب المصباح اليدوي، اقترب منهم قليلاً وأشعل نوره مرّةً أخرى، فبادله يونس بمصباح السيارة، وعندما وصلهم فإذا به الخليفة مصطفى، حيّاهم وقال لهم:

ـ لقد تأخرت عليكم، ولكنّي كنت مطمئناً بأنّكم لن تغادروا، لم تكن مقابلة الشريف سهلة، والأكثر صعوبة هو الإعداد لدخولكم، فلا أحد في الجزيرة يعلم أن الشريف بداخلها منذ عودتنا من الكرمك.

تساءل يونس عربي:

ـ كيف وصلت إلى هنا؟.

ضحك الخليفة قائلاً:

ـ خرجت بعد مغيب الشمس، وجدت شاحنة تحمل جلوداً، نزلت منها على بعد خمسة كيلومترات من هنا، بعدها وجدت حماراً بجانب الطريق، ركبت فوقه حتى وصلت طرف الغابة ثم أطلقته ليعود.

بعد أن اقتربوا من الجزيرة أبا، طلب منهم الخليفة إطفاء مصابيح

السيارة، سارت العربة ببطء بعد أن فتح رجال الإمام الهادي البوّابات حتى وصلوا إلى مقر إقامة الشريف حسين، لا أعتقد أن يونس عربي وصديق الشريف علي ستسعهم فرحة في يومٍ ما مثل هذه اللحظة، كان اللقاء بالدموعِ والسلام الذي استمرّ لنصف ساعة يسألونه عن صحّته وأحواله.

بدأ الشريف يسألهم كعادته عن الناس وهمومهم وكيف بدأوا الموسم الزراعي الجديد، علا أذان الفجر فتسحّب الضُّيوف الجدد إلى منازِل ضيافتهم وبقي الخليفة مصطفى وعلي العبيد مع الشريف، صلوا الفجر وناموا قليلاً ثم استيقظوا الضُّحى.

دخل عليهم الإمام وبدأوا النِّقاش حول كيفية الخروج التي تعتمد اعتماداً كاملاً على رجل تمبول، دليلهم الجديد، ولكن الخليفة رفض رفضاً كاملاً الاعتماد عليه والخروج معه، فساءله الشريف:

ـ ما الذي يُخيفك منه وقد أتيتم به؟

أجاب الخليفة قائلاً:

ـ رافقته من العزازة أم جان إلى هنا، واستنطقته لأعرفه، هذا الرجل سيدي الشريف ليس وفيًّا من حيران الشريف، وليس اتحاديًّا حزبيًّا يؤتمن على روحك، بل هو يجهل الكثير عنك وعن الأسرة والحزب، أضف إلى ذلك أنه سمِع في الراديو عن الجائزة التي خصّصتها الحكومة لمن يدلّ عليك، وقد يطمع في النيل لهذا المبلغ الكبير.

صمت قليلاً وأردف قائلاً:

ـ هذا الرجل ليس كالذي تركناه في قُلِي، أراهن على خيانته لنا.

رفع الإمام يده قائلاً:

ـ أنا أؤيد تخوُّف الخليفة، علينا أن نرى أمراً آخر.

انتظر الشريف قليلاً قبل أن يقول:

ـ إذاً ادخلوا لي يونس عربي وصديق أولاً.

بعد ربع ساعة دخلا عليه وأخبرهم الشريف بتخوفهم من الرجل، وافقاه الرأي، ولم يغضب يونس من قرارهم، فسلامة الشريف فوق كلّ شيء، اتفقوا على أمر، دخل عليهم الدليل وقال له الشريف:

ـ شاكر لك اهتمامك ومجهودك، على الرّغم من أنك تعلم جيداً خطورة الأمر.

أخذ نفساً عميقاً من السيجارة التي بيده:

ـ تناقشنا مع الإمام الهادي هذا الصباح في كثيرٍ من الأمور، وأصر بأن هنالك ترتيبات لا بد الالتزام بها، وقضى علينا بأن ننتظر خمسة عشر يوماً أخرى، نخرج بعدها إلى الحدود.

أطفأ سيجارته في المطفأة المليئة التي أمامه وأردف قائلاً:

ـ ستعود اليوم ومعك يونس وصديق ابن أخي، وإلى حين يأتي الموعد، سيأتيكم مصطفى لتأتوا معه إن شاء الله.

مدّ له الإمام الهادي مبلغاً من المال، ليس بالقليل، قد يتسبب في صمته على الأقل لخمسة عشر يوماً ويزيح عنه أطماعه إذا ألمّت به. خرجت عربة يونس عربي بعد صلاة العشاء، وبقى الخليفة مصطفى وعلي العبيد مع الشريف حسين وقد انسدّ الأفق أمامهم، وتعطّلت الأفكار، وحالة يأس انتابتهم حتى موعد استلقائهم الأسرَّة. كيف هو الطريق الجديد الذي يهديهم إلى الخروج؟ الأمطار تهطل بغزارة، والطريق يزداد وعورةً يوماً بعد يوم، والجنود يجوبون الطُّرق هنا وهناك، ولا زال المذياع يلهج مُطالباً به، والقلوب كلها مُلتاعة ووجِلة خوفاً عليه، يعلم قادة الانقلاب جيداً بأن خروج الحسين سيعود عليهم بمتاعبٍ ستؤرّق مضاجعهم وتُقلِق منامهم.

***

ـ علي رجب.
صاح الخليفة مصطفى:
ـ نعم، علي رجب، لماذا لم نُفكِّر فيه من قبل؟
أضاف الشريف حسين:
ـ لديه مشروع زراعي بالقرب من الدمازين، إذا خرجنا من هنا وسرنا باتجاه الجنوب الشرقي مباشرةً، فإنّ هذا الاتجاه تقِلُّ فيه العوائق خصوصاً إذا سِرنا بطرقٍ غير رئيسية، وإذا نجحنا في الوصول إلى المشروع نكون قد قطعنا ستين في المائة من الطريق إلى الحدود.
تساءل علي العبيد:
ـ هل سنخرج مباشرة، أم نرسل أولاً من يذهب إليه ويخبره حتى يتهيّأ؟
أجاب الشريف:
ـ نحتاج إلى استكشاف الطريف والوصول لعلي رجب أولاً، فأصحاب المشاريع لا يقيمون فيها دائماً، ولا نستطيع معرفة من يتركهم وراءه.
أضاف علي العبيد متحمِّساً:
ـ إذاً سأسافر أنا.
قاطعة الخليفة مصطفى سريعاً:
ـ أنا من سأذهب إلى هناك، عليك البقاء ومُلازمة الشريف.
كانت فكرة صائبة من الشريف حسين، فعلي رجب أحد الاتحاديين الأفذاذ في النيل الأزرق، ونائب برلماني ضليع عن إحدى دوائر ضواحي الدمازين، وليس هنالك من هو أفضل منه في طريق الحبشة يمكن الوثوق فيه.
جاء الليل، وخرج الخليفة مصطفى متوجهاً إلى كوستي ليبيت فيها، وشدّد وصاياه لعلي العبيد، وقال له في ختامها:
ـ أخبِر الإمام الهادي بضرورة تهيئة العربة وتفريغها تماماً من أية مهمة، ويجب أن يكون وقودها جاهزاً، وكن حذراً، إذا شعرت بأية خطورة على الشريف، أخرج فوراً والحق بي في مشروع علي رجب، وحتى إذا تعاقبنا في الطريق، سآتي هنا وألحق بكما في نهاية الأمر.

خرج الخليفة مصطفى، وهو لا يدري أين يقع مشروع علي رجب بالضبط، ولكنّه أخذ ملامح عامة من الشريف عن بعض المعالم التي تؤدي إلى أقرب الطُّرق إليه في وقتٍ صارت الأمطار فيها متصلةً ليلها بنهارها.

***

دارفور.. فبراير 1958م

علا الغبار نحو السماء في الوقت الذي هبطت فيه الطائرة المروحية فوق أرض مديرية دارفور في مدينة نيالا، ما إن انجلى الغبار قليلاً حتى نزل منها الزعيم إسماعيل الأزهري ببدلته القطنية البيضاء ملوِّحاً بيده وتعلوه ابتسامته التي لا تُفارِقه، جمعٌ كبير في انتظاره من جماهير الحزب وقياداته في المنطقة يهتفون مرحِّبين به وفي مقدِّمتهم أحمد زين العابدين، وفي خضم كلّ هذا الحشد، التفت الأزهري لأحمد وهو يقول:

ـ أين الحسين؟

ابتسم وقال:

ـ على بُعد أربعين دقيقة، يعدُّ لندوة ستتحدث فيها.

ـ كيف حاله؟

ـ في أسوأ حال، مريض بالبواسير، ويجوب المديرية في الليل والنهار، لا يأكل، ونومه معدوم، ولقد قتلني معه يا زعيم.

ضحك الأزهري بعد أن استقلوا سيارة:

ـ صدقت، فقد نحُل عودك وبانت عروقك، ولكن أتيت لك بالخلاص منه.

علا ضحك أحمد وهو يتساءل:

ـ كيف يا زعيم؟

أجابه:

ـ ستسافر غداً إلى مديرية بحر الغزال، وتشرف على الانتخابات هناك.

ابتسم أحمد قائلاً:

ـ أنا أداعبك فقط يا زعيم، لكم يحزنني مفارقتي له، لم أر في حياتي شخصاً مثله، بل ولم أسمع بصفات ومهارات ومكارم أخلاق مثل التي يحملها.

أومأ الزعيم برأسه وهو يهمهم بصوتٍ مسموع:

ـ لهذا أتينا به إلى هنا، على الرغم من أنّه مُترشِّح في دائرة الحوش.

الحملات الانتخابية في أوجها، والندوات تلتهب في كل أرجاء السودان، والحزب الاتحادي يأمل في اكتساح الانتخابات كعادته مع نجمه الجديد الشريف حسين. لم يجد الأزهري غيره ليشرف على الانتخابات في مديرية دارفور الشاسعة، بل أن كل أعضاء المكتب السياسي اتّفقوا على إرساله هناك لتزداد نسبة كسبهم لغالبية الدوائر، فأتاها وخاطها بهمّته ونشاطه وصار الكل يهتف باسمه ويقسم بتواضعه وكرمه وحبه للناس، وتأتي المُفارقة التي لا تحدث كثيراً في عالم السياسة، وهي أن الشريف مُترشِّح في نفس الوقت في دائرة الحوش، الدائرة التي لم يفُز فيها عندما ترشّح مُستقِّلاً.

بينما الأزهري في طريقه مكان اللقاء الجماهيري، قطع عليه أحد الشرتايات بإصراره على إكرامه في دارهِ بعد أن ذبح له، فتأخّر عنده والناس تنتظر، والليل ألْيَل، وبان التململ على وجوههم، فقد أتوا من أماكن بعيدة ليروا ويسمعوا الزعيم، قائد الحزب ورافع علم الاستقلال. اضطر شباب الحزب تقديم الشريف حسين ليتحدّث أمام الجماهير ليأكل الزمن حتى يأتي الزعيم، وبعد صعوده وإمساكه بالمايكرفون ازداد تذمُّر الحاضرين، فهذه آخر نقطة في المديرية يغطِّيها الشريف في جولته، لذا هم لا يعرفونه، ولكنّهم سمعوا عنه. بدأ في الحديث، والاسترسال، وإطلاق المعاني، وتوهّج المكان حوله، وتضخمّت جاذبيته إلى حدٍ جعلت الكلّ يحدق، وبدأ التصفيق والهتاف، وأخذهم الحماس لدرجةٍ طالبوه بأن يواصل حديثه ولا يتوقّف، واصل خطابه حتى وصل الزعيم، ثمّ قدّمه بكلماتٍ رائعات، وختم الحفل بخطابٍ رزينٍ وقوي. وفي أحد الليالي، وبينما الشريف في ديار دارفور، أعلن الراديو نتيجة الانتخابات، وفوز الشريف حسين بدائرة الحوش ليكون نائباً في البرلمان، وفي صفحات جريدة العلم كتب مقالاً بعنوان: (نحن في الميدان)، وقال فيه:

ـ "لا يضيرنا إذا سقط بعض مرشحي الوطني الاتحادي، فقد كان الواحد منهم يحمل كتابه بيمينه، ويُخاطب العقول والقلوب ولا يهتم بالجيوب والبطون، يخوض المعركة أعزلاً إلا من الإيمان، يدعو إلى

الحرية في أروع سماتها، لا يسوِّد وجهه ذهب المعز ولا ورق المُذل، ولم تتضخّم أوداجه من لُقمة اليتامى، أو تستكرش أعطافه من حبّات العرق التي تتجمّع على جباه العمال والمزارعين، وقد سقط الواحد منهم وهو يدعوا للحق في أروع صورة سقط بين بنو عمومته، ولم يصدر إلى دائرة، ولم يقحم على قبيلة، ولم يُرشِّح من غير بني جنسه، ولكنهم مع ذلك لم يسقطوا وإن كانت بعض الدوائر قد سقطت ولم ينجح منافسوهم، فالفشل هنا شرف، إن عزاءنا هو أننا وقفنا بجانب الحق حتى لا نحيد عنه ولا نُرائي فيه، وقد وقف بجانبنا كلّ من استحقّ الديمقراطية حكماً، وعرِف الثورة نظاماً، فلم يُجامل بصوته، ولم يُتاجِر فيه، وقد انتصر الحزب الوطني الاتحادي نصراً مؤزراً وفي أماكن تجمُّع الوعي وفي مراكز الثِّقل والفهم والإدارك، ولأمثال هؤلاء، جُعِلت الانتخابات".

***

- كيف ترى خطاب السيد وزير المالية عن الميزانية.
أشعل الحسين سيجارته وأخذ منها نفساً عميقاً وقال:
- ميزانية غير عادلة، وأعباؤها غير متكافئة.
اعتدل محمد أحمد المحجوب وهو يردف سؤاله:
- هذا رأيي أيضاً، ولكن ماذا عن تفاصيلها؟
أجابه بقوله:
- آثارها السيئة كانت على طبقة خاصة، أما الذين يملكون الكثير والذين يستطيعون دفع الكثير فقد تركتهم كما كانوا، تركت الحكومة منازل تؤجّر بأسعار التراب وما دون التراب، في الوقت الذي ارتفعت فيه أسعار الإيجار ارتفاعاً جنونيًّا دون أن تستفيد الخزينة من ذلك، وتؤجّر أراضيها لأصحاب المشاريع الخصوصية وهي تبلغ مئات الآلاف من الأفدنة بأسعار اسمية، بينما نفس المشاريع الزراعية الخصوصية تُعطي لأصحابها أرباحاً خيالية، مع سياسة ضريبية متأخِّرة غير مُتطورة تهدُف إلى استقلال الكادحين وحماية الإقطاعيين والرأسماليين.
فرقع محمد أحمد المحجوب أصابعه قائلاً:
- هذا صحيح، فنفس هذه الضرائب تنقُصها المعرفة، فعربة نقل البنزين تدفع مثل عربة نقل الديزل.
أومأ الحسين برأسه وقال:
- بالضبط سيدي، لأن عربة الديزل تحمل عشر مرات أكثر، وتصرُف عشر مرات أقل، وفي الدول المجاورة تدفع حوالي ألف جنيه سنويًّا، أمّا هنا فتدفع عشرين جنيهاً لا غير، وذلك لأن الذين يملكونها لا تلاحقهم الضرائب.
صمت محمد أحمد المحجوب قليلاً قبل أن يقول:
- إذا عليك التعليق على خطاب السيد وزير المالية، ولا يضير سواء أن كان الوزير منّا أو منكم، فمصلحة المواطن الكادح هي ما يهمنا، وأنا أعلم أنّك لا تنظر إلى المصالح الحزبية الضيِّقة بقدر اهتمامك المواطن السوداني.

ردّ الحسين في جلسةٍ مشهودة تعليقاً على خطاب الوزير في الثالث من يونيو، أشاد به جميع أعضاء البرلمان لتبنِّيه قضايا الكادحين، وختم ذلك الرّد بقوله:

ـ "سيدي الرّئيس، إن ولاءنا للذين حملونا على أعناقهم إلى هذا المجلس الموقر يدفعنا لرفض هذه الميزانية التي أضرّت بمصالحهم ضرراً بليغاً، فلنتذرّع جميعاً بالشجاعة، فما أحوجنا لها، وليكن ولاؤنا الكبير للوطن والمواطنين أكبر من ولائنا لما عدا ذلك وما عدا ذلك".

علا التصفيق داخل المجلس، مع حنق واضح في وجوه نوّاب حزب الأمة. وفي قاعة الاستراحة جلس مع النوّاب يتناقشون حول ما حدث، فقال له محمد أحمد المرضي:

ـ لقد أجدت فيما قلته يا حسين، فنحن من ندعوا للحرية والتحرير، ونغنّي بالاستقلال، لا يحقّ لنا قول إلا ما قلته.

أجابه الحسين:

ـ فعلاً يا أستاذي، كثيراً ما أتلفّت حولي، فأرى أشباحاً وأسمالاً، لم تعرف طعماً للحياة، مجرّد الحياة، دعك من الحرية والاستقلال، تألمت عندما رأيت في دارفور جمعاً يلتفُّون حول جنازة، لم يجدوا ماء لغسلها، تمنيت في تلك اللحظة أن أخجل وأخجل حتى أتوارى.

خرجت شمس الصباح في ذات الشهر وقد ذهب في زيارةٍ أسرية لأخيه الشريف الصديق الشريف يوسف الهندي، ويسكن في قرية أبريش، تقع في الضفّة الشرقية للنيل الأزرق. يكبره بسنوات، أقرب إلى الطول، نحيلٌ وهادئ، ويحمل لونًا قمحيًّا ناصعًا، ورعٌ ومتواضعٌ إلى حدٍ بعيد، محلّ ثقة بين أهله ومحبيه، شأنه شأن إخوانه الذين يتميّزون بكرمٍ حاتمي مُنقطع، وثالث أبناء الشريف يوسف الهندي الذي أوصى لهم بخلافة الطريقة الصوفية. نزلا صباحاً إلى مزرعته التي تُلاصِق النيل الأزرق والذي يفصل بينها وبين مدينة الحاج عبدالله، افترشا سباتة من السعف بالقرب من الجدول، وأحضر لهما مُلازم الشريف الصديق ويدعى جاوين طبقاً من أحبّ طعاماً لديهم، كسرة، وملاح ويكة أخضر باللحم المتفوف.

وفجأةً دخل عليهما عبدالله علي بخيت، أحد الاتحاديين من قرية

الحوش ويحمل صحيفة أحاطها بعنايةٍ بباطنِ يده، وكان قد فارق الحسين بالأمس القريب، صافحهما وعلى وجهه غضب واضح:

ـ كان بإمكاني الانتظار حتى تعود غداً، ولكن انزعاجي بما أحمله إليك جعلني أركض ركضاً لأصلك.

أصاب الشريفين قلق واضح حين تساءل الحسين:

ـ خير يا عبدالله؟

مد إليه صحيفة الأمة وفي مانشيت صفحتها الأولى كُتب (الشريف الهارب)، اتهمته فيها بأنه هرب بعد أن أخذ سلفية من البنك الزراعي وقدرها ثلاثين ألف جنيه، ضحك أخوه الشريف الصديق قائلاً:

ـ سبحان الله.

وأضاف الحسين مُبتسماً:

ـ لا تقلق، سنذهب سويًّا إلى الحوش في المساء، فلديّ بعض الأعمال والزيارات لم أنجزها بعد، وسنرى ما نفعله.

وفي المساء، ودع أخيه وقبّل يده وغادر المزرعة، كان البنطون في انتظاره ليتجاوز به النهر إلى الضفّة الغربية حيث مدينة الحاج عبدالله، وقف في محطة القطار وأجرى اتصالاً هاتفياً مع صديقه عبدالماجد أبو حسبو، وبعد أن اطمأن على حاله قال له:

ـ أرجوا أن لا تدع أحداً من أعضاء الحزب يردّ على ما كتبته صحيفة الأمة، لأنّني سأرد بنفسي.

وصل الشريف إلى قرية الحوش، أدخل سيارته في حوش الأمين الفحل، ومكث فيها ثلاثة أيام كتب فيها مقالاً يحمل عنوان (عودة الهارب)، وعاد إلى الخرطوم ليُنشر في صحيفة العلم، وما أن انتصف النهار حتى كان مقاله حديث كل السودانيين بعد أن قرأوا فيه:

ـ "بالخط العريض، وفي صدر الصحيفة الأولى، وبالمانشيت البارز، أبرزت صحافة الحكومة اكتشافها الأثري عن سلفيتي الزراعية، كأنها أطلقت قمراً صناعيًّا ثالثاً، ثم تخيّلت أني قد هربت، وخالت أنها قد انتصرت، وعاشت على هذه النشوة أسبوعاً كاملًا، ولو كانت الديون تحمل الناس على الهروب، لارتحنا من وجوه كثيرة كانت ولا تزال مصدراً لشقاء الكثيرين،

ولرحل عن هذه البلاد سادة، ولبيعت سرايات وتهدمت دوائر، فإن حياة بعض الناس سلسلةٌ متلاحقةٌ من الديون، ولو كان هؤلاء يستدينون من الحكومات والبنوك والشركات فحسب لسكتنا، ولكنهم يخطفون اللقمة من الجائع لأنه جاهل، ويحوِّلون حبات عرق الكادحين إلى سلاسل من الذهب يكنزونها، ويتنعّمون على حساب حقوق المزارعين المتراكمة، ويأكلون أموال الأيامى واليتامى ظلماً، ويملأون بطونهم المُستكرِشة سُحتاً وطعاماً ذا غُصَّة، وسيصلون بعد ذلك سعيراً وعذاباً أليماً، وها هم لم يهربوا حتى الآن، يصبحون على معونة ويمسون على قرض ويبيتون على مؤامرة، يخفّون عند الطمع ويثقلون عند الفزع، يتعاظمون كما تتعاظم القياصرة، ويتفاخرون كما تتفاخر الأكاسرة، وأفقر الفقراء في هذا البلد أريح ضميراً، وأحسن عند الله مآباً، نعم إنني مدين لجمهورية السودان وليس في هذا ما أخجل منه، وعندما كتبت ما كتبت، وسلكت في حياتي السياسية ما سلكت، لم أكن أجهل هذه الحقيقة، ولم أكن أعتقد أنكم لن تشهروا هذا السلاح عليَّ، فإن التهديد خاصة من أخص خصائصكم، ولم أكن أعيش في المريخ، حتى أن هذه حكومتكم، ووزير ماليتها وزير ماليتكم، وأن أمورها تدبّر بليلٍ في سراياكم، وحتى لو كان في إمكانكم أن تبيعوا البيوت والممتلكات، فلن تستطيعوا سد منافذ الهواء، كما لن تستطيعوا كبح جماح هذا القلم، فلقد قرّرت أن أقف بجانب الشعب السوداني، لا أتزحزح ولا أتحول، ولا أساوم حتى لو أمسك جميع سادتكم بأطراف هذا القميص المتسخ الذى يعلوه غبار السفر يريدون انتزاعه مني. إن أزهري لم يمنحني سلفية، ولو كان أزهري يمنح الأصدقاء ويمنع الخصوم لما كنتم الآن في مثل هذا الموقف، الذي ترهبون فيه وتستَعْدون أدواتكم على الناس، ثم إنني لم أكن في الحزب الوطني الاتحادي عندما كان الأزهري في الحكم، فلقد دخلت الحزب الوطني الاتحادي صبيحة إسقاطكم لحكومته القومية، ومن يومها وضعت يدي في يده، ولئن تقطع يدي فلن أسحبها من يده، ومهما بطشتم أو نكلتم فستبقى يدي في يده، تشد من أزره وتعاون في أمره حتى تبلغ ملتقي البحرين، أو نلبث حقباً، فاذهبوا إذن وابحثوا عن رجل آخر تهددونه، أو بضاعة تشترونها، أو نخاسة تقيمونها

بدراهمكم البخسة، وأسلحتكم الصدئة، ولو كنت أنشد الثراء لسلكت طريقاً يحذقها بعض الناس، حتى اغتنوا مظهراً وافتقروا مخبراً، ولكنت قد سعيت وراء سراي الشريف يوسف الهندي بوابور المياه، ووراء هبة الثواب المهداة إليه من أخيه، وهذه طلاسم تعرفونها جيداً، ويعرفها معكم فضيلة مولانا الشيخ حسن مدثر قاضي القضاة السابق، وأرجو ألا تضطرني الظروف لفك رموزها حتى لا تخِف موازين بعض الناس. إذاً فبيعوا ما تشاؤون ونكِّلوا بمن تشاؤون، فقط، نفِّذوا كل ذلك في صمت وأسكِتوا صبيانكم، حتى لا تحمِلونا على ارتياد مسالك تعففنا منها زمنا طويلا، وإبقاء على صلات لا أظن أن صبيانكم يعرفونها، وإلا فلن يكون وقود هذه النار التي تشعلونها صحائفهم البائرة، بل سيكون وقودها الناس والحجارة، ولن تسكتنا يؤمئذ قوة، فما أكثر ما نعرف، وما أكثر ما نكتُم، ثم إنني لن أهرب وأنتم تعرفون ذلك جيداً، فلم يهرب عمي يوم استشهد في مشارف سنار مقبلًا لا مدبراً، ولم يهرب أبي عندما قذف بحصانه في وابور الإنجليز بكرري، عندما ثبت من ثبت، وهرب، من يعرفه كبراؤكم ومما سجله التاريخ، وأخيراً، فإنني ما زلت محرراً بجريدة العلم، وهي صفة أعتز بها، وأحرص عليها، ولن أبدلها بملئ خزائنكم ذهباً، أو حشو ثيابكم حطباً».

***

طريق الدمازين. أوائل أغسطس 1969م

من الصعب أن يسلك الخليفة مصطفى الطريق الذي يؤدي إلى مشروع على رجب بالاتجاه الذي رسمه الشريف حسين، وهو الجنوب الشرقي عبر طُرق صغيرة وغير مأهولة بالسكان وتنعدم فيها الطرق الرئيسية السهلة، فهذا يضيع زمناً كثيراً، الأفضل أن يسلك طريق المواصلات وهو على تلك الهيئة التي لم يُغيِّرها، عراقي وعِمّة بدون طاقية وعصاة ومخلاية. خرج من كوستي صباحاً، واستقل لوري يحمل عدداً من العمال الذين يقصدون المشاريع لنظافة المحاصيل ويحملون أدواتهم لذلك. قفز من اللوري في وسط سوق سنار، قصد أحد معارفه الاتحاديين بحي الجنينة بالقرب من الخزان يُسمى حسن، عسى أن يدلّه على مشروع علي رجب، لم يجده في منزله، فكّر أن يذهب إلى مدرسة سنار الوسطى لمقابلة ابنه الأمين الذي يقيم في داخلية الطّلاب، فقد انقطعت أخباره عن أسرته وأهل قريته ملولحة لشهرين وهو في هذه الرحلة الخطرة، وحينها سيعود حسن عندما يفرغ، وقبل أن يهمّ بالخروج دخل حسن وحياه ورحّب به وعلى حاجبيه رسم استغراب مما يرتديه، فهو يعلم أن الخليفة يشتهر بلبس الثوب الأبيض السوداني الذي يلتفّ به، وهو شديد الأناقة والوسامة عندما يكمله بعمامة وحذاء جلد أحمر لتكسوه الهيبة والوقار، أسرّ له بالأمر، تنهّد حسن وقال:

ـ الحمد لله رب العالمين، بالأمس كُنّا نُناقش الأمر مع أشقاء اتحاديين في منزل عبدالوهاب الشيخ، وأقسم أحدهم بأن الشريف يستحيل أن يكون طليقاً، فإن خرج لملأ صوته الآفاق، ومن غير المعقول أن يكون طليقاً ونميري يسخِّر كل قوّته بحثاً عنه وقد مرّ على الانقلاب شهران كاملان، إذاً فهو مقبوض، وما نسمعه في الراديو عبارة عن مناورة وتضليل، كان تحليله منطقياً.

رد عليه الخليفة:

ـ الحمد لله بأن حفظه كلّ هذه المدة يا حسن، وبما أنه ليس هناك زمن حتى لنجلس، أريد منك تدلّني على مشروع علي رجب بالقرب من الدمازين، إذا استطعت استهدافه ومعرفة اتجاهه من هنا أفضل من أن أبحث عنه كسباً للوقت، وتعلم أن المساحات هناك شاسعة.

صمت حسن قليلاً ليعصِر ذاكرته وقال:

ـ أعرف علي بالطبع، ولكن لا أعرف مشروعه، وأفضِّل أن لا نسأل عنه، فهذا خطر، أليس كذلك؟

ـ نعم، فالعيون قريبة والأسماع تلتقط كل ما هو حول الاتحاديين، خصوصاً القيادات على شريط الحدود.

أضاف حسن:

ـ سأُرافقك، وأقترح أن نتحصّل على تراكتور، فهذا يتيح لنا التجوال جيداً في الطُّرق المُمطِرة.

أجاب الخليفة سريعاً:

ـ إذاً نذهب إلى مشروعي الزراعي في جبل موية، فلدينا تراكتور هناك، أرجو أن يكون مُهيأً، نأخذه ونذهب على بركة الله.

للخليفة مشروعاً زراعيًّا أقامه قبل سنتين، ويقع على بعد أربعة وثلاثين كيلومتراً غرب سنار. اقتراح ممتاز من صديقه حسن، استطاعا اللحاق بآخر برينسة مُتوجهة إلى جبل مويه، وصلاها قبل غروب الشمس بقليل، وعندما خيّم الظّلام كانا في المشروع، لم يكن في المشروع غير بعض العمّال وابن أخته محمد يوسف المُلقّب بود الشريف، وهو أيضاً زوج ابنته علوية، تناولا أكلاً وشرباً والكثير من القهوة وباتا ليلتهما.

قبل شروق الشمس كان التراكتور الذي يقوده ود الشريف يتّجه بزاوية أخرى غير التي أتو بها من سنار حتى يصلوا إلى سنجة التي وافوها عند العاشرة صباحاً، وكانوا في منطقة أبو حجار عند الثالثة عصراً، وغربت عنهم الشمس عندما مالوا قليلاً باتجاه الجنوب ليُحاذوا الدمازين على يسارهم، باتوا ليلتهم في العراء، وفي الصباح كانوا قد توسّطوا المشاريع، وبدأوا في السؤال عن ضالتهم. المشروع بعيد، وطريقه شائك، تعطل التراكتور بالقرب من أحد المشاريع، فكّر الخليفة واتّخذ قراره على

الفور وقال لهما:

ـ لا يسعني الزّمن حتى أنتظر معكما، ولا أدري ما الذي يحدث للشريف الآن، سأترككم هنا، أصلحوا التراكتور وعودوا أدراجكم وحافظوا على سرية الأمر، وسأعود إن شاء الله بعربة علي رجب.

مدّ لهم مبلغاً كبيراً، قصد أن يفيض حتى يتقاسماه، وذهب راجلاً باتجاه الوصف الأخير، وعند العصر دخل المشروع، وهو عبارة عن مساحة شاسعة مزروعة بمحصول الذرة وثلث المساحة عبارة عن غابة شائكة ومظلِمة، ولحسن الحظ كان علي رجب موجوداً، ما إن رآه حتى ركض نحوه واحتضنه بشدّه، فهما زميلان تحت قبّة البرلمان السوداني قبل الانقلاب، صاح قائلاً:

ـ صدِّقني إذا قلت لك يا مصطفى بأنني توقّعت مجيئكم، وكنت في السابق لا أمكث في المشروع إلا ثلاثة أيام، الآن أقضي فيه أسبوعاً كاملاً قبل أن أعود إلى الروصيرص، أقضي فيها يومان وأعود مرّة أخرى، كيف هو الحسين.

ابتسم الخليفة مصطفى قائلاً:

ـ بخير والحمد لله، هو من دلّني إلى لحضور إليك لنخرج من هنا بعد أن فشلت محاولتنا الأولى.

وقصّ عليه كل ما حدث، وبعد نقاش مطوّل بينهما أخذ نصف الليل، قرّر علي رجب العودة مع الخليفة إلى الجزيرة أبا لمقابلة الشريف بنفسه، كانت العودة سهلة بعض الشيء مقارنة بالمجيء، سيارة علي رجب بها عطل ولن تستمر كثيراً، وقفت في سنّار لإصلاح أعطالها، تركا فيها سائقها وأوصاه علي رجب بالرجوع، لأن لديه بعض الأمور يريد قضائها بود مدني، ولم يدُر بينهما نقاش أمامه إطلاقاً، توجها إلى منزل عبدالوهاب الشيخ، أحد القيادات الاتحادية الفذّة في سنار، وكان الوقت عصراً، أدخلهما في غرفته الخاصة وأوصد عليهما الأبواب حتى لا يراهم أحد، فمنزله مليء بالطلاب الذين يدرسون في المرحلة الثانوية، ولا يدري كيف هي انتماءاتهم إذا سمِع أحدهم جملة من ما يتحدثون، وقال الخليفة:

ـ نريد سيارتك.

ابتسم بهدوئه المعروف وقال:
ـ أنا وسيارتي وما أملك، سنتحرّك غداً صباحاً.
تدخل علي رجب:
ـ لا أفضل أن تذهب معنا يا عبدالوهاب.
تساءل قائلاً:
ـ لماذا؟
أجابه وقد أنزل كوب الشاي الذي بيده:
ـ سنَكُون وفدًا حزبيًّا إذا ذهبنا ثلاثتنا، ومن السهل الربط بيننا وتحليل توجهنا، من الأفضل أن أقود أنا السيارة وراعي الغنم هذا إلى جواري.
ضحكوا وتوافقوا على ذلك، وأردف عبدالوهاب الشيخ للخليفة مصطفى :
ـ أطمئنك على ابنك الأمين، هو بخير، يأتي هُنا كل خميس.
أجاب الخليفة وهو يقول:
ـ لقد وفّرت عليّ مشقّة الذهاب إليه وأنا بهذه الهيئة.
وعندما شرقت شمس اليوم الثاني كان اللاندروفر في نصف الطريق الذي يؤدِّي إلى الجزيرة أبا، وفي تمام الثانية عشر ظهراً كان رجال الخليفة يفسحون الطريق لدخول سيارتهم حتى بلغوا منزلة الشريف حسين، وكعادة كل من يراه، احتضنه علي رجب والدموع تتساقط منه حتّى بلّلت كتف الشريف.
كانت الأوضاع في الجزيرة هادئة، عدا التخوّف من العيون المنتشرة في كل مكان حولها، وعيون اليساريين داخلها لا تهدأ من التحديق في كل شبرٍ فيها، والإمام يعمل على إخفاء الشريف بحيث لا يعلمه أقرب الأقربين له، ونميري يحاول أن يسجل زيارة جماهيرية إلى المنطقة حتى يكسر شوكة الأنصار المتمدِّدة، ولكن بطانته تحذِّره من مغبّة هذه الزيارة على الأقل في الوقت الحالي، وقد تخصم كثيراً من الألق الذي يصحبهم وهم بداخل بزاتهم العسكرية، والإمام لا يزال يطلق تصريحاته التي ترفض الوجود العسكري جملة وتفصيلاً، وينادي بعودة النظام البرلماني والحكومة المدنية الديمقراطية، سأله الشريف:

ـ ماذا ترى في الخروج عبر المشروع؟

ـ تعلم سيدي الشريف أن الخروج في هذه الأيام يعتبر شبه مستحيل، فالحشائش تسدُّ الأرض، والطُّرق تنقُص إلى أقل من نصف التي تكون في الصيف فتكثُر الحركة فيها، وأعداد أفراد الجيش الذين يجوبون المنطقة لم نسمع به أو نراه من قبل، ولك أن تتخيّل أن مشروعي دخلته سيارات الجيش مرتين خلال الثلاثة أسابيع الأخيرة، وحتى إذا انتفت كل هذه المعوِّقات، فالطريق إلى هناك وعِر ومليء بمياه الأمطار التي لا تجف قريباً.

التفت الجميع إلى بعضهم البعض وساد سكونٌ لدقيقتين قطعها علي العبيد قائلاً:

ـ بماذا تقترح علينا؟

نظر إلى الشريف وكأنه هو من سأل:

ـ أقترح أن ننتظر شهراً آخر، يجفُّ فيها الطريق قليلاً، وأكون قد أعددت كلّ ما يلزم للرحلة.

تدخّل الخليفة بقوله:

ـ أليس الشهر كثير؟ نحن نتحدث عن مستجدات وأمور خطرة قد تحدث في أيّة لحظة والشريف هنا.

ردّ علي رجب:

ـ كنت سأقول لكم شهرين، ولكن الأمر لا يحتمل كل هذه المدّة.

صمت لثوانٍ ونظر إلى الشريف قائلاً:

ـ ما رأيك سيدي الشريف؟

ابتسم وهو يرفع حاجبيه الغزيرين وقال:

ـ ننتظر شهراً، على الأقل هنالك مُتسع للحركة في كلّ الاتجاهات هنا إذا حدث أيّ جديد، أمّا هناك تضيق المساحة شيئاً فشيئاً مع توغلنا شرقاً فتضيق الحلول بذلك، الخير في ما اختاره الله، وهو من سيحفظنا بإذنه.

خرج علي رجب وحيداً تاركاً الخليفة مصطفى مع الشريف، وبدأ يُفكِّر في التجهيز لتمهيد الطريق إلى الحبشة وإعداد كلّ ما يلزم، لذلك

بالإضافة إلى اختار الدّليل الذي يعتبر من أهم العناصر لنجاح المُهمّة. وبعد أسبوع فقط من عودته، بدأ الهمس بوجود الشريف، وخرج الخبر علناً ليكون مُتداولاً في أحياء الجزيرة أبا، وبدأ التساؤل عنه، حتى تجرّأ أحدهم بالوقوف أمام الإمام الهادي يسأله عن صحة الخبر وخطورته على أرواحهم إذا غضب النظام ونسي أنه في مكانٍ مليء بالأرواح والأنفس إذا قرّر ضرب الجزيرة ودخولها عنوة، واجتمع الكثيرون على هذا الرأي، وصل الخبر إلى الشريف بعد أن أحس ببعض المضايقات عندما اكتشفوا وجوده، ودخل الإمام عليه وهو في حزنٍ شديد، فبادره الشريف حسين قائلاً:

ـ دمت يا أخي وعزيزي في عزّك ومكانتك التي نعلم، يعلم الله أنّك لم تترك شيئاً من الرجولة والشهامة والإقدام، ولم ينقطع عنّا وفاءك وصفاءك ونقاء قلبك لحظة واحدة، حفظتني ومنعت عنّي وآويتني بعد الله عز وجل، والآن أرجو منك أن تتركنا نذهب، فقد آن أوان الخروج يا سيدي الإمام.

***

خاله ويحبه كثيراً، محل تقديره واحترامه، دوماً جناحيه من فوقه منذ أن كان صغيراً، وحتى اليوم، دعم دراسته وأصرّ على مواصلتها على الرغم من تخوُّف أبيه الشريف يوسف من أن يذهب به العلم الحديث بعيداً عن سِمات أهله وأجداده، وكان صارماً شديداً معه في الكثير من الأحيان، ينظر إليه بعينِ الإعجاب كأنّه دُرة فريدة لا شبيه لها في الكون.

لم ينس الحسين يوم أن اختطفه أخواله من الباب الخلفي لمنزل السيد عبدالرحمن عندما كان مقيماً معه، تضايق أحمد خير كثيراً من هذا القرب والاهتمام الذي يوليه له، فكان يقيم معه وبين أسرته، لا فرق بينه وبين أبنائه وبناته، وفي كل مرةٍ يضع السيد عبدالرحمن المهدي يده فوق رأسه ويقول داعياً له:

ـ بارك الله في ذكائك يا حسين.

فيسأله الحسين:

ـ هل هناك ذكاء مبارك وذكاء غير مبارك؟

فيجيبه السيد عبدالرحمن:

ـ نعم، الذكاء المبارك هو الذي ينتفع به الناس.

يا ترى، كيف يُحدِّد موقفه إزاء خاله، فالأمر مُعقّد وشائك، انقلبت الحكومة، وزال الحكم الديمقراطي، وداعب عبود ورفاقه مشاعر الجماهير من السودانيين بشعارات موسيقية رنّانة تدعو للوحدة والعدل والمساواة، وقد ظلت الأحزاب في صراعٍ وخلاف الفترات السابقة وهي تطحن بعضها بعضاً، ويجتمع الحسين في غرفة مغلقة مع الأزهري وعمر محمد عبدالله وأحمد زين العابدين وعبدالماجد أبو حسبو وغيرهم ليروا ماذا هم فاعلون، ويُهدِّئهم الأزهري بهدوئه وتريُّثه وهو يقول:

ـ علينا الانتظار قليلاً، فقد رأى الناس خلافاتنا، وعرِف الشارع ظروف حكم الديمقراطية المُعقّد في ظلِّ شِقاق مستمر، ولكنّهم لم يجرِّبوا حتى الآن ماهية حكم العسكر وما يصاحبه من قمعٍ وتسلُّط، وفي ظلِّ استعطافهم المُستمر للشارع فلن يسمعوا لنا إذا علا صوتنا بالمعارضة، ولكن مع مرور الزمن سيكتشفون أنّ الأحزاب

بكل سلبياتها أشرف وأفضل من الحكم العسكري، لذا أقترح أن نُكوّن خليّة للمعارضة، وتحديد ملامحها ومهامها، ونؤجل عملها إلى أن يأتي الوقت المُناسب.

خرج الحسين وهو أشد حيرة من التي دخل بها، ماذا يفعل؟ اختار العسكر خاله أحمد خير وزيراً لخارجية حكومتهم، تقديراً لتاريخه النضالي والوطني، ولتعفُّفه طيلة الفترات الديمقراطية السابقة المناصب والمكاسب، وهو صاحب فكرة مؤتمر الخريجين وأوّل من نادى به، وقد استقل عبُّود ورفاقه حدّته وخلافه مع المكوِّنات الاتحادية، وكانوا من الذكاء بأن يكسروا حِدّة اللباس العسكري الأخضر بمدني ذي تاريخ مثل أحمد خير، فهذه جراحة تجميلية لوجه النظام تجعله براقاً وجميلاً، اجتمعت كلّ هذه الأسباب وساعدت على موافقته بالمنصب، الشيء الذي جعل ابن أخته في حيرةٍ عظيمة، هل يُعارض النظام علناً ويصير في مُواجهة مُستمرة مع خاله الذي يعتبر الناطق الرسمي باسم العسكر؟ أم ينضم إلى معسكر خاله ويضرب بمبادئه ومرتكزاته الوطنية والديمقراطية عرض الحائط، ويترك رفاقه وأصدقائه ومن يحبّهم إلى الأبد؟ فكّر لأيام، ووصل لقرار، قد يكون غير مُقنعاً بالنسبة له، ولكنه حلٌّ وسط، وخير الأمور أوسطها، جلس إلى صديقه عبدالماجد أبو حسبو وقال:

ـ لن أعارض النظام، على الأقل في الوقت الحالي.

لم يستغرب عبدالماجد حديثه، فهو يعلم الصراع الدائر في قلب صديقه وعقله:

ـ توقعت ذلك، ولكني لم أستطع تخيل شكل الحل الذي ستقدم عليه.

صمت قليلاً ثم أردف يقول:

ـ سأذهب إلى مصر، وأقيم فيها حتى زواله.

أجابه عبدالماجد:

ـ مع أنّني لست مقتنِعاً كُلياً بهذا، ولكنني أراه كما تراه بالضبط، حلٌّ منطقي في هذه المرحلة حتى نرى ما ستفعله الأيام.

***

ها هي مصر مرةً أخرى، ذكريات وحكايات، يافعاً كان يسير في طرقاتها ومعالمها وأزِقّتها، مقاهيها وأركانها التراثية التي تحكي عن العصور والعهود التي مضت، أمبابة وتجارة الإبل التي برع فيها زمناً جاب فيها الفيافي والصحاري معها قادِماً وقافِلاً، ليالي الأدب الرفيعة واستماع موسيقاها وأصوات أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب وفريد الأطرش، الإسكندرية وكلية فكتوريا وشواطئها الباردة الساحرة.

استقر في فندق الكونتننتال كعادته، يُتاجر ويُساعد وينفق ويُقابل من يأتي ويُودِّع من يعود، عامان ونصف على هذا الحال حتى جاءه اتصال في هاتف غرفته بالفندق، رفع سماعة الهاتف متسائلاً:

ـ من معي؟

أجاب من في الجانب الآخر بلهجةٍ مصرية لا تخلو من التهذيب والدبلوماسية:

ـ معك مكتب السيد رئيس الجمهورية، أريد أن أنقل لك تحيات الرئيس جمال عبدالناصر وهو يطلب منك مقابلته عند الساعة الخامسة عصراً بمنزله.

أجاب قائلاً:

ـ بلغه تحياتي وقل له بأنّني سأكون في الموعد.

كان الرئيس جمال عبدالناصر من أشدّ المُعجبين بشخصية الحسين، ويعرف عنه تجارته للإبل حتى أنّه يلقِّبه بثعلب الإبل، ويعرف حِدّة ذكائه وإمكانياته المهولة في كيفية حل الأمور والمعضِلات، ولم يغِب عنه تلك الرحلة الخطيرة التي قام فيها بإدخال السلاح إلى الثور الجزائريين، وكان يقابله في كل مرّةٍ يزور فيها السودان، وزار أيضاً سراية الشريف يوسف الهندي ببُرِّي وأهداه الخليفة الشريف عبدالرحمن الهندي سيفاً نادراً وأكرمه غاية الإكرام.

دخل عليه في المساء وكان واقفاً على استقباله، وبعد أن تبادلاً كلمات الترحيب والاطمئنان قال له الرئيس جمال:

ـ في ظل اهتمامنا بقضايا التحرر الإفريقية والعربية، لديّ اتِّفاق مع

صديقنا باتريس لوممبا، كان قد أبدى لي مخاوفه في نيّةِ بلجيكا وإنجلترا بنهب ثروات الكنغو من الذهب.

أضاف الحسين:

ـ أعرف لوممبا، جاء إلينا مِراراً وكنّا معه في زيارات مُتعدِّدة، وطني وثوري لا يُشقّ له غبار.

واصل جمال في حديثه:

ـ طلب مني نقل هذا الذهب بطريقةٍ غير رسمية حتى لا يقع في أيديهم، يرى أنه من الأفضل أن نحفظه هنا حتى يتم إعلان الاستقلال الذي شارف موعده.

صمت الحسين قليلاً وقال:

ـ مهمة تحتاج إلى طائرة خاصة.

ابتسم جمال لذكاء الرجل قائلاً:

ـ هذا صحيح، لأن استخدام طائرات مصرية أو سودانية يُعتبر عملًا رسميًّا وقد يخلق ذلك عند استخدامها أزمات دبلوماسية لا حصر لها.

اعتدل الحسين في جلسته وأشعل سيجارته قائلاً:

ـ صديقٌ لي فرنسي، يعمل في شركة طيران في باريس، لا أظن أنه سيبخل عليّ بتسهيل إجراءات شراء طائرة خاصة، أريد من يقودها وتسهيل الإجراءات.

أومأ جمال موافقاً وهو يقول:

ـ لك هذا، سنفرّغ لك حسني مبارك، أحد الطيارين الحربيين المُتميزين في سلاح الطيران، وسأخبر مسؤولي الجهات التي تحتاجها بتسهيل كل الإجراءات.

مدّ له ورقة عليها أسماء وواصل في حديثه:

ـ هذه أسماء ثلاثة مسؤولين مصريين، عليك بتسليمهم الذهب بإيصالات مُتبادلة لحصر الكمية، وهذا خطاب إلى باتريك، تبقّى الآن أن نتّفق على نسبتك من العملية على أن تأخذها من نفس الذهب المنقول.

أطفأ الحسين سيجارته مبتسماً وقال:

ـ لديّ معلومات مؤكّده بأن ذهب الكنغو متفرّق في عدّة أمكنة

سرية، فإذا داهمته المخابرات الأجنبية يظنون أنهم وضعوا يدهم على كل الكمية، لذا من الاستحالة أن تتم عملية نقله في رحلةٍ واحدة، أتوقع أن تكون ما بين ثلاث أو أربع رحلات، وسآخذ نسبتي يا سيادة الرئيس من آخر رحلة بإذن الله.

أومأ الرئيس جمال موافقاً وسأله:

ـ تبقي لدينا تحويل مبلغ الطائرة.

قاطعة الحسين موضِّحاً:

ـ احترازيًّا أُفضل أن أشتريها باسمي، حتى لا تثير الانتباه وينكشف تدخُّلكم في العملية، لديّ ضمانات عديدة يمكنها عبرها أخذ الطائرة دون أن أدفع أيِّ مبلغ لهم، وسأخصم سعرها أيضاً من آخر عملية.

أعجب جمال عبدالناصر أيما إعجاب بهذا الرجل شديد الذكاء والشجاعة معاً، وقف عبدالناصر بعد أن دخل عليه سكرتيره يذكِّره بزيارةٍ عليه التهيئة لها، مدّ يده مصافحاً وهو يقول:

ـ على بركة الله يا الشريف، لا تنس إبلاغ تحياتي لشقيقيك مولانا عبدالرحمن ومولانا إبراهيم، ولا تنس أيضاً أن لديك تصريح تقابلني به في أيِّ وقتٍ تُريده، ما عليك إلا الاتصال بسكرتيري.

أكمل الحسين إجراءات سفره في ساعاتٍ قليلة بمساعدة المسؤولين وطار إلى باريس، حيث كان صديقه فردريك في استقباله، وباشر في صباح اليوم الثاني إجراءات شراء الطائرة، وأخذت أيضاً يوماً آخر لاستخراج الأوراق والتصاريح الخاصة بها للطيران، وفي اليوم الثالث عصراً كانت الطائرة تشقُّ طريقها إلى سماء القاهرة لتهبط فوق مدرّج مطار القاهرة الدولي عند الثامنة مساء ويقودها طيّار فرنسي.

استقل سيارة كانت تنتظره بالقرب من الطائرة وتوجه فوراً إلى منزل الرئيس، تناقشا في أمورٍ شتّى عن تفاصيل المهمة وافترقا على أن يغادر الشريف غداً مساءً إلى برازفيل، وقبل صعوده الطائرة، صافحه كابتنها وعرّفه باسمه قائلاً:

ـ أهلاً بيك يا فندم، اسمي محمد حسني مبارك.

صعدا سلم الطائرة وما هي إلا دقائق حتى كانت الطائرة تشق القارة

جنوباً نحو الكونغو. المهمة خطرة إلى الحدِّ البعيد، وبرازفيل ملتهبة إثر تردّد ملك بلجيكا ورئيس وزرائها في أمر التوقيع على استقلال دولة باتريك لوممبا، ذلك الثائر الذي يحاول الفكاك بشعبه من براثن الدموع والدم والنار، والغرب بكل عيونه واستخباراته يحومون حول الثوار والكنوز للبحث عن مواطئ أقدام لهم في المستقبل.

في هزيع الليل، باتريك يلتقي الشريف حسين في أحد المزارع التي تبتعد عن العاصمة قليلاً، وكان في أتمّ الجاهزية لتنفيذ المهمة، حيث تهيأت الدفعة الأولى من الذهب قبل هبوط الطائرة إلى برازفيل، ومع طلوع الشمس كانت الطائرة في طريق العودة، انتهت الرحلة الأولى بنجاحٍ منقطع، وتلتها ثلاثة رحلات خلال أسبوع كامل قضى الحسين أغلبه ما بين السماء والأرض، وبعد انتهائه من المهمّة كاملة، جلس مع عبدالناصر والمسؤولين الذين سلّمهم الذهب وجردوا أوزانه وعياراته وأخذ الشريف نصيبه من الذهب وطار به إلى باريس، وعند وصوله قام بتسديد ثمن الطائرة بعد أن الت ملكيتها باسمه، وأودع الذهب في أحد البنوك الفرنسية وعاد بطائرته إلى القاهرة، والى غرفته بالكونتننتال، ولا أحد يعلم حتى المُقرّبين له أين كان؟ وماذا يفعل؟.

***

طريق الدمازين.. منتصف أغسطس 1969م

ـ كيف أتركك تذهب هكذا؟ دون وجهة، وبدون خطة يا الشريف؟.

صمت الشريف للحظة قال بعدها:

ـ لا عليك يا إمام، الله سيحفظنا، وهو يعلم أننا لا نريد إلا الخير لهذه الأمة، وهو قادر على كلّ شيء.

تساءل الإمام:

ـ أين سيكون المسير؟

أجابه الحسين واصِفاً بيمينه باتجاه الشرق:

ـ سنتّجه إلى جبل سقدي، ومنه إلى العُقدة، سنحاول أن نجرِّب طريق كسلا، سنحاول المرور عبرها إلى الحدود.

لم ير الشريف نظرةً يأخذها الحزن مثل التي تعلو وجه الإمام، ولكن الأمور انحرفت إلى غير ما تشتهي أنفُسهم، وفي خروجه حفاظاً عليه وعلى مكانته قبل أن يكون حفاظاً عليه، فالوضع صار أقرب إلى حالات الحرب التي تبدأ بالاحتقان، ثم التراشق بالكلمات والألفاظ، وظهور حائكي الفتن وبائعي الظنون والمطامع، وفكر مسعور أصاب النظام الجديد ليتخيّل أن كل من يصمت هو ضدّهم، ناهيك عن الذين يجاهرون بالمعارضة علنا، فالبؤرة المعارِضة صارت تتشكّل في الجزيرة أبا حتى صارت كالمعسكر المغلق على المُعارضين، وصارت تحرسها طائفة الأنصار بالسلاح الأبيض والناري.

النميري يضع الجزيرة أبا في كفّة، والحسين في كفة موازية ومُوازِنة، وكلّ خوفه بأن يُحلِّق في سماء العالم مُعلناً معارضته النظام، وهو ذلك الرجل الجذّاب الذكي ذو الإمكانات الخارقة، أضاف الحسين بعد أن دخل معاونو الإمام مُعلنين جاهزية العربة اللاندروفر بكل ما يلزم لرحلةٍ قد تمتدّ لأسابيع، وقف الشريف وبعض الدموع تقف بين رموشه، وقال:

ـ سألتك بالله أن تُحافظ على نفسك وأهلك ومن معك، وأسأل الله لنا

الحفظ والعافية، وإذا أراد الله لنا لقاء سنلتقي بحوله وقوته.

وكان عِناق الأحِبّاء المُفارقين، بعد رحلةٍ امتدت منذ نعومة أظافرهم، وصداقة تقوى وتكبر كل ما طلعت عليها الشمس، لم تتغير بسببِ انتماءاتٍ وما أكثرها، ولم تتحوّل بالصراعات وما أكثر ما خاضوها، ما بينه والإمام الهادي جبلاً من الإخاء والمحبّة والثقة، لا تهُدّه الأعاصير ولا تجرفه المياه. ركِب علي العبيد خلف عجلة القيادة، والشريف جواره والخليفة مصطفى جوار النافذة، وانطلق الاندروفر في الساعة العاشرة ليلاً باتجاه الشرق قاصدين جبال قفا التي تؤدِّي إلى سقدي.

بدأ الخليفة مصطفى في تلاوة ما تيسّر من القرآن، صوته جميل وعميق، يسلب الجوارح قلقها ويطفى السكون في القلب، هدوء يلف المكان إلا من صوت ماكينة السيارة، وروائح الأشجار والمحاصيل تُعطِّر الأرض، إلى أين تذهب عقولهم في تلك اللحظة؟

إلى تلك الليالي التي يقيمون فيها صادحين بمديح المصطفى صلى الله عليه وسلّم في ساحات سراي الشريف عندما يرخي الليل ظلامه وتترصع السّماء بالنجوم.

فرغ الخليفة مصطفى من قراءة سورة يس، وبدأ الشريف يدندن بكلمات أمداح أبيه بصوتٍ خافِت ويقول:

- "إلهي أفتح لنا رحمتك، وأنشر علينا لواء حكمتك، وأسبغ لنا الجمّ من نعمتك، وأوفر عطانا فمن نعمتك، وقدِّر لنا الخير حيث نكون، وآتي التُّقي ثم أهدِ الشؤون، ليوم لقاكم بكم مؤمنون، بذكرٍ وشكرٍ نفي خدمتك، وسلمنا بالنبي يا سلام، ونوِّر علينا واجلِ الظلام، واحفظنا يا حفيظ الأنام، وأصلح لنشكر في حضرتك، واهدِ تُقانا لكي نتّقي، وأسعد أيا مُسعِداً للشقي، وأشرح لنا صدرنا الضيّقِ، وقوِّ لنا من عُلا قوَّتك".

توقف الشريف حسين ممازِحاً الخليفة قائلاً:

- لم أسمعك يوماً تمدح ما كتبته في سيدي المصطفى صلوات الله عليه.

ضحك الخليفة وهو يقول:

- لم أمدحها بالفعل، ولكنّي أحفظها.

ابتسم الحسين وقال:
- هاتها إذاً.
بدأ في مدحها وقال صادحاً:
- "بروق الخيف ضياك بعيد
على المُشتاق صباح العيد
ضِياك عليا زاد حزني
وخلى النوم يسيب بدني
أنا ليك مُشتاق وشوقي طبّق الآفاق
وليك دوام نُواحي يزيد
بروق طيبة وضياء الغار
تلوح من سِيدك المُختار
أنا ليهو بهيم ولي في سوحو ألف نعيم
معاجزو الأعيت التسجيل
شجاعتو الما في ليها مثيل
يظِلو الغيم ويمشي في حِماهُ الريم
ويبسم ثغرو درو نضيد".
قطع المديح ليقول:
- كثير من الناس يتعجبون عندما يسمعونها ويعرفون أنها من نظمك، كونك أفنديًّا تنتهج السياسة.
ضحك الحسين قائلاً:
- لو يعلمون أننا لا ننفكّ من جذورنا النبوية الصوفية مهما لعبت بنا الحياة واتجاهاتها، لنا جانب من حياتنا لا نتركه أبداً، فهو السكينة والهدوء عندما تدلهمّ الهموم والخطوب، والملاذ عندما تتكاثر علينا مصائب الدنيا وشياطينها، وفي كل ذلك فهي آخرتنا التي إليها معادنا.

وفي هذه الأثناء قطع مسامرتهم صوت إطار السيارة الخلفي، بدأ الهواء ينفذ منه بصوتٍ مسموع، توقّفوا وانحنوا فوقه نصف ساعة وأصلحوه، طلب منهم الحسين أن يبقوا قليلاً، كانت الساعة تُشير إلى الثانية صباحاً، وجبل سقدي لا يبعد عنهم كثيراً، قد يستغرق الطريق

إليه نصف ساعة، صعد الشريف فوق ظهر اللاندروفر، وأشعل سيجارته وبدأ بنفخ دخانها الذي تداخل مع نجوم السماء، وبقي على هذا الحال ثلث ساعة لم يتفوه فيها علي العبيد والخليفة مصطفى بحرف، وفجأة صاح الحسين بصوت علا قليلاً:

ـ سنغيِّر وُجهتنا.

تساءل علي العبيد:

ـ إلى أين سيدي الشريف؟

أضاف قائلاً:

ـ سنتّجه جنوباً، سنذهب إلى مشروع علي رجب.

نزل خبره كالصاعقة فوق رؤوسهم، كيف يذهبون إلى هناك وقد طلب منهم صاحب المشروع قبل أيام أن يأتوه بعد شهر؟ يا ترى في ماذا يُفكِّر الشريف؟ تساءل الخليفة وقال له:

ـ لا أعتقد أنه سيكون قد هيأ الأوضاع.

قفز الحسين من السيارة وجلس أرضاً وجلسا جواره وقال:

ـ هناك الكثير من المعوّقات، الطريق إلى الشرق نحو كسلا أقرب إلى ضعفي المسافة من الطريق إلى الكرمك، وسيكلِّفنا زمناً ووقوداً، وهذا الطريق أيضاً يضطرنا إلى قطع النيل الأزرق ونهر الرهد ونهر عطبرة إلى البطانة، وفي هذه خطورة كبيرة، وبما أننا نسير بعربة فلا بدّ أن نأتي الجسور والتي بها نقاط مُراقبة وحراسات مُشدّدة، أضف إلى ذلك أنه لا أحد يعلم بمسيرنا ولا أحد ينتظرنا من معارفنا حتى يقوم بمساعدتنا، ولا أعتقد أنّنا سنجازف بترك سيارتنا ونعبر الأنهر للبحث عن سيارات في الضِّاف الأخرى.

وقف على رجليه وواصل قائلاً:

ـ أما الطريق إلى الدمازين فقد يكون وعِراً، ولكنّه يخلوا من الموانع إلا البشرية منها، في هذه الحالة يُمكننا البقاء في مشروع علي رجب حتى يستقيم الطريق وتجفّ الأمطار، والمشاريع هناك مُتسعة وشائكة، ويسهل الاختباء فيها.

تحليل مُقنع، ولكنه يحتاج إلى الإيمان والتوكّل، فالطريق وعِر وليّن،

والسماء مليئة بالماء، والبروق تتلامع في خطّ الأفق جنوباً وشرقاً، ولكنه أفضل من التوجُّه إلى كسلا في كل الأحوال، وبالنّجوم التي تُدِلُّ على اتجاه الجنوب، انحرفت العربة عبر طريقٍ صغير.

بدأ المسير باتجاه الدمازين في الوقت الذي بدأت فيه خيوط الشمس الحمراء في الظهور، سار علي العبيد بطرقٍ قاسية وفوق تضاريسٍ خشنة، والطين تقذفه الإطارات قِطعاً مُتفتِّتة إلى السماء، وماكينه العربة تخال أنها ستحترِق من شِدّة وطأة السائق على دوّاسة وقودها، تجاوزوا قرية أم جديان.

يعلم الشريف ومن معه بعد تجاوزهم لهذه القرية أنهم مقبلون على وادي كليكيز، وفي منتصفه منخفض وعِر، وتتجمّع فيه طينة الأمطار اللزجة عند مرور مياه الأمطار، وفي تمام الخامسة صباحاً، وقبل شروق الشّمس بدقائق، كانت العربة تزأر لتتجاوز قلب الوادي، ولسوء الحظ، توحّل اللاندروفر، وغاصت إطاراته الأربعة في الوادي حتى التصق أسفل العربة بالطين. بحيث لا تستطيع أيّة قوّة بشرية بإخراجه، وما هي إلا دقائق حتى يمتلئ الوادي بالناس والبهائم.

***

أكتوبر 1964م

انطلقت رصاصة وحيدة في أوّل الليل من فوهة بندقية نظامية لتخترق قلب الطالب بجامعة الخرطوم أحمد القرشي، ندوات كان يقيمها طلاب الجامعات احتجاجاً على حكم عبود، فبعد مقتل القرشي حدث ما حدث، توالت المظاهرات والاحتجاجات والإضرابات حتى امتلأت شوارع المدن عن بكرة أبيها، فما كان من عبود إلا الانسحاب والتنازل عن حكمه لتأتي الفترة الانتقالية بقيادة سرالختِم الخليفة.

وعاد الحسين من القاهرة بعد سنوات قضاها في مطلع الستينيات جاب فيها البلاد، وأنشأ فيها العلاقات، وجمع فيها من الأموال الكثير، فلم يكتف جمال عبدالناصر بنقله الذهب وحسب، بل أرسله ليأتي بأبنائه ونجح بمعاونة المخابرات المصرية، وأرسله مرةً أخرى ليخطفه بعد أن اعتقلوه واقترب موعد إعدامه، ولكنّه تأخر فكان بين وجوده في برازافيل وإعدامه ساعات قليلة، أنشأ الحسين علاقة طيبة مع قازنقا خليفة باتريس لوممبا، وبقي الشريف في مساعدتهم ببيع السلاح لهم مقابل الذهب، وسافر إلى بيروت تاجراً وسائحاً فصادف الشيخ زايد بن سلطان ليقيم معه صداقة وعلاقة قوية، ولم يتوقّف من دعم ثوار الجزائر بالسلاح عبر بيروت ومصر وقد ساعده جمال عبدالناصر في ذلك كثيراً، كل هذا وأكثر كانت هي سنوات حكم عبود، حصيلة ضخمة ودراية واسعة وعلاقات دولية لم يكن ليحظى بها لو كان معارضاً للنظام أو حتى لو كان وزيراً، فالعمل حراً بلا قيود، ليس له أطُرٌ وقوانين تحكمه وتلزمه أمام جماعة أو تنظيم أو حكومة.

عاد الحسين إلى الخرطوم، وجرت الدماء في الجسد الديمقراطي من جديد، وأقيمت الانتخابات لخطف بطاقات دخول الجمعية التأسيسية لبرلمان السودان، وذهب الحسين إلى دائرته الحبيبة، دائرة الحوش، التي فاز فيها من قبل وهو غائب عنها في دارفور، ويفوز فيها اليوم باكتساح

مُنقطِع النظير، محمد أحمد المحجوب رئيساً للوزراء، والحسين وزيراً للري والقوى الكهربائية ولم يتجاوز الأربعين من عمره، وبعد شهور على تكوين الحكومة استقال إبراهيم المفتي لأسباب مُتشابكة من حقيبة وزارة المالية، فكلّف المحجوب الشريف حسين بإدارة الوزارة، وما هي شهور أخرى حتى تم إسقاط حكومة المحجوب لتنتخب الجمعية التأسيسية الصادق المهدي رئيساً للوزراء، وكان الحسين أيضاً ضمن الطاقم التنفيذي وزيراً للحكومات المحلِّية.

جاء الشريف من مصر بعد أن فرغ من إحدى زياراته الرسمية، وكان قد قضى مع جمال عبدالناصر ساعات في مكتبه الرئاسي، أسرّ له بتوافق كبير بين رؤساء وملوك الدول العربية بتعيين السيد محمد أحمد المحجوب أمينًا عامًّا لجامعة الدول العربية، فالرجل يحمل خبرة كبيرة، ويمتاز بفكرٍ واسع في قضايا العرب والعالم، وأديباً زرباً، ومفوهاً، فهو الأنسب لها والأجدر بها، طار الحسين فرحاً وأسرع فور وصوله المطار إلى أم درمان، حيث مقر إقامة رئيس الوزراء الصادق المهدي ورئيس الحزب الذي ينتمي إليه المحجوب وأخبره بالأمر فكان ردّه:

ـ أنا في عجلة من أمري وأحتاج إلى المحجوب كثيراً في الفترة القادمة.

أجابه الحسين:

ـ مهما كانت حوجتكم، أعتقد أن منصب أمين عام جامعة الدول العربية شيء مُشرِّف لنا كسودانيين، بالإضافة إلى أن ذلك سيخدمنا كثيراً.

أجابه مُصرًّا على موقفه:

ـ أنا معك يا الشريف في كل ما ذكرته، ولكن لديّ خارطة طريق بدأت العمل بها منذ أن توليت المنصب.

سأله الحسين وقال:

ـ ما هي؟

أجابه قائلاً:

ـ سأعمل في الستّةِ شهورٍ القادمة أن أضع حلولاً لكافّة مشاكل السودان وأشرع في ترجمتها على الواقع، ثم أتفرّغ للمشكلة العربية.

يجيب الحسين مُحاولاً إثناءه عن رأيه:

ـ أتمنّى لك التوفيق، ولكنّي لا أرى أن وجود المحجوب في جامعة الدول العربية سيعيقك في شيء، بل سيدعمك ويُسهّل عليك حل الكثير من القضايا التي ذكرتها.

أجابه بإصرار:

ـ لا أعتقد ذلك.

خرج الشريف وهو في حيرة من أمر الرجل، يظنّ أنه طموحه زائد ومُتسرّعٌ بعض الشيء، فهو يشغل هذا المنصب ولم يبلغ الثلاثين من عمره، فيكف يتحكّم في سياسي مُخضرم مثل المحجوب، يعود الحسين ويدرك أسباب حدوث مثل هذه المُفارقات، سببها خلط الطائفة مع السياسة، وهذا ما يرفضه منذ مضيّه عتبات السياسة الأولى، كثيراً من السياسيين رهنوا أنفسهم لشيخ طريقة أو عمدة قبيلة أو ناظر خط، فتقلّص وانكمش وصار سياسيًّا بلا سياسة، ووزيراً بلا قرارات، وأداةً طائعة في يد من له الكثرة في الدائرة، فكانت هذه الحكومات الشائهة التي تُنصّب وزارة وتقيل أخرى حتى أرهقت الصراعات السودانيين وصاروا إما كافراً بالسياسة، وإما منغمساً في مياهها الآسنة. مضى الحسين في خدمة الناس، وترك الصراعات، فهذا ما يفيد.

لن يستفيد المواطنون من هذه المفرزة التي يردها الساسة، في من هو الحزب الأفضل ومن الأسوأ، وما يليه في خدمة الناس بحسب مهامه الوزارية هي توسيع الرقعة السُّكانية وإعطاء المواطنين أراض يسكنون فيها بعد تكدُّسهم على ضفاف الأنهار في بيوتٍ لا ساحات لها ولا أراضٍ للخدمات والمدارس، فقام بتخطيط حي الصحافة وحي جمال عبدالناصر امتداداً لمنطقة البراري، والكثير من الأحياء في العاصمة والمديريات، مع توفير الكثير من المرافق الخدمية للمحرومين منها، وبذل في ذلك أسفاراً متتالية إلى مواقعها، فقد كان وزيرًا ميدانيًّا لا يركن في أثاثاتِ مكتب جديد، ولا يستكين في منزلٍ وثير الأثاث والأسِرّة، وجاءت الحادثة التي قذف فيها السيد رئيس الوزراء الذي صب جم انتقاداته على الشريف حسين وأدائه في الحكومة السابقة والحالية، وبينما الشريف في تجواله

بين المديريات، وقف الصادق المهدي في قلب البرلمان وألقى خطاباً يهاجم فيه الحسين، وانتقد كثرة غيابه وضعف أدائه الفعلي وانشغاله بمهامٍ ليست من صميم عمله الوزاري، وردّ عليه الشريف بخطابٍ طويلٍ وقوي وهو يعتلي منصّة البرلمان، دافع فيه عن عمله وجهوده وختمه بقوله:

- "وليعلم السيد رئيس الوزراء، أنه في الوقت الذي كنّا نتجوّل فيه على أرجلنا تارة، وفوق عربات الكارّو التي تجرّها الحمير والحصين تارةً أخرى، في مجاهل لم تطأها أقدام مسؤول مركزي من قبل، كنت أنت تقوم بجولاتٍ حزبيةٍ ماكوكية، تستغلّ فيها الطائرات الحكومية، بوقودها وبجيوشٍ جرّارة من الموظفين الحكوميين الذين يعدّون لهذه السفريات، وكل ذلك من مال وعرقِ المواطنين الكادحين".

اشتعلت النيران في نواب حزب الأمة، واستشاطوا وغيظاً، وأجالوا نظراتهم الغاضبة في من يرد على الشريف، وتركزّت أعينهم في عثمان جاد الله النذير، رجل حزب الأمة القوي، ولكن لم يكونوا قد فطنوا بعد بأنّ الشريف في إطالته لردِّه قصد أن يضيِّع زمن الجلسة التي تُحكم باللائحة، وأهمها الحِفاظ على الزمن المُقرّر للجلسة، وتفاجأوا بالمحجوب الذي اقترح بقفل باب النِّقاش في هذا الموضوع، وكانت التثنية من أحد النواب الاتحاديين، وكانت الإجازة بتصويت السواد الأعظم من نوّاب البرلمان، جلسة تاريخية احتفى بها النّاس وأعجبوا إيما إعجاب، الأمر الذي جعل الإذاعة السودانية تعيد وقائع هذه الجلسة ثلاث مرّات غير التي كانت على الهواء. وسقطت بعدها حكومة الصادق المهدي من داخل البرلمان، كل ذلك والسيد إسماعيل الأزهري رئيس مجلس السيادة يزيد إعجابه يوماً بعد يوم بالشريف حسين، وعند تكوين الوزارة الجديدة من حزب الأمة بزعامة الإمام الهادي المهدي، والحزب الوطني الاتحادي بزعامة إسماعيل الأزهري، أوكلوا قيادتها للمحجوب مرةً أخرى، وتم تعيين الشريف حسين وزيراً للمالية.

ومنذ تلك اللحظة، لم يذق طعماً للراحة، ازداد رهقه وتعبه، وكثُرت إغماءاته بسببِ الجوعِ والسّهر، ولم يتركه الناس في مكتبه أو منزله، بل أنّه لم يفكِّر حتى في الزواج، نعم، الزواج، كيف سيكون حال تلك

المسكينة التي سيدخُل عليها؟ ليس لديه غُرفة خاصة، فغرفته تمتلئ هي الأخرى بالناس فلا يجد فيها شِبراً للنوم، ولا يملك دورة مياه، فحتى هو كان يمتلئ بالناس، أصحاب حاجات وطالبي وظائف وعابري سبيل وطلاب ومزارعين وقيادات القبائل والأحزاب، الكل يعلم علم اليقين بأنه لن يعود فارغ اليدين.

أتاه يوماً وفد من قرى جبل مويه، وصلوا ليلاً وناموا على مراتب في الحديقة، وفي الصّباح وبعد شرابهم الشاي، سأل أحدهم عن الشريف، فردّوا عليه بأنه ذلك الذي ينام على الأرض وسطهم، بكوا لحاله وانتظروه حتى استيقظ من نومه، وباشر عمله بعد التفاف المنتظرين حوله، ولم يجد حتى دقائق يذهب فيها إلى الحمّام ليقضي حاجته ويستاك، فقال لرجل جبل مويه:

ـ ها، ماذا تريدون يا ود الناير.

أجابه:

ـ نشكو العطش ونريد بئرًا ارتوازيًّا.

أجابه بقوله:

ـ عودوا وستجدون ما تريدون.

وعند عودتهم وجدوا الحفّارة تخرِق الأرض وقد أتت قبل وصولهم بيومين.

جلس يتفاكر مع دينمو الحركة الوطنية، الزعيم يحيى الفضلي وزير التربية والتعليم في مكتبه عن همومه التي ترتكز في حركة الشباب هذه الأيام، قال له:

ـ كيف ترى الشباب؟

أجابه يقول:

ـ فراغٌ عريض وإمكانيات عالية وطاقات مُهدرة، المناهج في المدارس لدينا قوية لدرجة أن خريج الكُتّاب يستطيع شغل منصب أصيل في أي مصلحة حكومية.

واصل وقال:

ـ إضافةً إلى الأفكار الوافدة التي تعتبَر اعتناقها وحملها موضة

يتفاخرون بها في ظل هذا الفراغ الذي قلته، وما يأتي من الخارج إذا امتزج بسماتنا ومُكوناتنا الاجتماعية سيكون شرخاً في الشخصية السودانية يصعب ترميمه في المستقبل، وسيتوالى على البلاد جيل مشوّه ونسخةً باهتة من المجتمع.

ابتسم الدينمو وهو يقول:

ـ أراهن أنّك قد أعددت حلًّا.

أشار الشريف إلى سطح مكتبه المُتناثر وقال:

ـ رسمت بعض الخطط لذلك، سأشرع في تنفيذها الأيام القادمة.

***

مزرعة علي رجب ـ نواحي الدمازين..
التاسع عشر من أغسطس 1969م

أصبح الوضع كارثيًّا حين هطلت الأمطار وهم على هذه الحالة، اللاندروفر يئنُّ ويصرخ ولا يبرح مكانه، علي العبيد والخليفة مصطفى تغطّوا بالطين تماماً، تارةً يجلبون حطباً يحفرون له الطين ليضعوه تحت الإطارات فيغطس الحطب وتلفّ الإطارات وحدها بشكل جنوني، وأخرى يأتوا فيها بالحجارة فتلحق بالحطب حتى صار اللاندروفر مرتكزاً على بطنه الذي يرقد في الطين بكامله، منعا الحسين من مساعدتهما، اتّخذ شجرة لم تمنعه قطرات المطر، وقف تحتها يُدخِّن سجائره، ولحسن الحظ منعت الأمطار سالكي الطريق هذا الصباح، ولكنّها تنحسر شيئاً فشيئاً. خرجت الشمس من بين السُّحب التي أفرغت ما تحمله وأرسلت أشعتها الدافئة، تجاوز الوقت العاشرة ولم تفارق العربة مكانها شِبراً واحِداً.

بدأت الحركة تدبّ في جنبات الوادي، وأصوات البهائم ترتفع شيئاً فشيئاً، ثمّ لاحت رؤوس الرعاة من بعيد وهم في بطن الوادي وينتظرون اقترابهم شيئاً فشيئاً، لم يستطيعوا نداءاتهم للمساعدة، ولكن رجلين يركبان حمارين وراعي غنم أتوا ليساعدوهما، ساعة كاملة وواصلوا سيرهم دون فائدة.

ظلا يحاولان حتى انتصف النهار، خارت قواهما وارتميا في رمال الوادي التي ترتفع قليلاً من الطين وأنفاسهما تتلاحق، أخرجا بعدها طرقات كِسرة مع شيء من الطماطم والملح والشطة، عجناها وصعدا بها إلى الحسين ليشاركهما الأكل، اكتفى بلقيماتٍ قليلة، وأكل بعدها تمرات كانت في جيبه كعادته منذ أن بدأت هذه الرحلة، نزلا يواصلان محاولات يائسة لإخراج العربة. بدأت الشمس في التوجه نحو مكانها الذي ينذر بصلاة العصر.

أفراد آخرين يعبرون، يحاولون معهم دون جدوى، حتى جاء شخص يظهر عليه الإلمام بالحياة العامة ومظهره يوحي بأنه من مُدّعي ثقافة، لم يحسوا بخطورةٍ مثل ما يحسون به الآن، أسئلته كثيرة وفاحصة، مغلفة بشيء من الخبث، أخبرهم بأنّه من أم جديان، القرية التي تلي وادي كليكيز مباشرةً، هي بعيدة بعض الشيء، اقترح أن يأتي لهم بلوري يخرجهم.

ومضى نحو قريته مُسرِعاً، كان عليهم الخروج من هذا الوادي قبل أن يأتي ذلك الثرثار، صار الوضع حرِجاً حتى أنهم فكّروا في ترك اللاندروفر والمضيِّ بدونه.

وحين دقّت الساعة الخامسة مساءً، أطفأ الشريف سيجارته تحت قدمه وعلى وجهه غضب شديد، ونزل لينضمّ إليهم، وقف لدقائق بالقرب من اللاندروفر يتفحّص أركانه، طلب منهم ملئ خزّان الوقود من الجازولين الاحتياطي، وأمرهم بوضع كل الحطب والحجارة تحت الإطارات، وأضافوا عليه بعض أغصان الأشجار المجاورة ووضعاها تحت الإطارات بأوراقها. صعد السيارة، ثمّ جلس خلف المِقود، وأدار المفتاح.

بدأ في كبسها بشكلٍ مُتصاعد حتّى شقّ صوت الماكينة عنان السماء، ثم وضع العصاة في رقمها المُناسِب، وما إن رضي عنها حتى داس على الوقود بشكلٍ كامل، فقفزت السيارة وكأنّ شيئاً أخذها من الأرض ورفعها من بطن الوادي إلى خارجه.

لم يكن أمراً طبيعيًّا بالمرّة، اتسعت عينا رفيقيه فصاح فيهما لينتبها وهو يقول بعد أن نزل من السيّارة:

- هيا بنا.

اثنتا عشرة ساعة، زمناً ثميناً مُستقطعاً من تلك الرحلة الخطرة. يسيرون ببطءٍ بعد أن (تطمْبَج) الطريق من جديد.

بعد ساعة مرّوا بأم جديان وتجاوزوها. غطّى الظلام أركان الدنيا وصار المسير بالنجوم كما الأمس قاصدين منطقة الدالي، أشياء كثيرة وأمور عِدّة تمرُّ على الشريف، وكأنها شريط ذكريات أو قطار عمر سار ولا زال يسير، هل ما يفعله الآن من محاولاتٍ للخروج، هل هذا في سبيل

الاحتفاظ بحريته؟ أم هو هروب من عِقابٍ ومن عسكرٍ يحكمون الناس بالرصاص؟ ويقول لا، إن ما يقوم به هو احتفاظٌ بحريّةٍ من أجلِ الآخرين، بل هي بداية المعركة لاستعادة حرية الآخرين، تحمّل الحملات الإعلانية والإعلامية التي استمرّت لشهرين ونيف، نكاتٌ وصورٌ كاريكاتيرية هازئة ومضحكة، وتحمّل همس الناس ولمزهم في الجزيرة أبا، والأغاني والدوبيت التي ينظمها ببغاوات السلطان وأرَجُوزاته، وتحمّل نكاية الصحف وأذاها وكذِبها على الناس.

أصبح يُلقَّب بالشريف الهارب، فما ألذُّه وأجمله من اسم، إذن، ستستمرّ اللعبة بينه وبين هذه الحكومة الظلامية، بكل جيشها وشرطتها وسجونها وأمنها، وكل خبرات حلفائها المحليين والعالميين الذين رعوا هذا الانقلاب وما زالوا يشرفون عليه حتى يتمكّن من البلاد.

هو الآن حديث مختلف طبقات الشعب السوداني ومتابعاته، واسمه يتردّد بين النّاس في كلِّ دقيقةٍ وثانية، وتعجَز الحكومة حتى الآن من القبض مع كل هذه الإمكانات، عجزت أن تضع يدها على رجلٍ واحد، لا حول له ولا قوة إلا توفيق الله عزّ وجل وحفظه.

ومنذ الوهلة الأولى، وللكيد للديمقراطية، جنّدت الحكومة كل طاقاتها، كأنما تريد أن تقول بأن هذا الشريف الهارب إذا لم يُقبض عليه، فلن يكون للنظام راحة، ولن يذوق طعم الاستقرار. إذن، لن ينام ليرتاح النظام، هذا هو الشيء الوحيد الذي صدق فيه حدس النظام العسكري وصحّ استنتاجه، وسيكون محظوظاً لو ظفر به، ولعله يحاول الآن بيديه وأسنانه، ويستحدث الوسائل تلو الأخرى، والمحاولات التي تليها المحاولات. ومرحباً بالمطاردات.

ألم يكن مُطارداً مثل هذه المطاردة طوال أربع وعشرين ساعة؟ ألم يكن وزيراً؟ فهل كانت له سلطة الوزير وهيبة الوزير وراحة الوزير وأكله ومسكنه وملبسه؟.

ألم يكن أكثر الناس إجهاداً، وأقلّهم تغذية، وأتعسهم نوماً؟. ألم يكن مطارداً بمثل هذا العدد من المواطنين الذين يركضون خلف قضاء أمورهم وحاجاتهم؟. في المنزل وفي المكتب وحتى في الطريق، ولكن الحكومة

لا تدري بأنه هو من يجري خلفها، فالأرض مستديرة، وسيكون في يومٍ ما خلفهم وبمسافة سيفزعون لقربها، وفجأةً، تعطّلت العربة، سأل الخليفة علي العبيد:

ـ ماذا بها؟

أجابه وهو في حيرةٍ أكثر منه:

ـ لا أدري، عليّ فحصها.

الساعة تشير إلى التاسعة مساء، وبحسبِ سرعة العربة ومستوى سوء الطريق، فإن المسافة التي قطعوها قد تقرِّبهم إلى قرية الدالي كثيراً، وقد تكون على مرمى حجر منهم، وهذا خطر.

لم يجد علي العبيد شيئاً ملموساً، يقول إن العربة تعطّلت بسببه، ولكن محاولاته لم تقف حتى انتصف الليل، وانهارت قواه، وانهار الجميع من التّعب، وللحظة شعروا فيها بأن حوجتهم للنوم أهمّ من الأمان نفسه، فاستسلموا له.

***

وتتوالى المفاجآت، وتتعقّد الأمور بشكلٍ قد تُهبِط كثيراً من الروح المعنوية التي لازمتهم طوال شهرين ونصف، فما إن انجلى الظلام حتى كانت قرية الدالي على مرمى كيلومترين منهم، ونقطة البوليس قريبة من مكان مبيتهم إلى حدٍّ كبير، فها هي ملامح الجنود أوضح من الشمس التي طلعت عليهم، ضحكوا على هذا المشهد وعلى أنفسهم، فأغلب الجنود في مثل هذه المناطق يتطفّلون إلى معرفةِ كل شاردة وواردة تحوم حولهم، ناهيك على أن تفحُّص العابرين هو من صميم عملهم ومهامهم، وبلا شكّ أن لديهم النّشرة التي تأمرهم بالقبض علي الشريف، وقد تكون صورته معلقة على جدار غرفتهم، صاح علي العبيد وقال:

ـ لقد اكتشفت العطل، ولكنّه يحتاج منّي دخول القرية للبحث عن إسبير، فماذا ترون؟

أجاب الخليفة:

ـ أرى أنّنا في أزمة، البقاء هنا والانتظار سيدفع الجنود للمجيء هنا ولو علي سبيل التعارف وتجاذب الحديث، والابتعاد عن السيارة سيلفت انتباههم وسيشكّون في أمرنا.

صمت الشريف لدقيقة قال بعدها:

ـ اذهب أنت يا علي وأقصد نقطة البوليس مباشرة، سلِّم عليهم وأسألهم عن مكان الاسبيرات داخل القرية واذهب في طريقك، سيطمئنون قليلاً إلى أن تعود، وسننتظرك هنا.

قصد علي العبيد نقطة البوليس، غاب بداخلها لخمس دقائق، ثم خرج بعدها أحد الجنود حتى يدلّه على الاتجاه، كانت لحظات قاتلة، ارتعدت فيها أوصال الخليفة قلقاً من أن يأتي الجنود نحوهم، وزاد ذلك القلق إلى الضّعف عندما مرّت فيهم لواري الصباح، يتوقّف الواحد منها ويمدّ سائقها رأسه متسائلاً:

ـ عافية؟

فيجيب الخليفة:

ـ عافية، أرسلنا من يأتي لنا بالاسبير.

فيقول مُصِرًّا على اهتمامه:

ـ إتفضلوا على الحِلّة.

فيجيب سريعاً ليذهب:

ـ شكراً، نحن نحرُس العربة.

فيذهب اللوري، ويتنفّس الخليفة الصعداء، تكرر ذلك المشهد ثلاث مرات، وبعد ساعة، ظهر علي العبيد من بعيد، تغطيه بعض الأشجار ويظهر من جديد حتى دخل نقطة البوليس مرّةً أخرى، كانت حركة ذكيةً منه، تخديرهم مرّةً أخرى لكسب بعض الزمن يصلحوا فيه سيارتهم، وصل علي العبيد وذكرَ لهم خبراً صادِماً، قال وقد ظهرت علامات الارتباك في وجهه:

ـ قال لي أحدهم بأنّه سيأتي ويُساعِدنا، شكرته وقلت له بأن الأمر سهل ومعي من يعاوِنني، لا أدري إن كان سيأتي أم لا.

طمأنه الشريف قائلاً:

ـ لا عليك، فقط أصلح العربة سريعاً.

أضاف الخليفة بقوله:

ـ يُمكننا أن نبتعد قليلاً أثناء ذلك.

أجابه الشريف:

ـ ليس قبل أن يبدأ ونعرف الزمن الذي ينتهي فيه.

بدأ علي العبيد في إصلاح السيارة ومرت ربع ساعة، ابتعد بعدها الخليفة والشريف باتجاه منحنٍ قليلاً عن الذي يُقاصد نقطة البوليس لتشتيت الانتباه، فذهابهما يعني أنّ السائق أوشك على الانتهاء وسيلحق بهما، وما يريدانه هو المشي قليلاً، فيترك العسكري فكرة المُساعدة. الشريف يتحسّس مسدسه، ونظر الخليفة يرتكز جزئيًّا على نقطة البوليس حتى تجاوزوها، وماهي إلا ربع ساعة أخرى حتى جاء علي العبيد، فتنفسوا الصعداء جميعاً عندما تجاوزوا بسيارتهم قرية الدالي، وقد انتصفت الشمس في كبد السماء، سار الاندروفر بأحسن ما يكون حتى

دخلوا مشروع علي رجب بالتزامن مع صلاة المغرب، أدُّوا الصلاة وتحرّكوا متوغلين داخله حتى وصلوا المكان الذي فيه مباني القش حيث يقطن العمال، أوقفوا السيّارة بالقرب منها وأطفأ علي العبيد محرِّكها وغادروها، خرج وكيل علي رجب وصافحهم، وبما أن الخليفة مصطفى كان معهم الأسبوع الماضي فقد عرفه على الفور ونظره لم ينفكّ من الشريف على الإطلاق، سأله الخليفة قائلاً:

- أين علي رجب؟

كانت الطامة الكُبرى عندما ردّ عليهم قائلاً:

- ذهب إلى الروصيرص، ولن يعود إلا بعد عشرة أيّام.

***

اللاءات.1968م

العطالى يصرفون مرتبات من الدولة إلى أن يأتي دور استيعابهم في المشاريع الجديدة، الجيوش الجرّارة من خريجي المدارس الوسطى يملأون المكاتب الحكومية في كل مؤسساتها، نجح الحسين فيما عجزت عنه الحكومات في إفريقيا والعالم العربي، ونفّذ بند الإدارة العمومية قبل بريطانيا نفسها، نظريةٌ اقتصادية ناجعة، تحفظ الأجيال المُتعلمة من الانزلاق بسبب اليأس وتبنِّي الأفكار الهدّامة، تدربهم وهم في نعومة تخرُّجهم فيكتسبون الخبرة الكافية لتسيير دفّة الدولة في المستقبل، وهو استثمار بشري لاستثمارات كبرى تجعل البلاد الة تنموية ضخمة فتزدهر يوماً بعد يوم. وعلى عتبات الانتخابات، كان لا بد من الحزب متمثلاً في جانبه الاقتصادي القوي الذي يقوده الشريف بأن يعدّ برامج طموحة قابلة للتنفيذ فعليًّا لتكون ضمن برنامجه الانتخابي، ليست أحلام تُباع وتُشترى للصندوق الانتخابي وتذروها الرياح بعد أن يعلو صوت الراديو بأسماء الفائزين، فعليًّا قد أعدّ الشريف خططاً جاهزة لمشاريع ستحدث نقلة تنموية ضخمة في البلاد، كُبري حنتوب، مشروع الرهد، طريق مدني سنار، سكر كنانة، كبري سنجة، سكر عسلاية.

أرقام وحسابات يحفظها الشريف بكسورها، وهذه ميزة قد أعيت متابعيه واحتاروا فيها، ويجلس إليه المذيع الشاب الحاذق المتميّز علي شمُّو في حوارٍ ساخن على أثير الإذاعة القومية السودانية، فكان خالي اليدين من أوراق ودفاتر، وبدأ الحديث عن أرقام ميزانية التنمية وما نُفِّذ منها، وزياداتها المُطّرِدة على حسب الإنجاز والتنفيذ، وامتدادات الرقعات الزراعية وما تحتاجها بالأرقام في مشروع الجزيرة وخشم القربة، وامتدادات المشاريع الآلية بالأرقام، وقطاع المواصلات بزيادة القاطرات والعربات بالأرقام، والنقل البحري والجوي، والمستشفيات الحكومية والتخصصية في العواصم وأطراف

المديريات بالأرقام، وأرقام المدارس التي تأسسها الحكومة منفردة، والمدارس المشتركة ما بين الحكومة ومساهمات المواطنين، ومشاريع الإنارة التي ستشمل تسعة عشر مدينة، ومشاريع المياه التي تنتشر في كل السودان بأرقامها، والكثير من المشروعات التي سردها وتحدث عنها.

لم يُخفِ المذيع الشاب استغرابه وهو يستمع إلى حديث ذلك الوزير ومئات الأرقام الدقيقة التي ينطقها لسانه، وكما لاحظ في أوّل اللقاء، الرجل لا يحمل أيّة ورقة في يده، قد يكون مثل بقية الوزراء وأصحاب المناصب الذين يتمتمون بأرقام على سبيل التقريب، أو قد يكون كلام والسلام، ولكنه يرجع ويقول في نفسه، إذا كان كذلك، ما سرّ الكسور التي تكون مع كل رقم ينطِق به.

بعد انتهاء الحوار، لم ينم علي شمو ليلتها، فقد شغله الأمر، وأصبح على فكرةٍ سيدرك بعد تنفيذها بأن هذا الشريف صادق فيما قاله، أم سياسي يلعب بالعقول كشأن كل السياسيين في العالم.

كيل وزارة المالية السيد قاسم صالح ضِرار صديقه، وبحكم وظيفته يعتبر الأقرب إلى الشريف حسين وظيفيًّا وفنِّيًّا، وهو التنفيذي الأول في الوزارة، ومن السهل أخذ كشف منه يحوي ما ذكره الرجل في الحوار الإذاعي بالأمس.

ذهب إلى منزله في أم درمان مساء، جلس معه بعد أن بدأوا في تناول أكواب الشاي مع البسكويت، وقال قاسم مُبتسماً:

ـ أهنئك على الحوار الذي أجريته مع الشريف بالأمس، فقد سمعته من أوله للنهاية، لا يستطيع أحدٌ غيرك محاورة الشريف، فهو رجل ذو هيبة ولغة عالية.

عقد علي شمو حاجبيه وهو يقول:

ـ هذا ما أتيتك لأجله، أتساءل عن الأرقام التي أوردها في حواره، أرقام كثيرة دون أن يستعين بتقرير أو مُذكِّرة.

ضحِك قاسم وقال:

ـ وماذا في ذلك؟

أجابه علي شمو ولم يخف ضحكته وقال:

ـ أريد أن أتأكّد من صحة هذه الأرقام، سآتيك صباحاً لأراها في مكتبك وأطابقها مع الحوار.

اعتدل قاسم ورد عليه:
ـ لك هذا، ولكن أريد أن أحكي لك عن الشريف قليلاً.
أراح ظهره على كرسيه وقال مُواصِلاً:
ـ لقد عملت في هذه الوزارة منذ أيام الإنجليز، وتدرّجت فيها عتبةً عتبة، أعرِف دهاليزها وأسرارها وأرقامها، وتعلم بأن وظيفة وكيل الوزارة تعتمد اعتمادًا كليًّا على الخبرة التراكمية، ورغم كلّ ذلك، لم أر في حياتي رجلاً بذكاء الشريف، لديه إمكانيات غريبة، أستطيع أن أقول لك بأنه عبقري وخارق، فهو يحفظ الأرقام بشكلٍ رهيب، ويعرف التائهة منها والمُخبأة، ويحفظ التقارير بتواريخها وعناوينها وأرقام صفحاتها، ويدير الوزارة بطريقة استثنائية لم أعهدها عند غيره من الوزراء الذين عملت معهم، ليس لديه دوام ثابت، نادِراً ما يأتي صباحاً، أغلب أوقاته التي يقضيها في مكتبه تبدأ في المساء، وقد تستمر حتى آخر الليل، وتارةً يأتي بعد العاشرة ليلاً ويبيت صاحياً بين الأوراق وسجائره وقهوته، ولعلّك قد لاحظت خطاب الوزارة في البرلمان، يطوف فيه ساعة كاملة على تقارير الوزارة التي نضعها في يده قبل وقت قصير من اعتلائه المنصّة، هذا غير حفظه الغريب لأسماء الناس ومناطق سكنهم وعائلاتهم وقبائلهم.
تنهّد مواصلاً حديثه قائلاً:
ـ أعتقد أن الشريف شخصية فريدة، خصاها الله بتلك الخصائص النادرة ليعمل على خدمة الناس، لم أر هذا الرجل يفعل شيئاً لنفسه أبداً، زاهداً في كل شيء، حتى الأكل والشرب، لا يأخذ منهما ما يرويه ويشبعه، إنه شخص فريد، وأسأل الله دائماً في أن تشمله العافية ويطيل في عمره.
يعرف علي شمو بأن الشريف ذكي، ولكنّه تفاجأ بمزايا جديدة، وإمكانيات عديدة، ولكنّ كل ما سمعه لن يمنعه من المُقارنة التي يريد أن يجريها غداً بعد أخذه الأوراق من مكتب صديقه. وكان معه في الموعد، أخذ صورة من التقارير وذهب إلى الإذاعة، أفرد الأوراق على سطح مكتبه، ووضع السماعات على أذنيه يسمع حوار الأمس، وأخذ قلمه يتابع به ويشير، واكتشف بعد انتهائه تطابقاً كاملاً بين أرقام التقارير وأرقام الحوار، فكان شيئاً بديعاً لا أظن أنه مُلاقيه في المستقبل، وصدق صديقه قاسم في كل ما قاله عنه.

***

لا صلح.. ولا اعتراف، ولا تفاوض.

صدحت الخرطوم يومها صباحاً برفض سياسات إسرائيل في المنطقة حتى يعود الحق المسلوب إلى أهله. وقبل ذلك كانت النكسة الكبرى على العرب بهزيمة إسرائيل لهم في الحرب الأخيرة، وعقدت على إثرها جامعة الدول العربية قمّتها الرابعة والطارئة، قرارات تصعيدية أمّنت على ضرورة اتِّخاذ موقف عربي واحد.

دهاليز الحكومة السودانية تعجّ بالحركة والخطابات والاتصالات لإعداد هذا اللقاء الكبير بين الزعماء العرب. فسيعقد المؤتمر الذي سمّي بمؤتمر اللاءات الثلاث في العاصمة الخرطوم، والشريف والأزهري والمحجوب وبقية عقدهم الحكومي يضعون تجاذبات وخلافات قادة الدول العربية فيما بينهم فوق طاولةٍ واحدة، ويعصرون خبراتهم وعلاقاتهم وإمكانياتهم السياسية الفذّة في كيفية رتق ما بين الإخوة أولاً، فلا يستمر قرار المؤتمر بالوقوف ضدّ إسرائيل إلا إذا زالت التوتّرات التي بينهم، وقد نجحوا في هذا نجاحاً كبيراً بفضل القبول الكبير الذي يمتلكوه والثقة الكبيرة التي يوليها لهم القادة العرب، فماتت في الخرطوم المقاطعة النفطية للعرب، وانتهت الحرب الأهلية القائمة في اليمن، وتمّ التأمين على الدعم الاقتصادي لمصر وللأردن، وتوافقوا على إنشاء الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي للدول العربية، وقدّمت السعودية والكويت وليبيا دعماً سنويًّا للمتضررين من العدوان الإسرائيلي، ولن يُقبل السلام من إسرائيل إلا في حالةٍ واحدة، وهي الأرض مقابل السلام، وكان أيضاً الصلح بين أهمّ رؤساء العرب، الزعيم جمال عبدالناصر والعاهل السعودي الملك فيصل بن عبدالعزيز، لتؤكِّد قمة الخرطوم حقيقةً لم يعهدها الغرب من قبل، وهي أن العرب يستطيعون قطع الطريق بتوافقهم أمام إسرائيل والولايات المُتّحدة، وقد تلخّص البيان الختامي للقمة بأن لدى القادة العرب شعور مشترك بعبء المسؤولية التاريخية التي تواجهها الشعوب العربية في هذه المرحلة الحاسمة والدقيقة من

مراحل نضالها، مؤكدين تصميمهم على الوقوف صفًّا واحدًا في مواجهة التحديات المصيرية وما تلقيه على الشعوب العربية من مسؤوليات.

تدارس أصحاب الجلالة والفخامة الملوك والرؤساء وممثلوهم أبعاد العدوان الذي تعرضت له الدول العربية في الخامس من يونيو الماضي، وأقرُّوا بأن إزالة آثار العدوان من الأراضي العربية هي مسؤولية جميع الدول، وتحتِّم تعبئة الطاقات العربية، مع إيمانهم بأن هذه الطاقات كفيلة بإزالة آثار العدوان، وبأن النكسة التي تعرضت لها الشعوب العربية يجب أن تكون حافزًا قويًّا لوحدة الصف دعماً للعمل العربي المشترك.

مجهود جبار بذله الشريف مع رفاقه لإنجاح هذا المؤتمر، والجهد الأكبر الذي تمّ خلف الكواليس كان على عاتقه، فهو وزير المالية، والدينمو المحرِّك لجميع مفاصل الدولة، والميداني الذي يدير مهامه ومهام غيره في الهواء الطلق، وهو نجم نجوم السياسة السودانية الساطعة بشهادة الجميع.

***

مزرعة علي رجب ـ نواحي الدمازين..
العشرون من أغسطس 1969م

أمعن وكيل الإمام نظره ليخترق الشريف، وكأنه يريد معرفة ذلك الزائر، فبادره الخليفة مصطفى وهو يقول:

ـ هذا سائقنا علي العبيد، وهذا هو الخضر، خال الإمام الهادي.

صمت الوكيل قليلاً وهو يتمتم ببعض الكلمات الترحيبية الباهتة، فأضاف الخليفة ليوضِّح له أكثر:

ـ أتينا في مهمة كلّفنا بنا الإمام في الحبشة ومعنا علي رجب، تعرف أنه قد عارض الحكومة الجديدة، وقد اتفقنا معه على المقابلة هنا في مشروعه والتحرُّك، لذا سننتظره حتى يعود.

لا أظنه اقتنع بما قاله الخليفة مصطفى له، ولكنّ الحال لا يحتمل التفكير في مكانٍ آخر، وليس لديهم طاقة إضافية للتفكير حتى بتغيير المكان، فقد نفد الوقود، ونفد الطعام، وهزلت أجسادهم وعلاها الشحوب.

ذهب الخليفة إلى اللاندوفر وتناول المصحف وأتى يطلب من وكيل المشروع بأن يقسم بأن لا يخبر أحداً بأمرهم وبوجهتهم التي ينوون، وكان شديداً بعض الشيء معه، ظهر ذلك في قوة لهجته ووجهه الذي تحوّل إلى غضب حاد جعل الوكيل يرتبك قليلاً قبل أن يتوضّأ ويضع يمينه مُقسِماً على المصف بأن لا يكشِف أمرهم لأحد.

يقع المشروع وسط مشاريع زراعية عِدّة، زُرِع أغلبه بالذّرة وبعضه بالقطن والفول السوداني، وربعه الجنوبي عبارة عن غابة شائكة وكثيفة الأشجار، لاحت لهم فكرة عليهم تنفيذها صباحاً.

الآن عليهم وضع عنقريب الشريف ومواراته خلف السيارة حتى لا يستبين عمال المشروع ملامحه. وقبل شروق الشمس، ذهب الخليفة

مصطفى وعلي العبيد وسط الغابة، واختاروا بداخلها المكان المُناسب لقطع الأشجار وإفساح مساحة دائرية يمكن أن يُقيم فيها الشريف بحيث لا يراه أحد، وقاموا بتنظيفها جيداً، ثم جاءوا بأغطيتهم من العربة وعلّقوها في الأشجار المُحيطة للمكان في شكلٍ دائري ووضعوا العنقريب في وسطه.

سهّل لهم وكيل الإمام بعض المعينات مثل الناموسية والوسادة والمنضدة التي وضعوا فوقها راديو وإناء الماء والسجائر. وبدأ الانتظار المُمل والمجهول، يقضي الشريف كلّ نهاره في الغابة ورفاقه معه، وعند العاشرة ليلاً يأتون به خلف اللاندوفر ويناموون حوله.

يراقب علي العبيد حركة وكيل المشروع وعماله من على البعد خوفاً من أيِّ تصرُّف أحمق يبدر منهم، والخليفة يعدّ الطعام والشراب للشريف ويصلي معه ويكثر من قراءة القرآن سِرًّا وجهرًا. لكم كانت الرحلة موجعة ومُتعبة، مليئة بالأحداث والمواقف، يعود الشريف بذهنه إلى الوراء، إلى فجر الخامس والعشرين من مايو، ليلة الانقلاب، يوم أن هرب من المبيت في منزله الوزاري الذي يعلم بأنه سيكون مُكتظًّا بالنائمين وبالداخلين إليه قبل هاتف الفجر، سيدوِّي أذان الصلاة فيه، ويسوّي الناس صفوفهم، ستكون صفوف المُصلّين فيه أكثر عدداً من المصلِّين في الجامع الكبير، لا، لن يذهب إلى منزله، سيذهب إلى استراحة مشروع الجزيرة، وارتمى ميتاً من فرط التّعب داخل الغرفة ذات المروحة التي تصدر تكّاتٍ مُزعجة، حتى دقّت أصابع عبّاس الفونس باب الغرفة في هزيع الليل، ومنها بدأت تلك الرحلة التي لم تنته فصولها ومغامراتها حتى اللحظة. ثلاثة أيام ولم يظهر على رجب.

في منتصف النّهار، وبينما الخليفة يجلس على سجادة الصلاة بعد فراغه من صلاة الظهر، والشريف متمدد في العنقريب ويبرم خصلات من شعره الذي طال وتشعّث، أتاهم علي العبيد وعلى وجهه رُعبٌ وقلق، قال لهم:

ـ ثلاثة أفراد، يلبسون زي الشرطة يسيرون نحونا.

لا وقت للحركة، وليس هنالك سبيل للهرب، ليس هناك إلا التسليم

لأمرِ الله ومطاوعة القدر المكتوب، أغمض الخليفة مصطفى عينيه يتلو: "وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون".

عاد علي العبيد إلى المساكن حتى يحاول إيجاد طريقة للتمويه والتلاعب عليهم إن استطاع ذلك. وتملّكه الرُّعب عندما سمِع صوت عربتهم تلحق بهم. هذه عربة الشرطة، ليس هنالك سبب منطقي يجعلها تحوم حول المشاريع في هذا الوقت قبل الحصاد، الأمر واضح ولا جدال فيه، اكتشفوا أمرهم، وحددوا موقهم، وأتوا للقبض على الشريف ومن معه، وبعد دقائق، وصل الجنود والعربة معاً، وتجاوزوا المساكن حتى وصلوا الغابة، تقافزوا من فوقها ودخلوا بين الأشجار، لحظات تحبس الأنفاس، يجولون هنا وهناك بحثاً عن شيء، حتى عثروا على الخليفة مصطفى يقرأ القرآن بصوتٍ مسموع وقد ابتعد قليلاً عن عنقريب الشريف الذي لم يحرِّك ساكناً حتى عند رؤيتهم، ولكن يده التي لم يروها ممسكة بالمسدّس على أهُبّة الاستعداد لإطلاق الرصاص، وعلى العبيد في الجوار أيضاً ومسدّسه محشور في وسطه مُستعِد أيضاً، صاح أحدهم مُحيياً الخليفة:

- السلام عليكم.

رد بثقة عالية:

- وعليكم السلام، إتفضلوا.

أجابه على عجل:

- شكراً، نركض خلف حُبارات دخلت الغابة قبل دقائق.

ابتسم لهم الخليفة قائلاً:

- هذا صحيح، رأيت ثلاثاً منها تطير على مستوى مُنخفض وتتجاوز الغابة غرباً.

أجابه قائلاً:

- بالفعل هم ثلاثة، ولكنّ ذخيرتنا نفدت، ألا نجد عندكم ذخيرة.

تلفت يميناً ويساراً وصاح لعلي العبيد الذي جاءه فوراً:

- اذهب إلى العربة وأعطِهم ذخيرة.

أومأ له مُوافِقاً فتبعوه، وبعد أقل ربع ساعة سمِعوا سيارتهم وهي تُغادر المشروع غرباً، تنفّسوا الصعداء، كان أخطر المواقف منذ أن تحرّك

الشريف من الخرطوم، فضحك الشريف مُداعباً:

ـ لماذا لا تبحثوا لنا عن حُبارة، فهي طائرٌ سمين ولحمه طيب.

ضحك الخليفة وهو يقول:

ـ صدقت القول، سنبحث عنها ونصطادها سيدي الشريف.

ثلاثة أيام أخرى ولم يأت علي رجب، بدأت الشكوك تساورهم بأنه لن يعود، قد يكون ذهب إلى العاصمة، خصوصاً وأنّ موعدهم معه بعد ثلاثة أسابيع، ولن يتوقّع ولو بنسبةٍ ضئيلة أنهم سيأتون المشروع خلفه. قال الشريف للخليفة:

ـ يجب أن يكون لدينا خطّة احتياطية، قد يتأخر علي رجب، وعلينا أن نأتي بمن يعرف الطريق، وإذا لم ينتبه إلينا أفراد الشرطة اليوم فقد ينتبهون غداً بعد متابعات نشراتهم وتعليماتهم التي تأتيهم من المركز.

تساءل يقول:

ـ ماذا ترى يا الشريف؟

أجابه:

ـ نادِ علي العبيد.

أتاني مُسرِعاً ليقول له:

ـ خذ جازولين من وكيل المشروع، واذهب إلى سنجة، وتوجه مباشرة إلى منزل خالي يوسف خير، واسألهم من شخص يسمى ود حمدان، أحضره معك، ولا تسأل عن علي العبيد حتى ولو عثرت على من يعرفه.

انطلق علي العبيد بعد نصف ساعة من حديثهم إلى سنجة، ولو سارت الأمور كما يجب، سيعود بعد غدٍ، وبينما الشريف يسمع في الراديو، جاءه الخبر التالي:

ـ "توفي المرحوم الأستاذ إسماعيل الأزهري، وقد كان المرحوم يعمل معلِّماً لمادّة الرياضيات في المدارس الثانوية في مدينة ود مدني".

خبر كالسّهم اخترق آذانهم، نازِلة وقعت على رأسهما، جلس الشريف ووضع يمينه لتتّكئ عليها جبينه ودموع خرجت لتُبلّل ما تُصادفه، بكى الخليفة مصطفى كما يبكي الطفل، انهدّ رُكن من أركان الوطنية، وغاب نجم من نجوم الحرية.

الأزهري الغالي والنبيل، الأمين الهادئ البشوش، ما أبشعه من نعي، وما أسوأهم من بشر، كيف ينعونه بهذا الشكل، أينعى هكذا من رفع علم الاستقلال والحرية؟.

أيُنعى هكذا من أفنى كل عمره من أجل الوطن والناس؟. أيُنعى هكذا الرجل الذي حافظ على وحدة تراب الوطن وأتى بالاستقلال كصحن الصيني كما قال:

(لا فيه شَقْ، ولا فيه طَقْ).

أيُنعى هكذا من قال مقولته الخالدة، الحرية نور ونار، فمن أراد نورها فليصطلي بنارها؟ ما جنس هؤلاء الناس؟ هل هؤلاء سودانيون؟. كيف تتجرأ فئة مهما كان حقدها وبغضها للديمقراطية ورجالها بأن تنعى زعيماً وطنياً بهذه الطريقة، ما أتفههم وما أرذلهم من قوم، أيكون قد قُتل؟ ليس ببعيد عليهم فعل ذلك؟ فآخر معلومة تحصّل عليها الشريف في الجزيرة أبا تقول إن صحّته جيدة، وغرفته تجاور غرفة صديقه خضر حمد في كوبر.

انهار الحسين للحظات أحسّ فيها الخليفة بأنّ قواه قد خارت، وأن عزيمته قد تلاشت، فخاف عليه وقال صائحاً:

ـ سنموت على طريق الأزهري، وستأتي أنت بثأره يا الشريف.

تماسك الشريف قليلاً وقال:

ـ رحِم الله الزعيم الأزهري، رحم الله الأزهري، رحم الله الأزهري.

لم يرَ الحسين يوماً حزيناً كهذا منذ وفاة أبيه الشريف يوسف وأخيه الشريف عبدالرحمن، ليلة كئيبة وحزينة قضياها إلى أن أشرقت الشّمس، وعندما انتصف النهار، حضر علي رجب وكانوا قد أتمّوا ثمانية أيام منذ دخولهم غابته، تفاجأ بوجودهم، وبعد أن رحّب بهما وقبّل الشريف في رأسه ويده، بدا عليه قلق شديد وقال لهما:

ـ نحن الآن أمام الأمر الواقع، الطريق صعب، والطريق جنوباً إلى الكُرمك محفوف بالمخاطر، والبقاء هنا أشدّ خطراً عليك سيدي، ليس لدينا حل إلا المُغادرة، أريد فقط يومين أذهب فيهما إلى أهلي أودِّعهم، وأترك وصايا لأشقائي لمتابعة المشروع ورعاية أبنائي إذا أصابنا مكروه.

***

المشاريع الزراعية.. 1968م

يبحث ذلك الوفد الإداري لأحد مشاريع النيل الأبيض الزراعية عن الشريف بحثاً مُضنياً، وذلك بسبب انشغاله كعادته، سمِع بهم الشريف فانتظرهم في مكتبه بوزارة المالية نهاراً، دخل عليه ثلاثة موظّفين يحملون أوراقاً ودفاتر امتلأت بها أياديهم من بينهم مدير ذلك المشروع، وضعوها أمامهم وقال:

ـ أوصل لك تحايا الجميع بإدارة المشروع.

أجابه الشريف مُبتسماً:

ـ أهلاً وسهلاً بكم، أتمنّى أن يكون الجميع بخير. ها.. بماذا أتيتم؟

نظروا إلى بعضهم البعض، ثم اعتدل رئيسهم وبدأ يقول:

ـ أتينا إليك السيد الوزير بمقترح مدروس، وأرجو أن يجد عنايتكم من الدراسة.

بدت على الشريف أسارير ارتياح، فلم يذهب تعبه وعنته المستمر بتجواله في المشاريع الزراعية هباءً، فهذه هي إدارة إحداها تأتي بمقترحٍ يظن أن من شأنه التطوير والتوسِعة، أشار إليه بالمواصلة فقال:

ـ وضعنا كافة التقارير والأوراق أمامنا، وعكفنا على دراستها لثلاثة أيام متواصِلة، ووجدنا أن هذا المشروع لم يربح إطلاقاً في الثلاث سنوات الأخيرة، بل إنه يضيف إلى خزينة الدولة عبئاً جديداً، فبدلاً من خسارة الدولة، اقترحنا أن تلغى الزراعة في المشروع على الأقل في الموسم القادم، إلى حين دراسته مرةً أخرى.

صمت لثوانٍ، وواصل في حديثه:

ـ ذهبنا إلى السيد وزير الزراعة، وذكر لنا بأنّه لن يستطيع اتخاذ قرار قبل أن يعرف رأي الشريف، وها نحن قد أتينا إليك.

ساد صمت رهيب بعد انتهائه من حديثه، وبدأ غضب شديد يتشكّل

في ملامح الحسين حتى صار في أوج حالاته، رفع يده وضرب بها المنضدة حتى تطايرت الأوراق، وقال بصوتٍ أقرب إلى الصياح:

ـ ومالك أنت بخزينة الدولة؟ هل تملؤها بأموالك؟ أم بأموال ورثتها؟ ما شأنك أنت بالدولة تخسر أم تربح؟

ارتعد الرجل حتى تاه عنه كيف يردّ وكيف يتصرّف، وأردف الشريف وغضبه يزداد:

ـ تذهب فوراً، أنت ومن معك، وتحصي لي عدد القرى في المشروع، وعدد المزارعين، وعدد أفراد أسرهم، وكل المرافق الصحية والتعليمية والخدمية، وتعُدُّون لي كل البهائم التي يملكوها، حتى الحمير، أريدك يا سيِّد أن تَعِدّ لي الطير الذي يحوم فوق سماء المشروع، هل هذا مفهوم؟

أشعل سيجارته وتركها في فمه وهو يلم الأوراق أمامه ويمدّها له قائلاً:

ـ الأسبوع القادم، في مثل هذا اليوم والساعة، سأنتظرك هنا لتأتي بالتقرير.

بعد أسبوع بالتمّام والكمال، جاءوا يحملون الإحصاءات وبدأوا في قراءتها أمامه، مئات القرى، وآلاف البشر، وآلاف من البهائم المُختلفة، بالإضافة للمدارس والمراكز الصحية والمرافق العامة، وما إن انتهوا قال لهم الشريف وعيناه مصوّبة نحو مدير المشروع:

ـ هل كنت تريدنا أن نتسبّب في هدِّ كل هذا وإزالة الشريان الرئيسي الذي يغذي كل هؤلاء؟. هل تعتقد بأن المشروع الزراعي يقتصر فقط على الزراعة وربحها وخسارتها، المشروع هو الروح الذي يتنفس بها كلّ هؤلاء الخلق، المشروع قيمة اجتماعية، مثله مثل المنزل الذي يأوي إليه أفراد أسرتك، تخيّل إذا ألغينا هذا المشروع خوفاً على الحكومة وعلى خسارتها، أين ستأكل البهائم وأين تشرب؟ أين سيعمل العُمال الكادحون البسطاء؟ وكيف ستتغذى فصول المدارس بالطلّاب؟ هل تدرك بأن ذلك سيتسبّب في الهجرة إلى المدن فتكتظ ويفقد الريف مجتمعه وأهله وميزاته، وبذلك تفقد البلاد موردها الزراعي بعد أن يلتفت الناس إلى أشغال هامشية ويكثر استهلاك الواردات القشرية بعد أن تفقد البلاد مواردها الأساسية التي قوامها الزراعة، وفي سبيل الحفاظ على هذه الدورة الحياتية على

الحكومة أن تخسر وتخسر حتى لا يأتي اليوم الذي تتحسّر فيه على خسائر أسوأ وأنكأ.

كان درسًا مجّانيًّا ومحاضرة كبرى لن تغيب عن آذانهم طيلة حياتهم، كثيراً ما يقولون له أنت وزير مالية الحكومة، فلماذا تطوف في المشاريع وتُحمِّل نفسك أعباء إضافية، يرد بجملتهِ الشهيرة:

ـ وزير مالية السودان الذي لا يشرف على المشاريع الزراعية بنفسه ويطوِّرها، لا يستحق أن يكون وزيراً للمالية، ولو تفجّرت الأرض بالبترول والذهب، فالزراعة هي المورِد الأساسي لبلادنا، وليس لدينا غيرها.

ويتحدّث روبرت ماكنمارا، وزير دفاع حكومة كنيدي وجونسون السابق، ومدير البنك الدولي الحالي، عن الشريف حسين بعد لقاءات عِدة واجتماعات شارك فيها وزراء المالية العرب والأفارقة، وأنشأ معه صداقة ودودة، وكان الشريف ذا مشاركة فعالة ودائمة في النقّاشات التي تتعلّق بسياسات البنك، فكان حضوره لافتاً وجاذباً، فقال ماكنمارا في يومٍ وهو يتحدّث إلى إدارته:

ـ "من خلال عملي في البنك، لم يستوقفني ويدهشني مُحافِظ من مُحافظي البنك بحكم مناصبهم كوزراء مالية كما استوقفني وأدهشني شريف السودان".

وبذلك كانت التفاتة ماكنمارا لدعم التنمية الريفية في دول العالم الثالث، وبموجب ذلك أتى الشريف بلجنةٍ مُتكاملة من البنك الدولي بقيادة مستر رست لتعمير وتطوير مشروع الجزيرة والمناقل، كل مجهوده انصبّ في الزراعة، يذهب إلى المشاريع يتفقّدها ويحوم فيها، واعتاد الناس أن يجدوه فوق ترعةٍ أو تحت شجرةٍ أو بين الجداول، يهرب منه السائقون لأنه لا يقيل ليلاً ولا نهاراً، فيضطر إلى القيادة وحده.

مرّة ذهب مع وزيرين يتفقّدان معه مشروع الجزيرة، طاف بهما أحد الأقسام الشاسعة، وفي وسط النهار أوقفهما جوار التُّرعة، أخرج صحناً وعصر فيه طماطم، وفتت فوقه الرغيف وعجنه ووضعه أمامهما، تناولاه خجلاً وكان التّعب قد بلغ منهما مبلغاً، وعندما فرغا من الأكل أحضر لهما الماء من التُّرعة بـ (جَرَكَانَة) مياه العربة الاحتياطية، وعادوا

في هزيع الليل.

سفرية أخرى رافقه فيها أحد المسؤولين ليومين بلياليهما، رأى فيها الشريف وحب المزارعين له، يحفظهم بالاسم، ويسألهم عن تفاصيل حواشاتهم وسقياها ونظافتها وموعد نثر أسمدتها بشكلٍ مُدهش، ولم يكن حظ المسؤول أفضل من الذين سبقوه، فقد كانت وجباته مع الشريف عبارة عن فول مدمّس وبسكويت يزدردونها بمياه التُّرعة. وكثيراً ما كان أهل القرى يتفاجأون بمبيت الشريف في سيارته خارج القرية بسبب أنه لا يريد إزعاجهم بضيافته إذا داهمهم ليلاً.

مرّة دخل ليلاً قرية في بداية الليل وقد نام أهلها إلا من القليل وذلك الكنتين الذي يأتي ضوء فانوسه خافتاً، اضطر الشريف مغادرة سيارته ليشتري سجائره قبل أن يغلق الكنتين بابه الصغير، وقف أمامه وقد كان مُلثّماً بالعمامة وطلب منه خمسة صناديق، ناوله إياها وأخذ ثمنها وغادر الشريف. بعد دقائق أتى صاحب الدكّان يطلب من ولده إطفاء الفانوس وقفل الدكان، وقال له:

ـ سمعت أحداً يشتري منك سجائر.

أجابه:

ـ نعم، رجل غريب.

سأله يقول:

ـ كم اشترى؟

رد عليه:

ـ خمسة صناديق.

قال له مستعجلاً:

ـ أشعل الفانوس وتعال معي.

خرج الرجل وأمامه ابنه يحمل الفانوس حتى وصلا طرف القرية، وبعد دقائق عثرا على عربة الشريف تقبع خلف شجرة وقد أعد مكان نومه فوق ظهرها، وصاح الرجل باكياً:

ـ ما هذا الذي تفعله في نفسك يا الشريف، لماذا لم تدخل القرية لترتاح.

ابتسم الشريف وهو يقول:

- أهلاً بيك حاج عثمان، لا أريد إزعاجكم وأنتم تعملون في الحقول طوال اليوم.

أضاف الشريف يقول:

- كيف عرفتني؟

أجابه حاج عثمان:

- لا أحد في القرية يشتري خمسة صناديق من السجائر في هذا الوقت.

أقسم عليه بالطلاق وأخذه إلى المنزل وجمع أهل القرية وذبح له إكراماً، وهذا ما كان يخشاه الشريف. وفي المساء، عاد إلى منزله المكتظّ بالزائرين وطالبي الخدمات، أتاه عبدالماجد أبو حسبو في مساء اليوم التالي، ووجد معه وقتاً بعد عناء بسببِ كثرة من حوله، قال له وقد أشفق على حاله:

- ألا تتزوّج يا حسين؟

لم يدرِ لماذا ذهب عقله إلى تلك الدار الكبيرة، ديار السيد عبدالرحمن المهدي، قضى فيها بعض طفولته وصدر شبابه. كان قريباً منه أكثر من أغلب أبنائه، رعاه وأنفق على تعليمه مع ابنه وصديق عمره الإمام الهادي، لا يُفرِّق بينه وبين أبنائه، دقّ قلبه وغلب عليه الميول نحو إحدى بناته، لم يُصرِّح ولم يُخرِج كوامن فؤاده نحوها، إعجاب بها ليس له مثيل، بان في نظرته لها ونظراتها إليه، أحسّ السيد عبدالرحمن بذلك، وأراد تزويجه منها، فهو ابنه الذي يحبُّه، وهي بنته التي يعشق، فلاحت في الأفقِ سحائب سوداء فرّقت بين الأحِبّة ووأدت أحلامهم الغضّة، مشاكل أسرية وشلليات من بعض الأقارب حالت دون هذا الزواج.

وفي كلِّ مرةٍ يسمع فيها ما قاله الشاعر سيد عبدالعزيز في إحدى أغنياته التي يصدح بها صاحب الصوت المزماري كرومة، تداهمه الذكريات ولواعج الشجن:

"يا بت ملوك النيل

يا أخت البدور

مين لي علاك ينيل

في البدو والحضور

الجَبرة فيك بتْخِيل
محمية الحِمَى
ما حام حِداه دخِيل
ما كان أبوكي بخيل
بت عز الرجال
أهل الدروع والخيل".

ثلاثون عاماً مرّت على تلك الأيام، ولم يفكِّر فيها بأخرى، لم تسكت أخواته بنات ود الهندي عن تذكيره دائماً بالزواج، كان يحبهّن ويجلهن كثيراً، ولا يستطيع أن يجادلهن ليوضِّح لهن ضيق وقته وعِظم مهامه وعدم وجود المناخ والمكان الملائم لاستقبال زوجة.

الآن عمره اقترب من الأربعة والأربعين عاماً، الكلّ يريد له نسلاً، وكانوا مُحقين في إصرارهم عليه، أصدقاؤه وزملاؤه وخلفاء الطريقة وأخواته، لابدّ أن ينجب من يحمل تلك الجينات والصفات النادرة التي تميّز بها دوناً عن غيره، وكان آخرهم صديقه عبدالماجد أبو حسبو، سينتهي من هذا الأمر بالرغم موانعه التي يدركها، ويدركها الناس أيضاً، وأولها المكان، منزله الوزاري لا يصلح حتى لزيارة من العروس، ناهيك على أن تسكن بداخله.

بدأ في مشاورات مع أخواته، فأشارت له شقيقته الشريفية آمنة، بأن يهيئوا له غُرفه داخل الدار، فتكون العروس معهم، يذهب إلى عمله وبيته الوزاري، ويأتي ليبيت في داره ببُرِّي.

بعد رحلةٍ سبح فيها عقله يبحث عن الفتاة المُناسبة، وقع اختياره على ابنة الحاج أحمد عبدالوهاب، أحد خلفاء أبيه الذين عاصروه وعاهدوه في الطريقة الصوفية، ويسكنون قرية قنِّب الأسد بالقرب من مدينة ود مدني، وبعد أسابيع قليلة من اتخاذه القرار، وبمراسم بسيطة كان أساسها مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبمباركةِ الأهل والجيران وأخيه خليفة السجادة

الهندية الشريف إبراهيم، كان الشريف وعروسه داخل دارهم في بُرِّي اللاماب.

الطريق إلى الكرمك..الثلاثون من أغسطس 1969م

جاء علي العبيد ومعه ود حمدان قبل عودة علي رجب بساعات إلى أهله، لم يدّخِر الأخير زمناً لينطلق بعربته صوب الروصيرص أولاً ليقضي فيها بعض الأمور، ثم غادر في اليوم الثاني إلى سنجة ليأخذ فيها يوماً آخر، وقام بتوديع أهله وعاد إلى المشروع في المساء، قضوا ليلهم في التجهيز للانطلاق قبل الفجر. قام وكيل علي رجب بتجهيز وجبات تعينهم في الطريق، وانتهى الخليفة مصطفى من غسل ملابس الشريف وملابسه، وأشرف علي العبيد على تهيئة اللاندروفر وملء خزّانه بالوقود الذي أتى به علي رجب من سنجة، وود حمدان يعاون هذا وذاك.

قبل الفجر بساعة، انطلقت العربة جنوباً بخطٍ مستقيم نحو الكرمك. الخضرة تملأ المكان، والأشجار المُتراكِمة تئنُّ من حمل الأوراق التي تتكاثف دون توقُّف، والمرتفعات تملؤها الحشائش لتتزين بخضرةٍ بديعة، والغيوم تُغطِّي السماء لتزيد من كثافة ذلك اللون الأخضر الذي يغطِّي الأرض أمامهم وخلفهم، ويأتي انعكاس السماء ليجهز على جمال الكون بلونها الأزرق في كلِّ مرةٍ ينحسر فيها السّحاب ويأتي من جديد.

علي العبيد يقود السيّارة وجواره علي رجب، وفي الخلف الشريف حسين والخليفة مصطفى وود حمدان.

خرجت الشمس وتكشّفت الأرض والعربة تصرخ وتسير من طينٍ إلى طين، الطريق وعِر وقاس، ولكن الأمر بالنسبة لهم صار اعتياديًّا، فمنذ خروجهم لم تتوقّف الأمطار ولم يجف أيّ طريقٍ ساروا به، لم يكن مظهرهم العام غير مزارعين مثل غيرهم، جلابيب وعمائم تُغطِّي رؤوسهم ووجوههم من لفحة هواء الصباح، وبما أن علي رجب شخصية معروفة باعتباره أحد القيادات السياسية وعضواً في البرلمان المُنقَلب عليه، فقد كان مُتخوِّفاً أن يضطرّ إلى الوقوف مع كل أحد يتعرّف عليه، خصوصاً وأن العربة تسير ببطءٍ في الطين.

كانت أولى المخاطر اعتراض سائق لوري مُعطّل يطلب المُساعدة، وقفوا له وأخرج علي العبيد مُعدّاته وعاونه قليلاً حتى أدار مُحرّكه، واستأنفوا طريقهم حتى انتصف النهار. وتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، انفجر الإطار بسببِ صخرةٍ حادّة مختفية تحت الطين. وقفوا يستبدلونه. وفي هذه الأثناء أتت عربة فورد ووقفت إلى جوارهم، صاحوا إلى علي رجب وكانوا قادمين من قرية تنتمي سياسيًّا إلى الحزب، وأخذوا يتجاذبون معه أطراف الحديث عن النظام الجديد والإشاعات التي تقول بأن الشريف حسين لا زال في الجزيرة أبا وقد يخرج عبر هذا الطريق، والشريف حسين يسمع. ثم واصلوا طريقهم، أحسّ الشريف بحمى بدأت تسرى في أوصاله وصُداع يزداد مع اهتزازات العربة.

يتساءل الخليفة مصطفى، هل ستضطرّهم الظروف إلى العودة مرّةً أخرى كما حدث من قبل، أم ستنجح رحلتهم، وقد صارت الحدود قاب قوسين أو أدنى؟ ثلاث ساعات تفصلهم عن الكرمك، وقبل الوصول إليها بمسافةٍ لا تقل عن العشرة كيلومترات عليهم الانحراف يساراً نحو الشرق، وهنا تكمن خبرة علي رجب وود حمدان في ما تبقى من الطريق الذي قد يمتدّ إلى قرابة العشرين كيلو، ثم يصلون بعدها إلى الحدود.

شاء الله أن يصلوا إلى الطريق الذي سينحرفون منه يساراً، وشاء الله أيضاً أن يتعطّل اللاندروفر مرة أخرى في ذات المكان. ها هي مدينة الكرمك على بعد عشرة كيلومترات، والحدود على بعد عشرين كيلومتراً، والمدينة بها إدارات ووحدات كاملة من الشرطة والجيش وأجهزة الأمن المختلفة، وهي المدينة التي يُعتَمد عليها اعتمادًا كليًّا في القبض على الشريف حسين، فكل التوقعات تشير إلى أنّه سيخرج عبر هذا الطريق.

الامبراطور هيلاسلاسي لا زال ينتظر حضور صديقه الصغير، على الرّغم من أن اتصالهم به قد مضى عليه وقت ليس بالقصير، ولم تأته رسالة أخرى منه أو من الإمام الهادي، ولكنّه لم يفقد الأمل، فهو يُجدِّد تعليماته بالحرص على مراقبة الحدود جيداً واستقبال الحسين وإحضاره إلى أديس أبابا فوراً.

الساعة تُشير إلى الثالثة عصراً، ود حمدان وعلي العبيد يحاولان

إصلاح العربة، ابتعد علي رجب بالشريف بعيداً عن الطريق، وبقي الخليفة مصطفى بالقرب من العربة يراقب الطريق. ودون سابق إنذار، توقفت عربة لاندروفر بالقرب منهم، كانت مليئة بالرُّكاب قاصدين الكُرمك، وقفوا قليلاً جوار العربة وشارك بعضهم في إصلاحها، فصاح أحدهم وقد استطاع معرفة ملامح علي رجب من بعيد:

ـ علي، علي رجب.

كان موقفاً زادت بسببه دقّات قلوبهم، وارتعبوا أشد الرّعب. يكفيهم تطفُّلاً أن يذهب بعضهم إلى حيث يقف الشريف ليصافحوه. اضطر علي رجب التوجّه نحوهم وترك الشريف في مكانه، صافحه قائلاً:

ـ أهلاً بيك يا عبدالله، من أين أتيتم؟

أجابه وهو يتفحّص رفقاءه بعينٍ خبيثة:

ـ أتينا من قيسان، كنّا في واجب عزاء.

وأضاف حديثه وهو يسأل:

ـ لم تُعرّفِنا على مرافقيك.

أجابه سريعاً:

ـ أصدقائي من سنار، اشتروا مشروع بالقرب من مشروعي، وأتينا الكرمك لنقضي بعض الأمور.

واصل في دمامته وقال:

ـ هل زرعوا؟ أم سيزرعون العام القادم؟

أجابه علي بنَفَسِه الأخير:

ـ لا، سيزرعونه العام القادم، فقد اشتروه قبل أيام.

وحتى لا يطيل معه الحديث ويكثر من الأسئلة، توجه ليصافح من في العربة، وفي هذه الأثناء، أدار علي العبيد محرك اللاندروفر. وهمّ سائق العربة المليئة بالركاب الذهاب، فاضطر المُتطفِّل الذهاب.

تنفّسوا الصعداء، ولكن الخطر ما زال بعدُ قائماً. اجتمعوا مُلاصقين العربة وقال علي رجب:

ـ لن نستطيع الذهاب بالعربة إلى أيِّ اتجاه قبل أن ندخل الكُرمك.

تساءل الخليفة مصطفى بلهفة:

ـ لماذا؟

أجاب علي رجب وقال:

ـ لقد كان في العربة بعض الأشخاص لديّ معهم خلافات قديمة، ولن يتوانوا في الإبلاغ عنّا إذا لم ندخل الكرمك وراءهم، وإذا تأخرنا ساعة فقط، ستنتهب سيارات الجيش والشرطة الأرض نهباً وراءنا.

تساءل ود حمدان:

ـ ما ترى إذن؟

أجابهم سريعاً:

ـ سنترك الشريف والخليفة مصطفى وود حمدان هنا، وسأذهب ومعي علي العبيد إلى الكرمك، سنذهب إلى محمد أحمد طه نائب دائرة الحزب فيها، ونمكث معه ونستكشف الأجواء والحركة فيها.

تنهّد قليلاً وأضاف وقد بدا عليه الاستعجال والقلق:

ـ ستنتظروننا خلف هذه الأشجار، فإذا وجدنا الأجواء مُلائمة سنوافيكم، وإذا حانت الساعة السابعة مساءً، ولم نأتِ إليكم، فما عليكم إلا الذهاب نحو الحدود بأرجلكم، وإذا وصلتموها بإذن الله، أرسلوا لنا ود حمدان ليلحق بنا حتى نطمئن.

كان مُقترحًا مناسبًا وواقعيًّا، فهو العالم بأمور المنطقة وظروفها، قال الشريف بشجاعته الفريدة:

ـ وهو كذلك، في أمان الله.

وتعانقوا والدموع لم تترك مكاناً في وجوههم إلا وبلّلته، لحظات ملؤها الكثير من المشاعر التي راودتهم في تلك اللحظة، الإخاء والوفاء والشجاعة والمروءة، الغيرة والإيمان بالقضيةِ وبحبِّ الشريف حسين، الرجل الأمة، صاحب المواقف العظيمة، التي بلا شك سيسجلها التاريخ، ولن ينس التاريخ أيضاً هؤلاء الرجال الأنقياء الأوفياء.

مضت العربة في طريقها إلى الكرمك. وثلاثتهم ينظرون إليها وهي تصغر شيئاً فشيئاً. الشريف يحمل مسدساً، والخليفة مصطفى يحمل عصاه الكبيرة، وود حمدان يحمل المسدس الآخر وعصاة متوسِّطة، وما إن غابت العربة تماماً، حتى توغّلوا شرقاً بمسافة نصف ساعة، وابتعدوا

من الطريق المسلوك قليلاً، واختاروا الجلوس في مساحةٍ نظيفة وحولها عدد من الأشجار، بينما استلقى الشريف بكلَّ جسده في الأرض، وقد داهمته الحمى من جديد، وقبض الصداع بتلابيب رأسه. غابت الشمس.

ساعتان ويأتي الموعد، هل ستأتي العربة ويواصلون طريقهم؟ أم سيسيرون بأرجلهم إلى الحبشة؟. تجاوزت الساعة السابعة واقتربت من الثامنة، تأخّر علي رجب وعلي العبيد، لم يطمئنوا على الأوضاع داخل الكرمك وسيّارات الجيش تحوم حول المدينة وفي داخلها، وزاد من قلقهم بأنهم وجدوا رجلاً كان من الرُّكاب في السيارة مع محمد أحمد طه، فارتعبوا وخافوا أشدّ الخوف، وبعد ذهابه أخبروه بالسِّر العظيم، فحذّرهم تحذيراً شديداً بأن لا يخرجوا من هنا أبداً، لأنّهم مرصودون الآن، وليس ببعيدٍ أن يعتقلوهم اللحظة، وسلامة الشريف وأمانه في تركه يذهب دون أن تلحقه عربة، وفي الجانب الآخر، قرّر الشريف ورفيقاه المضي نحو الحدود ليقطعوا مسافةً مُقدّرة قبل حلول الصباح، وود حمدان يرشدهما وهو يسير أمامهما بحذرٍ شديد، والخليفة مصطفى لم يتوقّف لسانه من قراءة القرآن بصوتٍ خافت، والشريف قد تكسّرت عظامه من فرط الحمى التي عمّت كلّ جسده.

***

مشروع الجزيرة.. مايو 1969م

كيف يصيب الجسد الديمقراطي كل هذا الهزال؟ هل كان الحاكم الإنجليزي على حق عندما لم يستبشر بالاستقلال خيراً؟ رأى ساعتها أن الوقت غير مُناسب، والظروف غير مُلائمة، فكل دولة مُتقدِّمة قذفت بالطائفية والقبلية بعيداً، وهُنا يركز كل شيء عليها. ولكنّ أيضاً الإنجليز هم أنفسهم من قنّنوا ذلك، وأداروا مستعمرتهم برجال القبائل والزعماء ومكّنوهم من الإدارة، وكأنهم يريدون ترك أمراض عضال عندما يذهبون، أمراض لا تنتهي حتى بمرور الزمان، وها هي الأحزاب تتوحّد وتنقسم، ويتشابك قياداتها في أمور بعيدة عن الشعب، يتشاكسون على المناصب، ويختلفون لأتفه الأسباب، ويقلبون الطاولة على بعضهم البعض، ويهدُّون المعابد على رؤوس الجميع، والحرب الباردة ضد الأزهري طال أمدها، ويهمس السادة في الصالونات المغلقة منزعجين أيما إزعاج بسببِ زعامة الأزهري، فكيف لفردٍ لم يعتمد على قبيلته، ولم يرتكز على سجادته، أن يطغى فوق الجميع ويحلِّق في سماء السياسة، والكل يهتف باسمه ، بل إن الآلاف من المواليد سماهم أهلهم إسماعيل ولقّبوهم بالزّعيم، ويعمل الشريف كمن يُصفِّق بيدٍ واحدة، ويجري بالليل والنهار، والناس وراءه في كلّ مكان، وفي انتظاره في أيِّ مكان يذهب إليه، المكتب والبيت ودارهم ببُرِّي.

بلغ من المسؤولين الاستهتار لدرجة أنّهم صار لا ينتبهون لما حولهم، وقد انغمسوا في الصراعات حتى أذنيهم، والجيش يقوم بالمناورات الممنوعة، وبالذخيرة الحية، ويحذِّرهم، ولا ينتبهون، ويبعث الضباط أصحاب الرُّتب الكبيرة إلى روسيا في سفرية واحدة، ويحذّرهم، ولا يصغون، وينشط عدد من الضبّاط في زياراتٍ ماكوكية إلى المُدن، والجو السياسي مُلتهِب وقتها، والاتفاق غير المتوقع بين جناحي حزب الأمة لتولية الصادق المهدي رئيساً للوزراء، والى الأبد.

استقالة رئيس الوزراء الغريبة، ومحاولة الحزب الاتحادي الديمقراطي أن ينفرِد بالحكم لوحده، وسفر السيد الإمام الهادي المهدي إلى الجزيرة (أبا) وقلّة تحركاته، ورفض الحكومة الشديد لقرار مجلس الأمن (مائتان اثنان وأربعون)، إضافة إلى زيارة حسن صبري الخولي حتى يقنع الدولة بالعدول عن رفضها لهذا القرار، وإصرارها العنيد على الرفض من أجل القضية الفلسطينية، وتمسكها بقرارات مؤتمر اللاءات الثلاث بالخرطوم. والعلاقات شبه المقطوعة مع أمريكا وألمانيا وقبلها مع بريطانيا، والقضية الدستورية في حل الجمعية التأسيسية والسجالات التي لم تنقطع ولم تنته، والغضب العارم للحزب الشيوعي بعد حلِّه وطرد أعضائه من البرلمان، والكثير من أعضاء الأجهزة القانونية والقضاء الذين تعاطفوا معهم.

لم ينته الأمر على هذا، فقد مرض السيد رئيس الوزراء وبعدها منعه الأطباء من العمل والانفعال، وكان شجاعاً، وواصل عمله على الرّغم من خطورة مرضه، والمقالات المُزعجة التي يكتبها الصحفي أحمد سليمان كلّ يوم ينادي فيها بضرورة تدخل الجيش في السياسة، والكل صامت عن ما يكتبه كأنّه لا يعنيهم في شيء، بل أن الكثيرين قد أعجبهم هذا الاقتراح الخطير. وظهر التسيُّب وعدم المبالاة من بعض الموظّفين في أغلبية الوزارات.

هل تكون إرهاصات ونُذُر يسبق شيئاً جديداً إذا أضفنا التحرُّكات المحمومة في عدد من السفارات المهمّة. أحس الشريف بأن كل ذلك ينذر ببدايةِ أحداث كبيرة، وكأنه يرى أن هنالك قوى في الخفاء من الداخل والخارج تخطط وترسم، وأموال تُصرَف، فيسأله محمد عبدالجوّاد:

ـ هل لاحظت شيئاً غريباً على الصحافة؟

رد عليه الشريف وهو قَلِقٌ كحاله هذه الأيام:

ـ صمت رهيب حيالها، وكأنها مدعومة في الخفاء لزعزعة الوضع الديمقراطي.

فيسأله:

ـ وما العمل؟

يجيبه الشريف بنفس الوتيرة القلِقة:

ـ لم آلُ جهداً في تنبيه أولي الأمر، ولكني أظنُّ أنهّم لن يستبينوا النصح إلا ضُحى الغدِ، وقد سمِعت ما قاله لي وزير الداخلية، وأخبرتك بما دار بيني وبين المحجوب.

أضاف محمد عبدالجواد وهو يصرُّ عليه ويقول:

ـ لا أعتقد أنّ فكرة صمتك راجِحة، عليك بمواصلة تنبيههم.

يجيب بصوتٍ خافت:

ـ لا أعتقد أن ذلك سيكون له أثر على الأحداث، رغم أني كنت وحدي أهتم وأتابع وأعمل، وفَعَلَت فيَّ ما فعلته ظروف الإعياء المتواصل، فلقد سقطت ثلاث مرات مغشيًّا عليّ بسبب الجوع، وظللت أعمل لاثنتين وعشرين ساعة، ومع كلّ هذا، فلم أستطع أن أحدِث إلا تغييراً ضئيلاً مقارنةً بالمهام الضخمة التي من المُفترض أن يقوم بها المسؤولون في الحكومة.

انكفأ في مهامه بعيداً عن كلّ ما يدور، فحزبه بعيد كلّ البعد عن ما يدور في الخفاء، ولا يريد أعضاؤه معرفة موطئ أقدامهم. بل إن بعضهم يتعامى ولا يريد أن يرَى حقيقة الأمر.

ذهب الحسين صباحاً إلى مشروع الجزيرة، وطاف في قسمه الجنوبي إلى أن أتت الخامسة، ثمّ عاد إلى الخرطوم، وعبر الكُبري إلى أم درمان، وتوجّه إلى منزل مصطفى عوض الله نائب مدير البنك الزراعي لمناقشة بعض الأمور المُتعلِّقة بتمويل المشروع، وهو شقيق القيادي بابكر عوض الله. أشفق على حاله وأقسم بأن لا يدعه يذهب إلا إذا أكل وشرِب وأخذ قسطاً من الراحة، قضى معه أول الليل حتى أتت الثانية عشرة إلا ربعاً ليلاً، ورفض المبيت معه لأنّه مُرتبط بأمرٍ هامٍّ غداً في مكتبه بالوزارة، أدار مُحرِّك السيارة وخرج يقصد بيته الوزاري الكائن في شارع جامعة الخرطوم، أصابته غفوة انحرفت بسببها السيارة حتى كادت أن تصطدم بحائط منزل الصادق المهدي.

قرر الذهاب إلى استراحة مشروع الجزيرة، فبيته سيكون مكتظًّا بالمُنتظِرين، ودارهم ببُرّي صارت أيضاً مليئة بالناس، يحتاج إلى إغلاقِ

عينيه والنوم لساعات يجمع فيها قواه المُتلاشية. وقف أمام الاستراحة وانتظر حتى جاءه الغفير، صديقه الذي ظلّ ينصحه على الدوام بضرورة التفاته لصحّته، فقال له:

ـ من أين أتيت؟

أجابه الشريف مُبتسماً:

ـ من أم درمان .

سأله سريعاً:

ـ وقبلها؟

أضاف الشريف:

ـ مشروع الجزيرة.

قلّب كفَّيه حسرةً وكأنه يسأل نفسه قال:

ـ متى ستستقرّ وترتاح يا الشريف، متى؟

ابتسم وهو في أشدّ حالات تعبه، ولو انتظر لدقيقة سيسقط أرضاً، توجه إلى إحدى غُرف الاستراحة وأغلق بابها من الداخِل، وقذف بالجاكيت فوق أقرب كرسي، وارتمى فوق السرير تاركاً حذاءه في رجليه وربطة عُنقه لا تزال مُلتفّة حولها، وأخذه النوم.

عند الساعة الثانية تماماً، أيقظه صوت الباب الذي يهتزّ بطرقاتٍ لحُوحة، ثم تصمُت تأدُّباً، وتعود بذات الإيقاع العَجول.

***

الطريق إلى الحبشة.. الأول من سبتمبر1969م

الطريق غير مسلوك، ومظلم، والنجوم هي دليلهم نحو الشرق، وثلاثتهم يسيرون بسرعةٍ عادية، وأصوات الحيوانات حيناً قريبة، وأحياناً بعيدة. لم تخطئ آذانهم صوت زئيرَ أحد الأسود تأتي به الرياح مع أصوات الليل الأخرى، حشرات وطيور في أعشاشها وصياح لم يعرفوا بالضبط أيًّا الحيوانات تطلقها، وثعبان مرّ بالقرب من أرجلهم ولم يكترثوا له وذهب بعيداً.

الشريف قد التهب جسده بالحمى، والعرق يملؤهم حتى أخمص قدميهم، ولكنّ لا سبيل للوقوف أو الراحة، فقد مضى على مسيرهم خمس ساعات كاملة، لم يفعلوا فيها شيئاً إلا جرعات الماء الذي يأخذونها بين كلّ حينٍ وآخر، تخطّوا الثانية صباحاً وقد أكملوا ثلاثة عشر كيلومتراً.

أصرّ الخليفة مصطفى على الشريف بضرورة الراحة قليلاً، ويقول له الشريف بأنّ حالته ستتأزّم إذا جلس. استطاع أن يقنعه بالتوقُّف. جلسوا بعد أن نظّف ود حمدان المكان وأنفاسهم تكاد أن تُفجِّر صدورهم، هدأوا قليلاً ولكنهم أحسُّوا بأن أوصالهم غير موجودة، فهي مُخدّرةٌ تماماً.

ستة كيلو مترات تفصلهم عن الحدود، وهناك اطمئنان حلّ بعد دراستهم الموقف، حيث لم تلُح أية أضواء سيارات أو جلبة في إثرهم، هذا ما دعاهم إلى أخذ المزيد من الرّاحة حتى انقشعت السماء بالضوء الذي يسبق شروق الشمس.

لم تكن لديهم غير تمرات يحملها كلٌّ منهم في جيبه، تناولوها وشربوا بعضاً من الماء بعد أن صلوا الفجر وتحرّكوا مواصلين طريقهم.

أحسّ الشريف ببعض الراحة ودب النشاط في جسده، فقد كانت في جيب ود حمدان حبات من عقاقير الصداع أخذها قبل أن ينام. وعندما حانت الثامنة صباحاً، نزلوا خوراً قد اعترض طريقهم ليتجاوزه، وهنا صاح ود حمدان قائلاً:

ـ بعد صعودنا من بطن هذا الخور، علينا السير نحو الجنوب الشرقي، أقل من ساعة وتلوح لنا أشجار كثيفة.

ابتسم الخليفة مصطفى وتساءل:

ـ هل نقطة حرس الحدود هناك.

أجابه سريعاً:

ـ لا، أتيت هذه الغابة الصغيرة ثلاث مرّات، ولم أر نقطة بوليس، ولكن الرعاة بداخلها كثيرون، يمكن أن يدلُّونا إليها.

صعدوا الغابة واتّخذوا الجنوب الشرقي طريقاً إلى الحدود، وبعد ساعة دخلوا في قلب الأشجار. وهي المكان الذي يؤكِّد لهم بأنهم قد تخطّوا الحدود السودانية ودخلوا إلى الحبشة بسلام.

سألوا أحد الرعاة عن النقطة الحدودية، أرشدهم بالذهاب قليلاً إلى اتجاه الغرب ليصلوا إلى نقطة تفتيش منطقة (دول) الحدودية، بعد أن أشار إليهم على اتِّجاهها، قال الشريف لود حمدان:

ـ ستعود سريعاً إلى الكرمك، كن حريصاً على نفسك، وفي الصباح توجّه إلى حيث علي رجب وعلي العبيد، وغالباً ما يكونان في المشروع ينتظرانك، أخبرهما بأنّنا خرجنا سالمين.

وقبل أن يتفارقا مرّ أمامهم غزال أطلق عليه ود حمدان رصاصة أردته أرضاً، قفز نحوه ضاحكاً وأتى به قائلاً:

ـ ما رأيكما أن نتناوله قبل أن نتفارق؟

ابتسم الشريف وهو يربت على كتفه:

ـ خذه وتناوله في الطريق، ولكن بشرط أن لا يؤخِّرك.

وكغيره من الذين فارقوه، فالدموع هي سيدة الموقف وخاتمة اللقاء. توجه ود حمدان شرقاً قاصداً الكرمك، وتوجّها غرباً مائلاً إلى الجنوب ليصلا نقطة دول الحدودية، وبعد خمس وعشرين دقيقة وقفا أمام أفراد الجيش الحبشي، أوقفوهما وطلبوا منهما إبراز أوراقهما الثبوتية، أخرج لهم الشريف جواز سفره، أخذه أحدهم وأرسل غيره ليحضر الضابط المسؤول عن الفِرقة.

وما إن حضر وأخذ جواز السفر وقرأ الاسم حتى انحنى بأدب شديد،

حّياه وتقدّم نحوه ثم سلّم عليه بكلّ احترام، فهذا ضيف الامبراطور هيلاسلاسي الذي أوصى باستقباله ورعايته والحفاظ على سلامته حتى يأتوا به إلى العاصمة أديس، وقال لهم بلهجة سودانية معروفة عند الإثيوبيين:

ـ الحمد لله على سلامتكم، لقد نجوتم من موتٍ مُحقّق.

طلب الضابط من الخليفة مصطفى إبراز ما يثبت شخصيته فقاطعه الشريف:

ـ إنه مرافقي وليس لديه جواز سفر، لذا سيدخل معي.

سار بهما الضابط الحبشي إلى راكوبةٍ من القش عليها فرش مطروح على الأرض، وطلب منهما أن يستريحا حتى يكرموهما ثم يقوم باتصالاته بمرؤوسيه، وركض نحو مكان سكنهم يُهيّئه ليقضيا فيه ليلتهما، وأكرمهما بكلّ ما عنده من وسائل وأصناف الطعام المُتوفّر لديهم.

بعد ساعتين أتت الأوامر من هيلاسلاسي بأن يذهبوا به إلى مدينة أصوصا، ويُنزلوه في استراحته الخاصّة إلى أن يُرسل له طائرة مروحية، وسبب ذلك لأنّ هناك وفدًا حكوميًّا من الخرطوم يزوره هذه الأيام، وعلى رأسه أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة.

تحرّكت العربة صباح اليوم التالي وهي تتوجّه إلى مدينة أصوصا السّاحرة، طبيعة خلابة ومشاهد بديعة، أحد الجنود يقود السيارة وجواره الضابط، والضيوف في المقعد الخلفي، أشجار القنا تحُفّهم من كلّ جانب وهي ترتفع بقامتها المُعتدِلة، وترتفع السيارة مع الطريق لتتقاصر وتختفي، ثم يشقّون أشجار البن الخضراء وهي تتداخل بفعل الهواء وتُحدِث جلبةً تُرى ولا تُسمع.

في منتصف الطريق، توقّفوا ليأخذوا قسطاً من الرّاحة فوجدوا أنفسهم وسط سكان من عائلات الجَبَرْتة المسلمين الذين ينتشرون في رِقاع واسعة حول أصوصا. استقبلوهم وأحسنوا ضيافتهم وأكرموهم الطعام والقهوة المُتميّزة التي تشتهر به الحبشة.

دخلوا أصوصا وتوغّلوا فيها حتى وصلوا سوقها الكبير، وكان في استقبالهم حاكم المقاطعة الذي يقضي نهاره جوار السوق في بيوت من القش، رحّب بهم وطلب من معاونيه إدخالهم إحدى هذه البيوت وذهب ليقضي حاجة، وعندما أدخلوهما بيت القش غضب الشريف غضباً بان في ملامحه التي تغيّرت بشكلٍ

كبير، وما إن أتى حاكم المُقاطعة حتى صرخ في وجهه قائلاً:

ـ أنا حسين الشريف يوسف الهندي، ممثِّل المعارضة السودانية ضد الحكم العسكري الشمولي، وقائد الجبهة الوطنية، هل يليق بي وأنا أُمثِّل الشعب السوداني بأن أجلس في مكانٍ كهذا.

فما كان منه إلا الارتجاف والاعتذار خوفاً من تبعات ذلك القصور إذا وصل الأمر إلى الامبراطور، طلب منه الانتظار لدقائق حتى يُجهِّز لهما مكاناً يليق بممثِّل الشعب السوداني.

وفي هضبةٍ عالية، كانت تلك الاستراحة البديعة التي تطل على منظرٍ خلابٍ وساحر، دخلا فيها ووضع لهما حاكم المُقاطعة حرسًا خاصًّا من الشرطة بسلاحه وأحضر لهما طبّاخاً مسلماً.

جاء الطبيب في صباح اليوم الثاني ليُعاين صحة الشريف التي انحرفت وبدا عليها التّعب والشُّحوب، ها هما يجلسان على شُرفةٍ تطل على وادٍ شديد الخضرة ومتموّجٍ، مشهد يجلي القلب ويُريح الأنظار. قال الشريف للخليفة:

ـ هيلاسلاسي صديقنا، قد يكون أوّل سياسي رأيته في حياتي عندما كنت صغيراً، وعلى الرغم من أننا تقابلنا عدداً من المرات خلال حكومات الأحزاب هُنا وفي الخرطوم، إلا أنه لا يذكر لي غير زياراتي له عندما كان أبي يرسلني إليه في سرايتنا الصفراء عندما كان مُعارضاً، كان يحفظ كل حديث دار بيننا، ويتعجّب عندما أُحدِّثه بالإنجليزية.

أضاف الخليفة مصطفى وهو يقول:

ـ لقد أكرمه شيخنا الشريف يوسف أيما إكرام، وما يفعله الآن هو رد للجميل، وقلما يحدُث ذلك في زماننا هذا، فالمصالح السياسية تطغى لدرجة يمكن بسببها أن يقتل الإخوة والأشقاء بعضهم البعض، ولكني أخاف أن يصيب داء الشيوعية هذا البلد أيضاً.

أضاف الحسين قائلاً:

ـ هذا الذي يحدث الآن يا مصطفى، ومن المؤسف أن الشباب الذين درسوا في دولِ شرق أوروبا قد اتّخذ أغلبهم هذه الأفكار، وأعتقد أنهم سيطيحون به عاجلاً أم آجلاً، خصوصاً إذا تمكّن العسكر والشيوعيون من فرض سيطرتهم على بلادنا.

صمت قليلاً. وبدا على الخليفة شيء من تلعثُم وكأنه يريد قول شيء ما، باغته الشريف وهو يقول له:

ـ ماذا هناك يا مصطفى؟

أخذ نفساً عميقاً بعد أن اتّخذ قراره بالحديث:

ـ بما أنّنا في مكانٍ مُرتفع فقد كنت أُقلِّب مؤشِّر الراديو حتى جاءني صوت إذاعة أم درمان واضحاً في آخر الليل.

قاطعه الشريف وقال:

ـ من توفي يا مصطفى؟

أجابه وقد تملّكه الحزن:

ـ شيخنا الشريف إبراهيم.

ورفعا أيديهما يقرآن الفاتحة ويدعوان له. وقال الشريف بصوت طغى عليه الحزن الشديد:

ـ لماذا لم تُخبرني بالأمس؟

أجابه يقول:

ـ لم أشأ إيقاظك بعد أن تناولت عقاقيرك واستسلمت للنوم.

توفي أخوه خليفة السجّادة يوم الثلاثين من أغسطس، عندما كانوا يعبرون الحدود، وأذاع الراديو الخبر ليومين مُتتاليين. أضاف الخبر إلى الشريف حُزناً يُضاف إلى أحزانٍ تترى ولا تقِف. رحيل أبيه ود الهندي، وأمه التاية بت خير، وبِكر أبيه الشريف الأمين، وأخيه الشريف عبدالله، وأخيه الخليفة الشريف عبدالرحمن، وأخواته نفيسة وعائشة، ومُعلِّمه وأحبّ النّاس إليه الزعيم إسماعيل الأزهري.

اليوم الشريف إبراهيم، ذلك الرجل الكريم المعطاء الذي يُضرب بكرمه الأمثال، ويتغنى به الشعراء في البطانة والصحارى والوديان. قال للخليفة وشريط ذكرياته يمرّ بمن رحلوا:

ـ نحن بنو الموت يا مصطفى، نخشى به الله ولا نخافه، وهو سبيل الأولين والآخرين، وطريقنا الذي سلكه أبي وإخوتي وأنا من بعدهم، نعلم علم اليقين أنّ آخره هو الموت، مسدودٌ عليه بالكفن، ومسدودٌ عليه بالحنوط.

صمت قليلاً وقال:

ـ سيخلف أخي الشريف إبراهيم رحمه الله على الطريقة أخي الشريف الصديق كما أوصى ود الهندي، وهو خير خلف، لخير سلف، ورع صبور وتقي، كريم وحليم، أسأل الله له العون في هذا الطريق، فهو لا يقلّ صعوبة عن ما نواجهه، فما يلاقونه وهم في مكانهم الواحد، أكثر صعوبة من الذي نواجهه نحن، على الرغم من أنّنا نجوب أركان الأرض.

سبعة أيام قضياها في الاستراحة، يأكلان ويتسامران في الشُّرفة، نام فيها الشريف ساعات الليل ونصف النهار، ما ارتاح وما نام منذ سنوات، فالذي يحمله فوق كاهله ثقيل، وما يحمله الآن أثقل.

في الصّباح، أرسل الامبراطور طائرة مروحية لتقِلّه إلى أديس أبابا، أوقف الطيّار محركها إلى أن يستعدّ الشريف للرحيل. وعندما حانت لحظة الفراق، قال لحاكم المقاطعة وهو يوصيه:

ـ أرجوا منك يا السيد الحاكم أن يُرافق رجالك الخليفة مصطفى حتى يوصلوه سالماً إلى أقرب طريق يوصله إلى الكرمك. أجابه قائلاً:

ـ كما تُريد سيدي الشريف.

وقف الشريف أمام الخليفة وتعانقا وكلٌّ دموعه تُغطي مآقيه حتى انهمرت وهي تهرب منهما لتختفي في شعر لحيتهما، وقال الشريف:

ـ لا أدري ما أقوله لك يا مصطفى، لم تُخيب ظني عندما أرسلتُ إليك.

أجابه وصوته قد ضاع بين دموعه التي لم تتوقّف:

ـ دمي وروحي فداك يا الشريف، أسأل الله لك الحفظ والنصر.

قال الحسين مصافِحاً:

ـ أرجو أن تنقل للجميع ما قلته لك، حفظك الله ورعاك، وإذا كان في العمر بقية، سنلتقي بإذن الله تعالى.

تعانقا مرةً أخرى بأحرّ ما تجيش به المشاعر وأروع ما يخرجه الإنسان من حبٍّ وصدقٍ ووفاء. ركِب الخليفة مصطفى عربة حاكم أصوصا وانطلقت لتعيده إلى الحدود.

صعد الشريف وجلس في مقعد الطائرة الهليكوبتر وقد وضعوا واقياً في أذنيه من الصوت، وارتفعت متوجهة إلى الشرق، إلى أديس أبابا.

أغمض عينيه وقد تاه في ذِكراه، وغاص في مستقبله، وتراءى خلف عينيه

ذلك الوطن الكبير، الوطن الذي أحبّ ترابه وطينه وماءه وإنسانه الكريم، والوطن الجريح الذي لم يشفق عليه أحد، ولم يعطف عليه أحد، الطامعون ينهشون لحمه وترابه، والانتهازيون يريدون أن يستقطعون منه لأطماعهم وجشعهم، ويصرخون: هذا لي، وهذا لأهلي، وهذا لقبيلتي.

لقد آمن بالسياسة العادلة، لا بالتي تتحكّم بها مراكز القوى، والتي تتبنّاها الأفكار الوافدة الهدّامة.

سيهتف بشعاراته ومبادئه التي لن يحيد عنها طالما أن هنالك نَفَساً في صدره، وروحاً في جسده، وقوة في قلبه، وفِكراً في عقله. لا قداسة مع السياسة، وتموت القداسة على أعتاب السياسة، والويل للحكم الشمولي، والويل لمن ينقلب على الديمقراطية وإن كانت شائهة.

سيعارض النظام العسكري بكلتا يديه، بصوته ونضاله، سيطوف العالم ضدّهم، سيهزِمهم ولو بالسلاح، فالمبادئ لا تتجزأ، وجذوة النضال لن تنتهي. هذا هي حياته، وهذا هو مصيره.

مرحباً بالموت من أجل الوطن، ومرحباً بالموت من أجل القضية، فهذا ديدن أجداده وأهله، استشهد جدّه الحسين بسيوف بني أميّة في كربلاء، وقُتِل الهندي الأول بسيوف الفونج غيرةً على الدين، وخرجت روح جدِّه الشريف محمد الأمين حافظ القرآن ومُحفِّظه سعياً للحقِّ والعدل، واستشهد عمه مع جيوش المهدية وهو أميراً لراية الأشراف على شاطئ النيل الأزرق بالقرب من الخزّان، وغاب أبوه الوطني الغيور، صاحب الطريقة، وصاحب الدرعين، ومحارب الطليان، الشريف يوسف الهندي، وهو بإذن الله على طريقهم سائر، وعلى آثارهم يمشي.

ستكون أديس أبابا هي المحطّة الأولى لتشتعل منها نار التضحية والنضال، وسيعمل ويسعى حتى يقطف ثمار الحريّة ويهديها إلى هذا الشعب الكريم الذي يستحقّ كل الخير، فإمّا أن ينتصر له، أو يموت دون ذلك.

إلى اللقاء في الجزء الثاني
فبراير 2022م

رقم الإيداع:
2022/514